

الجزء الاول (محمد المصطفى «ص»)

فهرس إجمالى

الباب الأول:

المدخل: المنهج القرآنى فى عرض و دراسة التاريخ و السيرة ١٧

الفصل الأول: النبى الخاتم (صلى الله عليه و اله) فى سطور ٢٥

الفصل الثانى: سنّة البشارة على مدى العصور ٣١

الفصل الثالث: مظاهر من شخصية خاتم النبيين (صلى الله عليه و اله) ٣٩

الباب الثانى:

الفصل الأول: الولادة و النشأة ٥١

الفصل الثانى: دور الفتوة و الشباب ٦١

الفصل الثالث: من الزواج الى البعثة ٦٧

الباب الثالث:

الفصل الأول: البعثة النبوية المباركة و إرهاباتها ٧٧

الفصل الثانى: مراحل حركة الرسالة فى العصر المكى ٨٧

الفصل الثالث: موقف بنى هاشم من النبى (صلى الله عليه و اله) ٩٣

الفصل الرابع: سنوات ما قبل الهجرة ١٠٧

الباب الرابع:

الفصل الأول: تأسيس الدولة النبوية المباركة ١١٩

الفصل الثانى: الدفاع عن كيان الدولة الفتية ١٣١

الفصل الثالث: تظاهر قوى الشرك و الرد الإلهي الحاسم ١٥٣

الباب الخامس:

الفصل الأول: مرحلة الفتح ١٦١

الفصل الثاني: الاسلام خارج الجزيرة ١٧٣

الفصل الثالث: تصفية الوجود الوثني خارج الجزيرة ١٩٣

الفصل الرابع: أيام الرسول (صلى الله عليه و اله) الأخيرة ٢٠٥

الفصل الخامس: من معالم الرسالة الخالدة ٢١١

الفصل السادس: تراث خاتم المرسلين (صلى الله عليه و اله) ٢١٧

ص:٧

[مقدمة المجمع]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، ثم الصلاة والسلام على من اختارهم هداةً لعباده، لا سيما خاتم الأنبياء و سيد الرسل و الأصفياء أبو القاسم المصطفى محمد (صلى الله عليه و اله) و على آله الميامين النجباء.

لقد خلق الله الانسان و زوده بعنصرى العقل و الإرادة، فبالعقل يبصر و يكتشف الحقّ و يميّزه عن الباطل، و بالإرادة يختار ما يراه صالحا له و محققا لأغراضه و أهدافه.

و قد جعل الله العقل المميّز حجةً له على خلقه، و أعانه بما أفاض على العقول من معين هدايته؛ فإنّه هو الذى علّم الإنسان ما لم يعلم، و أرشده إلى طريق كماله اللائق به، و عرفه الغاية التى خلقه من أجلها، و جاء به إلى هذه الحياة الدنيا من أجل تحقيقها.

و أوضح القرآن الحكيم بنصوصه الصريحة معالم الهداية الربّانية و آفاقها و مستلزماتها و طرقها، كما بيّن لنا عللها و أسبابها من جهة، و أسفر عن ثمارها و نتائجها من جهة أخرى.

قال تعالى:

ص:٨=PAGE

قُلْ إِن هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى [الانعام (٦): ٧١].

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [البقرة (٢): ٢١٣].

وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ [الاحزاب (٣٣): ٤].

وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [آل عمران (٣): ١٠١].

قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [يونس (١٠): ٣٥].

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [سبأ (٣٤): ٦].

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ [القصص (٢٨): ٥٠].

فالله تعالى هو مصدر الهداية . و هدايته هي الهداية الحقيقية، و هو الذى يأخذ بيد الانسان إلى الصراط المستقيم و إلى الحق القويم.

و هذه الحقائق يؤيدها العلم و يدركها العلماء و يخضعون لها بملء وجودهم.

و لقد أودع الله فى فطرة الانسان النزوع إلى الكمال و الجمال ثم من عليه بإرشاده إلى الكمال اللائق به، و أسبغ عليه نعمة التعرف على طريق الكمال، و من هنا قال تعالى : **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** [الذاريات (٥١): ٥٦]. و حيث لا تتحقق العبادة الحقيقية من دون المعرفة، كانت المعرفة و العبادة طريقا منحصرًا و هدفًا و غاية موصلة إلى قمة الكمال .

و بعد أن زود الله الانسان بطاقتي الغضب و الشهوة ليحقق له وقود الحركة نحو الكمال؛ لم يؤمن عليه من سيطرة الغضب و الشهوة؛ و الهوى الناشئ منهما، و الملازم لهما فمن هنا احتاج الانسان - بالإضافة إلى عقله و سائر أدوات المعرفة - ما يضمن له سلامة البصيرة و الرؤية؛ كى تتم عليه الحجة، و تكمل نعمة الهداية،

ص: PAGE=٩:

و تتوفر لديه كل الأسباب التى تجعله يختار طريق الخير و السعادة، أو طريق الشرّ و الشقاء بملء إرادته.

و من هنا اقتضت سنة الهداية الربانية أن يسند عقل الانسان عن طريق الوحي الإلهي، و من خلال الهداة الذين اختارهم الله لتولّى مسؤولية هداية العباد و ذلك عن طريق توفير تفاصيل المعرفة و إعطاء الارشادات اللازمة لكل مرافق الحياة.

و قد حمل الأنبياء و أوصياؤهم مشعل الهداية الربانية منذ فجر التاريخ و على مدى العصور و القرون، و لم يترك الله عباده مهملين دون حجة هادية و علم مرشد و نور مضيء، كما أفصحت نصوص الوحي - مؤيدةً لدلائل العقل - بأن الأرض لا تخلو من حجة لله على خلقه، لئلا يكون للناس على الله حجة، فالحجة قبل الخلق و مع الخلق و بعد الخلق، و لو لم يبق

في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجّة، و صرّح القرآن - بشكل لا يقبل الريب - قائلا: **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** [الرعد (١٣): ٧].

و يتولّى أنبياء الله و رسله و أوصياؤهم الهداء المهديون مهمّة الهداية بجميع مراتبها، و التي تتلخّص في:

١- تلقّى الوحي بشكل كامل و استيعاب الرسالة الإلهية بصورة دقيقة . و هذه المرحلة تتطلّب الاستعداد التام لتلقّى الرسالة، و من هنا يكون الاصطفاء الإلهي لرسله شأنًا من شؤونه، كما أفصح بذلك الذكر الحكيم قائلا: **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** [الانعام (٤): ١٢٤] و **اللَّهُ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ** [آل عمران (٣): ١٧٩].

٢- إبلاغ الرسالة الإلهية الى البشرية و لمن ارسلوا إليه، و يتوّقف الإبلاغ على الكفاءة التامة التي تتمثل في «الاستيعاب و الإحاطة اللازمة» بتفاصيل

ص: ١٠=PAGE:

الرسالة و أهدافها و متطلّباتها، و «العصمة» عن الخطأ و الانحراف معا، قال تعالى:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ [البقرة (٢): ٢١٣].

٣- تكوين امة مؤمنة بالرسالة الإلهية، و إعدادها لدعم القيادة الهادية من أجل تحقيق أهدافها و تطبيق قوانينها في الحياة، و قد صرّحت آيات الذكر الحكيم بهذه المهمة مستخدمة عنواني التزكية و التعليم، قال تعالى : **يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ** [الجمعة (٦٢): ٢] و التزكية هي التربية باتجاه الكمال اللائق بالإنسان . و تتطلّب التربية القدوة الصالحة التي تتمتع بكلّ عناصر الكمال، كما قال تعالى: **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** [الاحزاب (٣٣): ٢١].

٤- صيانة الرسالة من الزيغ و التحريف و الضياع في الفترة المقررة لها، و هذه المهمة أيضا تتطلّب الكفاءة العلمية و النفسية، و التي تسمّى بالعصمة.

٥- العمل لتحقيق أهداف الرسالة المعنوية و تثبيت القيم الأخلاقية في نفوس الأفراد و أركان المجتمعات البشرية و ذلك بتنفيذ الاطروحة الربانية، و تطبيق قوانين الدين الحنيف على المجتمع البشري من خلال تأسيس كيان سياسي يتولّى إدارة شؤون الامة على أساس الرسالة الربانية للبشرية، و يتطلّب التنفيذ قيادة حكيمة، و شجاعة فائقة، و صمودا كبيرا، و معرفة تامة بالنفوس و طبقات المجتمع و التيارات الفكرية و السياسية و الاجتماعية و قوانين الإدارة و التربية و سنن الحياة، و نلخصها في الكفاءة العلمية لإدارة دولة عالمية دينية، هذا فضلا عن العصمة التي تعبّر عن الكفاءة النفسية التي تصون القيادة الدينية من كلّ سلوك منحرف أو عمل خاطئ بإمكانه أن يؤثر تأثيرا سلبيا على مسيرة القيادة و انقياد الامة لها بحيث يتنافى مع أهداف الرسالة و أغراضها.

ص: ١١=PAGE:

وقد سلك الأنبياء السابقون وأوصياؤهم المصطفون طرق الهداية الدامى، واقتحموا سبيل التربية الشاق، وتحملوا فى سبيل أداء المهام الرسالية كلَّ صعب، وقدموا فى سبيل تحقيق أهداف الرسالات الإلهية كلَّ ما يمكن أن يقدمه الإنسان المتفانى فى مبدئه وعقيدته، ولم يتراجعوا لحظة، ولم يتلکأوا طرفة عين.

وقد توجَّ الله جهودهم وجهادهم المستمرَّ على مدى العصور برسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله) و حمله الأمانة الكبرى و مسؤولية الهداية بجميع مراتبها، طالبا منه تحقيق أهدافها . و قد خطا الرسول الأعظم (صلى الله عليه و اله) فى هذا الطريق الوعر خطوات مذهشة، و حقق فى أقصر فترة زمنية أكبر نتاج ممكن فى حساب الدعوات التغييرية و الرسالات الثورية، و كانت حصيلة جهاده و كدحه ليل نهار خلال عقدين من الزمن ما يلى:

١- تقديم رسالة كاملة للبشرية تحتوى على عناصر الديمومة و البقاء.

٢- تزويدها بعناصر تصونها من الزيغ و الانحراف.

٣- تكوين امة مسلمة تؤمن بالإسلام مبدأ، و بالرسول قائدا، و بالشرعية قانونا للحياة.

٤- تأسيس دولة إسلامية و كيان سياسى يحمل لواء الإسلام و يطبق شريعة السماء.

٥- تقديم الوجه المشرق للقيادة الربانية الحكيمة المتمثلة فى قيادته (صلى الله عليه و اله).

و لتحقيق أهداف الرسالة بشكل كامل كان من الضرورى:

أ- أن تستمر القيادة الكفوءة فى تطبيق الرسالة و صيانتها من أيدي العابثين الذين يتربصون بها الدوائر.

ص: ١٢=PAGE:

ب- أن تستمر عملية التربية الصحيحة باستمرار الأجيال؛ على يد مربّ كفوء علميا و نفسيا حيث يكون قدوة حسنة فى الخلق و السلوك كالرسول (صلى الله عليه و اله)، يستوعب الرسالة و يجسدها فى كل حركاته و سكناته.

و من هنا كان التخطيط الإلهى يحتم على الرسول (صلى الله عليه و اله) إعداد الصفوة من أهل بيته، و التصريح بأسمائهم و أدوارهم؛ لتسلّم مقاليد الحركة النبوية العظيمة و الهداية الربانية الخالدة بأمر من الله سبحانه و صيانة للرسالة الإلهية التى كتب الله لها الخلود من تحريف الجاهلين و كيد الخائنين، و تربية للأجيال على قيم و مفاهيم الشريعة المباركة التى تولوا تبين معالمها و كشف أسرارها و ذخائرها على مرّ العصور، و حتى يرث الله الأرض و من عليها.

و تجلّى هذا التخطيط الربانى فى ما نصّ عليه الرسول (صلى الله عليه و اله) بقوله: «إننى تارك فىكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله و عترتى، و إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

و كان أئمة أهل البيت صلوات الله عليهم خير من عرفهم النبى الأكرم (صلى الله عليه و اله) بأمر من الله تعالى لقيادة الامّة من بعده.

إنَّ سيرة الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السَّلام تمثِّل المسيرة الواقعية للاسلام بعد عصر الرسول (صلى الله عليه و اله)، و دراسة حياتهم بشكل مستوعب تكشف لنا عن صورة مستوعبة لحركة الاسلام الأصيل الذى أخذ يشقَّ طريقه إلى أعماق الامة بعد أن أخذت طاقتها الحرارية تنضال بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه و اله)، فأخذ الأئمة المعصومون (عليهم السَّلام) يعملون على توعية الامة و تحريك طاقتها باتجاه إيجاد و تصعيد الوعى الرسالى للشريعة و لحركة الرسول (صلى الله عليه و اله) و ثورته المباركة، غير خارجين عن مسار السنن الكونية التى تتحكَّم فى سلوك القيادة و الامة جمعاء.

ص: ١٣=PAGE:

و تبلورت حياة الأئمة الراشدين فى استمرارهم على نهج الرسول العظيم و انفتاح الامة عليهم و التفاعل معهم كأعلام للهداية و مصايح لإنارة الدرب للسالكين المؤمنين بقيادتهم، فكانوا هم الأدلاء على الله و على مرضاته، و المستقرين فى أمر الله، و التامين فى محبته، و الذائبين فى الشوق اليه، و السابقين إلى تسلق قمم الكمال الإنسانى المنشود.

و قد حفلت حياتهم بأنواع الجهاد و الصبر على طاعة الله و تحمّل جفاء أهل الجفاء حتى ضربوا أعلى أمثلة الصمود لتنفيذ أحكام الله تعالى، ثم اختاروا الشهادة مع العز على الحياة مع الذل، حتى فازوا بقاء الله سبحانه بعد كفاح عظيم و جهاد كبير.

و لا يستطيع المؤرخون و الكتّاب أن يلمّوا بجميع زوايا حياتهم العطرة و يدعوا دراستها بشكل كامل، و من هنا فإنَّ محاولتنا هذه إنما هى إعطاء قيسات من حياتهم، و لقطات من سيرتهم و سلوكهم و مواقفهم التى دونها المؤرخون و استطعنا اكتشافها من خلال مصادر الدراسة و التحقيق، عسى الله أن ينفع بها إنّه ولىّ التوفيق.

إنَّ دراستنا لحركة أهل البيت (عليهم السَّلام) الرسالية تبدأ برسول الإسلام و خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله) و تنتهى بخاتم الأوصياء، محمد بن الحسن العسكرى المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه و أثار الأرض بعدله.

و يختص هذا الكتاب بدراسة حياة الرسول المصطفى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله) الذى جسّد الإسلام بكل أبعاده، فى جميع مرافق حياته : الفردية و الاجتماعية، و فى ظروف اجتماعية و سياسية عصبية فأرسى قواعد القيم الإسلامية المثلى فى واقع الفكر و العقيدة و فى افق الخلق و السلوك و أصبح نبراسا

ص: ١٤=PAGE:

- على مدى العصور - يشعّ بالإيمان و الطهر و البهاء للعالمين.

و لا بدّ لنا من تقديم الشكر الى كلّ الاخوة الأعزّاء الذين بذلوا جهدا و افرا و شاركوا فى إنجاز هذا المشروع المبارك و إخراجه إلى عالم النور، لا سيما أعضاء لجنة التأليف بإشراف سماحة السيد منذر الحكيم حفظه الله تعالى.

و لا يسعنا إلا أن نبتهل الى الله تعالى بالدعاء و الشكر لتوفيقه على إنجاز هذه الموسوعة المباركة فإنه حسبنا و نعم النصير.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السّلام قم المقدسة

ص: PAGE=١٥ص:

الباب الأوّل فيه فصول:

المدخل:

المنهج القرآنى فى عرض و دراسة التاريخ و السيرة الفصل الأوّل:

النبيّ الخاتم (صلى الله عليه و اله) فى سطور الفصل الثانى:

سنّة البشارة على مدى العصور الفصل الثالث:

مظاهر من شخصية خاتم النبيين (صلى الله عليه و اله)

ص: PAGE=١٧ص:

المدخل: المنهج القرآنى فى عرض و دراسة التاريخ و السيرة

للقرآن الكريم عناية فائقة بسيرة الانبياء الهداء و له نهج خاص فى عرض سيرتهم صلوات الله عليهم أجمعين.

و المنهج القرآنى يقوم على مجموعة من الاسس و الاصول العلمية فى كيفية عرضه لسيرة الهداء المصطفين.

إنّ القرآن الكريم ينطلق من عنصر الهداية و هو عنصر ترشيد حركة الانسان نحو الكمال اللائق به فيختار أهدافا واقعية

لمجموعة من الحوادث التاريخية التى تشكّل منعطفا مهماً فى حياة الأفراد و الامم و تكون مفتاحا للدخول الى ابواب

واسعة من العلوم و المعارف التى تخدم حركة الانسان التكاملية.

و القرآن الكريم يوظّف شتى الأدوات للوصول الى تلك الأهداف المتلى.

فهو يخاطب العقل و العقلاء و يفتح أمام الفكر الإنسانى آفاقا جديدة حيث يقول:

١- فَأَقْصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^١.

ص: PAGE=١٨ص:

٢- لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ٢.

ف (التفكير) و (الاعتبار) فى حوادث التأريخ و السيرة (تاريخ الامم و سيرة القادة الهداء) يشكّلان هدفين أساسيين فى المنهج القرآنى فى مجال للتاريخ.

و لا تقتصر الأهداف على هذين بل تتعداهما الى أهداف رسالية اخرى تتجلى فى قوله تعالى:

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣.

و فى قوله تعالى : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٤.

حيث تضمّنت كل آية أربعة أهداف رسالية لاستعراض أنباء المرسلين و التحدّث عن قصصهم.

و يعتمد القرآن الكريم فى منهجه التاريخى الذى يتفرّد به على الاصول التالية:

١- الحق.

٢- العلم.

٣- المعاصرة للأحداث.

٤- الاحاطة بها.

فلا يدع مجالاً للريب و الافتراء فيما يحدث عنه و يقصّه و يستعرضه من ظواهر تاريخية و حوادث اجتماعية سابقة أو معاصرة للتنزيل. ما دام يعتمد الحق

ص: PAGE=١٩:

و العلم دون الخرافة و الخيال.

و قد أكّد هذين الأصلين بقوله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ** ...^٥ و بقوله أيضا فى مطلع سورة الاعراف : **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ**^٦ و فيه تصريح بعنصر المعاصرة للأحداث التى يقوم بعرضها.

^٢ (1) يوسف(12): 111.

^٣ (2) يوسف(12): 111.

^٤ (3) هود(11): 120.

^٥ (1) آل عمران(3): 62.

^٦ (2) الاعراف(7): 7.

و للقرآن الكريم بعد ذلك كله منهج علمي في التحليل و الا ستنتاج الى جانب اعتماده على الاستقراء تارة و على الاستدلال تارة اخرى.

و حين يستعرض القرآن حياة الرسل بشكل عام يذكر خطوطا عريضة تجعلهم في صف واحد و خندق واحد و خط واحد هو خط الاسلام العام، كما قال تعالى: **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**^٧.

ثم إنه يغور في أعماق سيرة كل واحد من اولى العزم من الرسل ليحيط المتلقى بأهم مفاصل سيرتهم و زواياها و ليربط بينها و بين ما سبقها و ما يلحقها من حوادث تتعلق بالخط الرسالي المستمر باستمرار الحياة.

إن من طبيعة البحث التاريخي أن تناله يد التحريف و قد يغطيه الإبهام و لغموض و قد تستره سحب داكنة ريشما تنكشف الحقيقة بالتدرج و ينمو الانكشاف حتى يبلغ حدًا لا يستسيغ المجتمع الانساني التغافل عنه و تجاوز الحقائق فيه.

و تشير الآية المباركة (١١١) من سورة يوسف الى إمكان الافتراء و التلاعب بحقائق التاريخ أو المبالغة و البحث عن غير علم و سدل الستار على الحق الذي لا بد أن يظهر في ظرف ما.

ص: ٢٠=PAGE:

و من هنا؛ كان على المدرسة القرآنية أن تسلح الباحث عن الحقيقة بسلاح موضوعي قادر على اكتشاف الحقيقة بشكل كامل.

لقد طرح القرآن الكريم نظرية الثوابت التي لا يمكن للفكر الانساني أن يتجاوزها في حال من الاحوال و سمّاها بالمحكات و ام الكتاب. و هي الحقائق الثابتة و البينة للفكر الانساني، و هي لا تقبل الريب أو التردد أو التشكيك بحال من الاحوال.

و الثوابت دائما تشكّل الخطوط العريضة و المعالم الاساسية للفكر الانساني الذي يستوعب ما لا يستوعبه عالم المادة، و لكنه لا يستسيغ أن يقف مكتوف اليدين أمام المبهمات و ما يختلف فيه أبناء آدم (عليه السلام).

و يسوق القرآن الكريم للقارئ الواعي موقفين و اسلوبين من التعامل مع المبهمات أو ما يختلف فيه بنو آدم، و يحاكم هذين الاسلوبين ليخرج الى نتيجة بيّنة تصريح معيارا و تقدم قاعدة عامة للتعامل مع كل خبر يرد على الفكر الانساني.

و يعود كل نوع من أنواع التعامل الى جذور نفسية واضحة تنسحب على نوع التعامل و تنعكس في اسلوب المواجهة مع كل حديث ينقل الى الانسان و يراد من الفكر الانساني أن يتخذ منه الموقف المناسب و الجدير به.

قال تعالى بعد أن أشار الى أن القرآن هو الفرقان الذي نزله الله على رسوله الامين:

^٧ (3) آل عمران(3): 19.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا

ص: ٢١=PAGE:

لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.^٨

إن سلامة النفس من الزيغ تحول بين الانسان وبين ابتغاء الفتنة . و من هنا يتوقف الانسان الذي يتحرى الحقيقة عن اتباع المتشابه من الآيات، بل يرجع الأمر الى ربه.

فالعقل يقف حائلا بينه وبين أى تفسير غير علمي أو غير مستند الى دليل صحيح و حقائق ثابتة، بل العقل هو الذى يرشده الى الركون الى المحكمات و الالتزام بأم الكتاب حيث يشكّل ذلك الاطار العام و الخطوط الثابتة التى لا يمكن تجاوزها بحال من الاحوال، و حينئذ من الطبيعى أن نلاحظ الآيات الاخرى فى ظل هذه الثوابت و هذه المعالم التى لا يمكن تجاوزها.

و هنا تتفتح آفاق النفس لآفاق الفكر لتأمل فيما لا يكون صريحا أو واضحا فى بداية الامر، و بهذا سوف يضمن العاقل الذى آمن بربه عدم الزيغ و عدم التسرع فى تفسير و تحليل ما يشاهده من الآيات المتشابهة، بل يقف منها موقف اللبيب الحكيم، و إن لم يفلح فى اكتشاف الحقيقة فإنه لا ينكرها و لا يستنكرها، و إنما يرجع الامر الى مصدره و يوكل الامر الى ربه الذى نزل الآيات هذه و يستفهم منه ما يتغيه، طالبا منه استمرار الهداية و نزول الرحمة.

إنه الموقف السليم الذى يمثل النضج و التعامل المنطقى مع النصوص إذ لا يتسرع العاقل فى التوجيه و التحليل.

و من هنا: قد نفهم الوجه فى قوله تعالى فى مطلع سورة هود : ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾^٩ فإن التفصيل إنما يكون بعد الإحكام و بعد أن تتعين الآيات التى هى ام الكتاب، و التى تعدّ هى الاسس و الخطوط الثابتة

ص: ٢٢=PAGE:

كما أفصحت بذلك الآية السابعة من سورة آل عمران مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ^{١٠}.

و الآية (٣٩) من سورة الرعد تلقى بظلالها على هذه النقطة أيضا إذ تقول:

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ فَإِنْ مَا لَا يَتَعَرَّضُ لِلْمَحْوِ وَ التَّغْيِيرِ هُوَ أَمُّ الْكِتَابِ . و ما دونه قد يتعرض للمحو و التغيير تبعا لاختلاف الظروف و الحالات و الطوارئ.

^٨ (1) آل عمران(3): 7-8.

^٩ (2) هود(11): 1.

^{١٠} (1) آل عمران(3): 7.

و تكفى هذه الآيات لرسم المنهج العام الذى يسير على يه القرآن الكريم فى تعامله مع وقائع التاريخ، فإن الاختلاف فى التفاصيل لا يسمح لنا بإنكار الأصل و التغافل عنه و إدانة ما ثبت لدينا و تحققنا من وجوده.

و فى ضوء هذا يمكن تقويم كل ما ورد فى كتب السيرة النبوية أو التاريخ الاسلامى أو تأريخ ما قبل الاسلام مما يرتبط بالانبياء و امهم؛ فإن الثوابت التاريخية هى محطات الإشعاع و هى المحكمات التى لا يمكن تجاوزها بحال من الاحوال و اليها نحتكم فى تفسير أو قبول أو ردّ ما أثبتته كتب التأريخ من نصوص تحتوى على الصحيح و الخطأ.

إذن؛ حقل التاريخ - و هو حقل اختلاط الحقائق بالأباطيل - يتطلب منا استعمال أدوات تسعفنا لكشف تمام الحقيقة الثابتة.

و ثوابت التاريخ - التى أيدها محكمات العقل و النقل - هى المنطلق لأى تفسير أو تأويل أو محاكمة أو إدانة.

و قد طبّق القرآن الكريم هذا المنهج على سيرة الأنبياء و امهم بالذات حينما رسم لنا صورة واضحة يشترك فيها كل الأنبياء و اعتبر النبوة و الاصطفاء

ص: ٢٣=PAGE:

ناشئين من مواصفات أساسية فى شخصية كل نبيّ، أهلته لأن يختاره الله نبيّاً لهداية الخلق على يديه، و هذه المواصفات هى: اكتمال العقل و الوعى و الصلاح و الصبر و العبودية التامة لله القائمة على الوعى و البصيرة، قال تعالى مخاطباً نبيّه: **قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ...** ^{١١}، كما قاله له: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...** ^{١٢}.

هذا هو المنطق القرآنى الذى يمثّل الإحكام و الثبات ... فكيف يبعث الله نبيّاً لا يعى و لا يدرك أنه مبعوث أو مرسل من ربه و لا يطمئن الى ما يراه من آيات ربه إلا أن يطمئن الآخرون؟! فلا يعقل أن يبعث و يهبأ للنبوة و هو لا يعلم أنه نبي و مبعوث من الله الى الخلق، أو يتردد أو يشك فى مهمته، فضلا عن تصوّره أنه يستلهم الحقيقة م من يراد منه هدايته . قال تعالى مشيراً الى هذه الحقيقة:

... أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ^{١٣}.

إن الصورة الواضحة التى يرسمها القرآن الكريم عن شخصية أنبياء الله و التى تؤيدها محكمات العقل هى التى تصبح موثلاً و مرجعاً محكماً و ثابتاً لمحاكمة كل صورة تسربت من التوراة و الانجيل أو جاءت فيما سمى بالصحاح أو عامّة كتب التاريخ التى وردت فيها بعض القصص عن أنبياء الله، سواء كان ذلك النبى هو إبراهيم (عليه السلام) أو موسى (عليه السلام) أو عيسى (عليه السلام) أو محمد (صلّى الله عليه و اله)، و سواء كان الناقل لهذه الصورة بعض أمّهات المؤمنين أو بعض الصحابة أو من يمتّ الى الرسول (صلّى الله عليه و اله) بصلّة من قريب أو بعيد.

ص: ٢٥=PAGE:

^{١١} (1) الانعام (6): 57.

^{١٢} (2) يوسف (12): 108.

^{١٣} (3) يونس (10): 35.

الفصل الأول النبي الخاتم (صلى الله عليه و اله) في سطور

ولد خاتم النبيين و سيد المرسلين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (صلى الله عليه و اله) في السابع عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل بعد أن فقد أباه، ثم استرضع في بني سعد، و ردّ الى أمّه و هو في الرابعة أو الخامسة من عمره . و قد توفيت أمّه حين بلغ السادسة من عمره فكفله جدّه و اختص به و بقي معه سنتين ثم ودّع الحياة بعد أن أوكل أمر رعايته الى عمّه الحنون أبي طالب حيث بقي مع عمّه الى حين زواجه.

و سافر مع عمّه الى الشام و هو في الثانية عشرة من عمره و التقى ببحيرا الراهب في الطريق فعرفه بحيرى و حذرّ أبا طالب من التفريط به و كشف له عن تربص اليهود به الدوائر.

و حضر النبي (صلى الله عليه و اله) حلف الفضول بعد العشرين من عمره و كان يفتخر بذلك فيما بعد، و سافر الى الشام مضاربا بأموال خديجة و تزوجها و هو في الخامسة و العشرين و في ريعان شبابه، بعد أن كان قد عرف بالصادق الأمين، و قد ارتضته القبائل المتنازعة لنصب الحجر الأسود لحل نزاعها فأبدى حنكّة و ابداعا رائعا أرضى به جميع المتنازعين.

و بعث و هو في الأربعين و أخذ يدعو الى الله و هو على بصيرة من أمره

ص: ٢٦=PAGE:

و يجمع الاتباع و الأنصار من المؤمنين السابقين.

و بعد مضي ثلاث أو خمس سنوات من بداية الدعوة الى الله، أمره الله بإنذار عشيرته الأقربين ثم أمره بأن يصدع بالرسالة و يدعو إلى الإسلام علانية ليدخل من أحبّ الإسلام في سلك المسلمين و المؤمنين.

و من ذلك الحين أخذت قريش تزرع الموانع أمام حركة الرسول (صلى الله عليه و اله) و تحاول أن تمنع من انتشار الرسالة صادةً بذلك عن سبيل الله . و عمل النبي (صلى الله عليه و اله) الى فتح نافذة جديدة للدعوة خارج مكة فارسل عدّة مجاميع من المسلمين الى الحبشة بعد أن حظوا باستقبال ملكها (النجاشي) و ترحيبه بقدمه م فاستقروا فيها بقيادة جعفر بن أبي طالب و لم يتركها جعفر إلّا في السنة السابعة بعد الهجرة.

و لم تفلح قريش في تأليب النجاشي على المسلمين، فبدأت بخطّة جديدة تمثّلت في فرض الحصار الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي و الذي استمرّ لمدة ثلاث سنوات - فلما أيست من إخضاع النبي (صلى الله عليه و اله) و أبي طالب و سائر بني هاشم لأغراضها فكّت الحصار و لكن النبي (صلى الله عليه و اله) و عشيرته بعد أن خرجوا من الحصار منتصرين امتحنوا بوفاء أبي طالب و خديجة - سلام الله عليهما - في السنة العاشرة من البعثة و كان وقع الحادثين تقيلا على النبي (صلى الله عليه و اله) لأنّه فقد بذلك أقوى ناصرين في عام واحد.

و هنا رجّح بعض المؤرّخين تحقق حادثة الاسراء و المعراج و النبي في أوج هذا الحزن و الضغط النفسى على النبي (صلى الله عليه و اله) و هو يرى صدود قريش و وقوفها بكل ثقلها أمام رس الله ففتح الله له آفاق المستقبل بما أراه من آياته الكبرى فكانت بركات (المعراج) عظيمة للنبي و للمؤمنين جميعا.

و هاجر الرسول (صلى الله عليه و اله) الى الطائف لبحث عن قاعدة جديدة و لكنه لم يكسب فتحا جديدا من هذه البلدة المجاورة لمكة و المتأثرة بأجوائها، فوجع الى

ص: PAGE=٢٧:

مكة بعد أن اختار جوار مطعم بن عدى فدخلها، و بدأ نشاطا جديدا لنشر الرسالة و فى موسم الحج حيث أخذ يعرض نفسه على القبائل القاصدة للبيت الحرام لأداء مناسك الحج و للاتجار فى سوق عكاظ ففتح الله له أبواب النصر بعد التقائه بأهل يثرب، و استمرت دعوته الى الله و انتشر الاسلام فى يثرب حتى قرر الهجرة اليها بنفسه بعد أن أخبره الله تعالى بكيد قريش حين أجمعت بطونها على قتله و التخلّص منه نهائيا، فأمر عليا (عليه السلام) بالمبيت فى فراشه و هاجر هو الى يثرب بكل حيطة و حذر، و دخلها و أهل يثرب على أتم الاستعداد لاستقباله، فوصل (قبا) فى غرة ربيع الأول و أصبحت هجرته المباركة مبدأ للتأريخ الاسلامى بأمر منه (صلى الله عليه و اله).

و أسس النبي الخاتم (صلى الله عليه و اله) أول دولة اسلامية فأرسى قواعدها طيلة السنة الاولى بعد الهجرة بدءا بكسر الأصنام و بناء المسجد النبوى الذى أعده مركزا لنشاطه و دعوته و حكومته و بالمؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار ليقيم بذلك قاعدة شعبية صلبة يقوم عليها بناء الدولة الجديدة، هذا مضافا إلى كتابة الصحيفة التى نظم فيها علاقة القبائل بعضها مع بعض و المعاهدة التى أمضاها مع بطون اليهود حيث كانت تشتمل على الخطوط العامة لأول نظام إدارى و حكومى إسلامى.

و لقد واجهت الدولة الإسلامية الفتية و كذا الدعوة الإسلامية مواجهة شرسة من جانب قريش التى عازمت على اكتساح الدعوة و الدولة الإسلاميتين فشنت الحرب بعد الحرب على المسلمين و كان لا بد للنبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمين من الدفاع.

و بدأت سنوات الدفاع عن هذه الدولة الفتية و قد افتتحها بأول سرية بقيادة عمه حمزة فى الشهر السابع بعد الهجرة و جهّز ثلاث سرايا الى نهاية العام الأول من الهجرة. و نزلت فى هذا العام آيات كثيرة من سورة البقرة لترسم للنبي (صلى الله عليه و اله) و دولته و أمته أحكاما خالدة و تفضح خطط المنافقين و تكشف مؤامرات اليهود

ص: PAGE=٢٨:

ضدّ خاتم المرسلين و دولته العالمية الجديدة.

لقد استهدفت قريش النبي (صلى الله عليه و اله) و دولته من خارج المدينة، و استهدف اليهود هذه الدولة من داخل المدينة فرصد النبي تحركاتهم جميعا، و تابعت ثمان غزوات و سريتان طيلة العام الثانى بما فيها غزوة بدر الكبرى فى رمضان المبارك حيث افترضت فريضة الصيام و تم تحويل القبلة الذى أعطى لاستقلال الامّة المسلمة و الدولة الاسلامية بعدا جديدا.

و حفل العام الثانى بمزيد من الانتصارات العسكرية من جانب و نزول التشريعات السياسية و الاجتماعية من جانب آخر و منيت قريش و اليهود بأول هزيمة فاضحة كما تم إجلاء بنى قينقاع و هم أول طوائف اليهود التى اتخذت المدينة وطنا بعد أن نكثوا عهدهم مع الرسول (صلى الله عليه و اله) عقب انتصار المسلمين فى بدر الكبرى.

و استمرت محاولات قريش العسكرية ضد الإسلام و المسلمين من خارج المدينة و نكثت قبائل اليهود عهدا مع النبى (صلى الله عليه و اله) عدة مرّات خلال ثلاث سنوات متتابة، فكانت خمس غزوات - و هى: احد و بنى النضير و الأحزاب و بنى قريظة و بنى المصطلق - ذات ثقل باهض على عاتق النبى (صلى الله عليه و اله) و المسلمين جميعا خلال هذه السنين الثلاث.

و ردّ الله كيد الأحزاب و اليهود معا فى العام الخامس بعد أن أبلى المسلمون بلاءا حسنا و مهّد الله بذلك للفتح المبين بعد أن أيست قريش من القضاء على شوكة المسلمين و انطلق النبى (صلى الله عليه و اله) بعد صلح الحديبية يتحالف مع القبائل المحيطة به و يستقطبها ليجعل منها قوة واحدة أمام قوى الشرك و الإلحاد جميعا حتى فتح الله له مكة فى العام الثامن و مكّنه من تصفية قواعد الشرك فى شبه الجزيرة بعد أن أخضع عتاة قريش لدولته و سياسته المباركة.

ص: ٢٩=PAGE:

ثم كانت السنة التاسعة عامرة بوفود القبائل التى أخذت تدخل فى دين الله أفواجا.

و كان العام العاشر عام حجة الوداع و آخر سنة قضاها النبى (صلى الله عليه و اله) مع أمته و هو يمهد لدولته العالمية و لامّته الشاهدة على سائر الامم.

و توفى النبى القائد (صلى الله عليه و اله) فى الثامن و العشرين من صفر المظفر سنة احدى عشرة هجرية بعد أن أحكم دعائم دولته الاسلامية حيث عين لها القيادة المعصومة التى تخلفه و ترسّم خطاه متمثلة فى شخص على بن أبى طالب (عليه السلام) ذلك الانسان الكامل الذى رباه الرسول الكريم بيديه الكريمتين منذ أن ولد و رعاه أحسن رعاية طيلة حياته، و جسّد الإمام على بن أبى طالب (عليه السلام) كل قيم الاسلام فى فكره و سلوكه و خلقه و ضرب مثلا أعلى فى الانقياد لرسول الله (صلى الله عليه و اله) و لأوامره و نواهيه فكان جديرا بوسام الولاية الكبرى و الوصاية النبوية و الخلافة الإلهية حيث رشّحه عمق وجوده فى كيان الرسالة الاسلامية و الثورة الإلهية و الدولة النبوية ليكون النائب الأول لرسول الله (صلى الله عليه و اله) حين غيابه عن مسرح الحياة بأمر من الله سبحانه و تعالى.

و قد لّى الرسول الأعظم (صلى الله عليه و اله) نداء ربّه بعد أن أتمّ تبليغ الرسالة بنصب على (عليه السلام) هاديا و إماما للمسلمين على الرغم من حرجة الظروف و صعوبتها.

و هكذا ضرب الرسول (صلى الله عليه و اله) المثل الأعلى لطاعة الله و الانقياد لأوامره حيث بلغ أمر الله أحسن تبليغ و أتمّ الحجة بأبلغ بيان.

تلك نظرة سريعة إلى شخصية و حياة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله) و هلمّ معنا بعد هذه النظرة إلى دراسة تفصيلية فى هذا المجال.

الفصل الثاني سنّة البشارة على مدى العصور

لقد صرّح القرآن الكريم بأن العهد التاريخي للبشرية قد بدأ بظاهرة وجود النبوات وبعث الأنبياء وإرسال الرسل . الذين مضوا يقودون مجتمعاتهم نحو حياة أفضل ووجود إنساني أكمل؛ مما يمكن أن نستنتج منه أن إشراق النبوة و ظهور الأنبياء في المجتمعات البشرية يعتبر بداية العصر التاريخي للبشرية.

قال تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^{١٤}.

لقد قضت حكمة الله و رحمته بإرسال الأنبياء حاملين الى الإنسانية منهاج هدايتها الذي يخرجها من عهد الغريزة الى عهد العقل، و من منطق الصراع الذي مرجعه الغريزة و القوة الى منطق النظام و مرجعه القانون .. و خرج المجتمع البشري بالنبوات عن كونه تكوينا حيوانيا- بيولوجيا الى كونه ظاهرة عقلية روحية و حققت النبوات للإنسان مشروع وحدة أرقى من وحدته الدموية البيولوجية ...

و هي الوحدة القائمة على أساس المعتقد، و بذلك تطوّرت العلاقات الإنسانية

مرتفعة من علاقات المادة الى علاقات المعاني. و الاختلافات التي نشأت في النوع الإنساني بعد إشراق عهد النبوات غدت اختلافات في المعنى، و اختلافات في الدين و المعتقد؛ فإن أسباب الصراع لم تلغ بالدين الذي جاءت به النبوات بل استمرت و تنوعت، و لكن المرجع لم يعد الغريزة بل غدا القانون مرجعا في هذا المضمار . و القانون الذي يتضمنه الدين يكون قاعدة ثابتة لوحدة الإنسانية و تعاونها و تكاملها^{١٥}.

و أوضح الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة- بعد أن استعرض تاريخ خلق العالم و تاريخ خلق آدم (عليه السلام) و إساكنه في الأرض- أن إشراق النبوة و تسلسلها على مدى العصور هو المحور في تاريخ الإنسان و حركته نحو الكمال كما صرّح به القرآن الكريم موضحا منهجه في التعامل مع التاريخ .

قال (عليه السلام) «... و اصطفى سبحانه من ولد (آدم) أنبياء، أخذ على الوحي ميثاقهم^{١٦}، و على تبليغ الرسالة أمانتهم لَمَا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ^{١٧}، فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَ اتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ^{١٨}، وَ اجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ^{١٩}، وَ اقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ..

^{١٤} (1) البقرة(2): 213.

^{١٥} (1) حركة التاريخ عند الإمام علي (عليه السلام): 71- 73.

^{١٦} (2) أخذ عليهم الميثاق أن يبلغوا ما أوحى إليهم، أو أخذ عليهم أن لا يشركوا للناس إلا ما يوحى إليهم

^{١٧} (3) عهد الله الى الناس: هو ما يعبر عنه بميثاق الفطرة

^{١٨} (4) الأنداد: العبودين من دونه سبحانه و تعالى

فبعث فيهم رسله، و واتر إليهم أنبياءه؛ ليستأدوهم ميثاق فطرته^{٢٠}، و يذكرهم منسى نعمته، و يحتجوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول^{٢١}، و يروهم آيات

ص: PAGE=٣٣:

المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع، و مهاد تحتهم موضوع، و معايش تحييمهم، و آجال تفنيهم، و أوصاب تهرمهم^{٢٢}، و أحداث تتابع عليهم.

و لم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة^{٢٣}.

رسل لا تقصربهم قلة عددهم، و لا كثرة المكذبين لهم: من سابق سمى له من بعده، أو غابر عرفه من قبله^{٢٤}.

على ذلك نسلت القرون^{٢٥}، و مضت الدهور، و سلفت الآباء، و خلفت الأبناء.

الى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله (صلى الله عليه و اله)، لإنجاز عدته^{٢٦}، و إتمام نبوته.

مأخوذا على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته^{٢٧}، كريما ميلاده، و أهل الأرض يومئذ ملل متفرقة و أهوا منتشرة، و طوائف متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير الى غيره^{٢٨}.

فهداهم به من الضلالة، و أنقذهم بمكانه من الجهالة.

ص: PAGE=٣٤:

ثم اختار سبحانه لمحمد (صلى الله عليه و اله) لقاءه، و رضى له ما عنده، و أكرمه عن دار الدنيا، و رغب به عن مقام البلوى، فقبضه اليه كريما (صلى الله عليه و اله)، و خلف فيكم ما خلفت الأنبياء فى اممها إذ لم يتركوهم هملا بغير طريق واضح، و لا علم قائم^{٢٩}.

^{١٩} (5) اجتالتهم: صرقتهم عن قصدهم الذي وجَّهوا إليه بالهداية المغرورة في فطرتهم
^{٢٠} (6) كأن الله تعالى بما أودع في الإنسان من الغرائز و القوى، و بما أقام له من الشواهد و أدلة الهدى، قد أخذ عليه ميثاقا بأن يصرف ما أوتي من ذلك فيما خلق له، و قد كان يعمل على ذلك الميثاق و لا ينقضه لو لا ما اعترضه من وساوس الشهوات، فبعث النبيين ليطلبوا من الناس أداء ذلك الميثاق.

^{٢١} (7) دفائن العقول: أنوار العرفان التي تكشف للإنسان أسرار الكائنات، و ترتفع به الى الإيقان بصانع-- الموجودات، و قد يحجب هذه الأنوار غيوم من الأوهام و حجب من الخيال، فيأتي النبيون لإثارة تلك المعارف الكامنة، و إبراز تلك الأسرار الباطنة

^{٢٢} (1) السقف المرفوع السماء. و المهاد الموضوع الأرض. و الأوصاب: المتاعب.
^{٢٣} (2) المحجة: الطريق القوية الواضحة.

^{٢٤} (3) من سابق بيان للرسول، و كثير من الأنبياء السابقين سميت لهم الأنبياء الذين يأتون بعدهم فبشروا بهم، كما ترى ذلك في التوراة. و الغابر: الذي يأتي بعد أن يشير به السابق جاء معروفا بتعريف من قبله

^{٢٥} (4) مضت متتابعة.
^{٢٦} (5) الضمير في عدته لله تعالى لأن الله وعد بإرسال محمد(صلى الله عليه و اله) على لسان أنبيائه السابقين. و كذلك الضمير في نبوته: لأن الله تعالى أنبا به، و أنه سببعت و حيا لأنبيائه فهذا الخبر الغيبي قبل حصوله يسمى نبوة و لما كان الله هو المخبر به أضيفت النبوة إليه

^{٢٧} (6) سماته: علاماته التي ذكرت في كتب الأنبياء السابقين الذين بشروا به.
^{٢٨} (7) الملحد في إسم الله: الذي يميل به عن حقيقة مسماه فيعتقد في الله صفات يجب تنزيهه عنها. و المشير الى غيره، الذي يشرك معه في التصرف إليها آخر فيعبده و يستعين به.

إنَّ بَشَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ بِنُبُوَّةِ الْأَنْبِيَاءِ الْلاحِقِينَ تَنفَعُ الْأَجْيَالَ الْمَعاصِرَةَ لَهُمْ وَ كذا الْأَجْيَالَ الْلاحِقَةَ؛ إذ تَفُحُّ عِيُونُهُمْ وَ تَجْعَلُهُمْ عَلَى أَهْبَةِ الْاسْتِقْبَالِ لِلنَّبِيِّ الْمُبَشِّرِ بِنُبُوَّتِهِ، كما أَنَّهَا تَزِيلُ عَنْهُمْ الرِّيبَ وَ تَعْطِيهِمْ مَزِيدًا مِنَ الثَّقَةِ وَ الْاطْمَئِنَانِ.

على أن اليأس من الإصلاح إذا ملأ القلب يجعل الانسان يفكر بطرق أبواب الشرّ والخيانة، فالبشائر بمجيء الأنبياء المصلحين تزيل اليأس من النفوس التي تنتظر الإصلاح و توجهها الى حبّ الحياة و قرع أبواب الخير.

و تزيد البشائر إيمان المؤمنين بنبوّة نبيّهم، و تجعل الكافرين في شكّ من كفرهم، فيضعف صمودهم أمام دعوة النبي الى الحقّ ممّا يمهد لقبولهم الدعوة.

و إذا أدّت البشارة إلى حصول الثقة فقد لا تطلب المعجزة من النبيّ، كما تكون النبوة المحفوظة بالبشارة أنفذ الى القلوب و أقرب الى الاذعان بها . على أنّها تبعّد الناس عن وطأة المفاجأة أمام واقع غير منتظر، و تخرج دعوة النبيّ عن الغرابة في نفوس الناس^{٣٠}.

على أن الأنبياء جميعا يشكّلون خطأ واحدا، فالسابق يشتر باللاحق، و اللاحق يؤمن بالسابق . و قد تكفّلت الآية (٨١) من سورة آل عمران بالتصريح بسنة البشائر هذه. فضلا عن الشواهد و التطبيقات التي سوف نلاحظها في البحث الآتي.

ص:٣٥=PAGE:

بشائر الانبياء برسالة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله)

١- لقد نصّ القرآن الكريم على بشارة ابراهيم الخليل (عليه السلام) برسالة خاتم النبيين (صلى الله عليه و اله) بأسلوب الدعاء قائلا- بعد الكلام عن بيت الله الحرام في مكة المكرمة و رفع القواعد من البيت و الدعاء بقبول عمله و عمل اسماعيل (عليه السلام) و طلب تحقيق امه مسلمة من ذريتهما-: رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^{٣١}.

٢- و صرّح القرآن الكريم بأنّ البشارة بنبوّة محمد (صلى الله عليه و اله) الامّية كانت موجودة في العهدين القديم (التوراة) و الجديد (الانجيل). و العهدان كانا في عصر نزول القرآن الكريم و ظهور محمد (صلى الله عليه و اله) و لو لم تكن البشارة موجودة فيهما لجاهر بتكذيبها أصحاب العهدين.

قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...^{٣٢}.

^{٢٩} (1) أي أنّ الأنبياء لم يهملوا أممهم مما يرشدهم بعد موت أربابهم، و قد كان من محمد (صلى الله عليه و اله) مثل ما كان منهم، فإنّه خلف في أمته كتاب الله تعالى حاويا لجميع ما يحتاجون اليه في دينهم، كما خلف أهل بيته المعصومين و جعلهم قرناء للكتاب المجيد كما صرّح بذلك في حديث الثقلين الذي تواتر عنه (صلى الله عليه و اله) و رواه جمع غير من المحدثين

^{٣٠} (2) محمد في القرآن: 36-37.

^{٣١} (1) البقرة(2): 129.

^{٣٢} (2) الاعراف(7): 157.

٣- و صرّحت الآية السادسة من سورة الصف بأن عيسى (عليه السّلام) صدّق التوراة بصراحة و بشر برسالة نبيّ من بعده اسمه أحمد. و قد خاطب عيسى (عليه السّلام) بنى اسرائيل جميعا لا الحواريين فحسب.

أهل الكتاب ينتظرون خاتم النبيين (صلى الله عليه و اله)

لم يكتف الأنبياء السابقون بذكر الأوصاف العامة للنبيّ المبشّر به، بل

ص: PAGE=٣٦:

ذكروا أيضا العلام التي يستطيع المبشرون من خلالها معرفته بشكل دقيق، مثل:

محل ولادته، و محل هجرته و خصائص زمن بعثته، و علائم جسمية خاصة و خصائص يتفرد بها في سلوكه و شريعته .. و لهذا قال القرآن عن بنى إسرائيل بأنهم كانوا يعرفون رسول الإسلام المبشّر به في العهدين كما يعرفون أبناءهم^{٣٣}.

بل رتبوا على ذلك آثارا عملية فاکتشفوا محل هجرته و دولته فاستقروا فيها^{٣٤} و أخذوا يستفتحون برسالته على الذين كفروا و يستنصرون برسول الله (صلى الله عليه و اله) على الأوس و الخزرج^{٣٥} و تسرّبت هذه الأخبار الى غيرهم عن طريق رهبانهم و علمائهم فانتشرت في المدينة و تسرّبت الى مكة^{٣٦}.

و ذهب وفد من قريش بعد إعلان الرسالة إلى اليهود في المدينة للتثبت من صحة دعوى النبيّ (صلى الله عليه و اله) النبوة و حصلوا على معلومات اختبروا بها النبيّ (صلى الله عليه و اله)^{٣٧} و اتضح لهم من خلالها صدق دعواه.

و قد آمن جمع من أهل الكتاب و غيرهم بالنبيّ محمد (صلى الله عليه و اله) على أساس هذه العلام التي عرفوها من دون أن يطلبوا منه معجزة خاصة^{٣٨}، و هذه البشائر تحتفظ بها لحد الآن بعض نسخ التوراة و الانجيل^{٣٩}.

و هكذا تسلسلت البشائر بنبوة خاتم النبيين محمد (صلى الله عليه و اله) من قبل ولادته،

ص: PAGE=٣٧:

و خلال فترة حياته قبل بعثته، و قد عرف و اشتهر منها إخبار بحيرا الراهب و غيره إبان البعثة المباركة^{٤٠}.

و قد شهد على أمير المؤمنين (عليه السّلام) بهذه الحقيقة التاريخية حين قال في إحدى خطبه: «... الى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله (صلى الله عليه و اله) لإنجاز عدته و اتمام نبوته، مأخوذا على النبيين ميثاقه مشهورة سماته ..»^{٤١}.

^{٣٣} (1) الانعام(6): 20.

^{٣٤} (2) سيرة رسول الله: 38/1 - 39.

^{٣٥} (3) البقرة(2): 89.

^{٣٦} (4) أشعة البيت النبوي: 70/1، عن الاغاني: 75/16، تاريخ اليعقوبي: 12/2، حياة نبي الاسلام: 23، عن سيرة ابن هشام: 181/1، و اعلام الوري: 26.

^{٣٧} (5) راجع ما جاء في شأن نزول سورة الكهف

^{٣٨} (6) المائدة(5): 83.

^{٣٩} (7) سيرة رسول الله و أهل بيته: 39/1، انجيل يوحنا و اشعة البيت النبوي: 70/1، عن التوراة و راجع:

بشارات عهدين، و البشارات و المقارنات.

^{٤٠} (1) راجع كتب السيرة النبوية و التفسير حيث تضمنت جملة من هذه البشائر

و قد جاء فى طبقات ابن سعد عن سهل مولى عتيبة انه كان نصرانيا من أهل حريس، و انه كان يتيما فى حجر امه و عمه و انه كان يقرأ الإنجيل، قال:

«... فأخذت مصحفا لعمى فقرأته حتى مرت بي ورقة فانكرت كتابتها حين مرت بي و مسستها بيدي، قال : فنظرت؛ فاذا فصول الورقة ملصق بغراء، قال: ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد (صلى الله عليه و اله): انه لا قصير و لا طويل، أبيض ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم يكثر الاحتباء و لا يقبل الصدقة و يركب الحمار و البعير و يحتلب الشاة و يلبس قميصا مرقوعا، و من فعل ذلك فقد برئ من الكبر و هو يفعل ذلك، و هو من ذرية اسماعيل، اسمه أحمد . قال سهل: فلما انتهيت الى هذا من ذكر محمد (صلى الله عليه و اله) جاء عمى فلما رأى الورقة ضربنى و قال: مالك و فتح هذه الورقة و قراءتها؟! فقلت: فيها نعت النبي احمد، فقال: إنه لم يأت بعد^{٤٢}.

ص: ٣٩=PAGE: ٣٩

الفصل الثالث مظاهر من شخصية خاتم النبيين (صلى الله عليه و اله)

١- الامى العالم:

لقد تميّز خاتم النبيين بأنه لم يتعلّم القراءة و الكتابة عند معلّم بشرى^{٤٣} و لم ينشأ فى بيئة علم و انما نشأ فى مجتمع جاهلى، و لم يكذب أحد هذه الحقيقة التى نادى بها القرآن^{٤٤}.

ترعرع و نما فى قوم هم من أشد الأقسام جهلا و أبدهم عن العلوم و المعارف، و لقد سمى هو ذلك العصر بالعصر الجاهلى و لا يمكن أن تصدر هذه التسمية إلا من عالم خبير بالعلم و الجهل و العقل و الحمق.

أضف الى ذلك أنه قد جاء بكتاب يدعو الى العلم و الثقافة و الفكر و التعقّل و احتوى على صنوف المعارف و العلوم، و بدأ بتعليم الناس الكتاب و الحكمة^{٤٥} وفق منهج بديع حتى أنشأ حضارة فريدة اخترقت الغرب و الشرق بعلومها و معارفها و لا زالت تتألاّ بهاء و نورا.

فهو امى و لكنه يكافح الجهل و الجاهلية و عبّاد الأصنام، و بعث بدين قيّم

ص: ٤٠=PAGE: ٤٠:

إلى البشرية و بشريعة عالمية تتحدّى البشرية على مدى التاريخ . فهو معجزة بنفسه فى علمه و معارفه و جوامع كلمه و رجاحة عقله و ثقافته و مناهج تربيته.

^{٤١} (2) لاحظ الخطبة الاولى من نهج البلاغة

^{٤٢} (3) الطبقات الكبرى: 1/ 363.

^{٤٣} (1) النحل(16): 103.

^{٤٤} (2) العنكبوت(29): 48.

^{٤٥} (3) الجمعة(62): 2.

و من هنا قال تعالى: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^{٤٦} وقال له: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا^{٤٧}.

أجل لقد أوحى الله إليه ما أوحى و علمه الكتاب و الحكمة و جعله نورا و سراجا منيرا و برهانا و شاهدا و رسولا مبينا و ناصحا أمينا و مذكرا و مبشرا و نذيرا^{٤٨}.

و لقد شرح الله له صدره و أعده لقبول الوحي و القيام ب مهمة الارشاد في مجتمع تسيطر عليه العصبية و الأنانية الجاهلية فكان أسمى قائد عرفته البشرية في مجال الدعوة و التربية و التعليم.

إنها نقلة كبيرة أن يصبح المجتمع الجاهلي في بضع سنين حارسا أمينا و مدافعا قويا لكتاب الهداية و مشعل العلم و يقف أمام محاولات التشويه و التحريف، إنها معجزة هذا الكتاب الخالد و ذلك الرسول الامي الرائد و الذي كان أبعد الناس - في ذلك المجتمع الجاهلي - عن الخرافات و الأساطير. إنه نور البصيرة الربانية التي أحاطت به بكل جوانب وجوده.

٢- أول المسلمين العابدين:

إن الخضوع المطلق لله خالق الكون و مبدع الوجود، و التسليم التام لعظيم

ص: ٤١=PAGEص:

قدرته و نفاذ حكمته، و العبودية الاختيارية الكاملة تجاه الإله الأحد الفرد الصمد هي القمة الاولى التي لا بد لكل إنسان أن يجتازها كي يتهيأ للاجتماع و الاصطفاء الإلهي . و قد شهد القرآن الكريم بذلك لهذا النبي العظيم حين قال عنه: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^{٤٩}.

إنه و سام الكمال الذي حازه هذا العبد المسلم وفاق في عبوديته من سواه على الإطلاق و تجلّت هذه العبودية المثلى في قوله و سلوكه حتى قال (صلى اللّ عليه و اله): «قرّة عيني في الصلاة»^{٥٠} فهو ينتظر وقت الصلاة و يشتد شوقه للوقوف بين يدي الله و يقول لمؤذنه بلال: أرحنا يا بلال^{٥١} و قد كان يحدث أهله و يحدثونه فإذا دخل وقت الصلاة فكأنه لم يعرفهم و لم يعرفوه^{٥٢}. و كان إذا صلى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل^{٥٣}. و يبكي حتى يبيل مصلاه خشية من الله عزّ و جلّ^{٥٤}، و كان يصلى حتى تنتفخ قدماه، فيقال له: أتفعل هذا و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر؟! فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا^{٥٥}؟

^{٤٦} (1) الاعراف(7): 158.

^{٤٧} (2) النساء(4): 113.

^{٤٨} (3) المائدة(5): 15، الاحزاب(33): 46، النساء(4): 174، الفتح(48): 8، الزخرف(43): 29، الاعراف(7): 68، الغاشية(88): 21،

الاسراء(17): 105، المائدة(5): 19.

^{٤٩} (1) الأنعام(6): 161-163.

^{٥٠} (2) امالي الطوسي: 141/2.

^{٥١} (3) بحار الانوار: 16/83.

^{٥٢} (4) اخلاق النبي و آدابه: 251.

^{٥٣} (5) المصدر السابق: 201.

^{٥٤} (6) سنن النبي: 32.

^{٥٥} (7) اخلاق النبي: 199، و صحيح البخاري: 1/381/ الحديث 1078.

وكان يصوم شعبان ورمضان وثلاثة أيام من كل شهر^{٥٦}، وكان إذا دخل شهر رمضان يتغىّر لونه و تكثر صلواته و يبتهل في الدعاء^{٥٧}. و إذا دخل العشر

ص: PAGE=٤٢:

الأواخر منه شدّ المئزر و اجتنب النساء و أحبب الليل و تفرّغ للعبادة^{٥٨}. و كان يقول عن الدعاء: «الدعاء مخّ العبادة»^{٥٩} و «سلاح المؤمن و عمود الدين و نور السماوات و الأرض»^{٦٠}. و قد كان دائم الاتصال بالله، دائم الانشداد إليه بالضراعة و الدعاء في كل عمل كبير أو صغير، حتى كان يستغفر الله كل يوم سبعين مرّة و يتوب إليه سبعين مرّة من غير ذنب^{٦١}، و لم يستيقظ من نوم قطّ إلا خرّ لله ساجدا^{٦٢} و كان يحمّد الله في كل يوم ثلاثمائة و ستين مرّة و يقول: «الحمد لله ربّ العالمين كثيرا على كل حال»^{٦٣} و لقد كان دؤوبا على قراءة القرآن و شغوفا به.

و نزل عليه جبرئيل مخففا لما أجهد نفسه بالعبادة بقوله تعالى: **طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**^{٦٤}

٣- الثقة المطلقة بالله تعالى:

قال الله تعالى لرسوله (صلّى الله عليه و اله): **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟**^{٦٥}

و قال له أيضا: **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ**^{٦٦}.

و قد كان رسول الله (صلّى الله عليه و اله) كما قال الله تعالى على ثقة مطلقة به سبحانه.

ص: PAGE=٤٣:

جاء عن جابر أنه قال: كنا مع رسول الله (صلّى الله عليه و اله) بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله، فجاء رجل من المشركين و سيف رسول الله (صلّى الله عليه و اله) معلق بالشجرة فاخترطه و قال: تخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟

قال: الله. فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله السيف فقال: من يمنعك مني؟

فقال: كن خير آخذ. فقال: تشهد أن لا اله إلا الله و أنى رسول الله؟ قال: لا و لكنى أعاهدك أن لا اقاتلك و لا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله فأتى أصحابه فقال:

^{٥٦} (8) وسائل الشيعة: 4/ 309.
^{٥٧} (9) سنن النبي: 300.
^{٥٨} (1) الكافي: 4/ 155.
^{٥٩} (2) المحجة البيضاء: 2/ 282.
^{٦٠} (3) المصدر السابق: 2/ 284.
^{٦١} (4) بحار الأنوار: 16/ 217.
^{٦٢} (5) المصدر السابق: 16/ 253.
^{٦٣} (6) الكافي: 2/ 503.
^{٦٤} (7) طه (20): 1-2.
^{٦٥} (8) الزمر (39): 36.
^{٦٦} (9) الشعراء (26): 217-219.

جئتمكم من عند خير الناس^{٦٧}.

٤- الشجاعة الفاتقة:

قال الله تعالى: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ^{٦٨} وجاء عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) - الذي طأطأ له فرسان العرب - أنه: كنا إذا احمرّ البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله (صلى الله عليه و اله) فما يكون أحد أدنى من القوم منه^{٦٩}.

و وصف المقداد ثبات رسول الله (صلى الله عليه و اله) يوم احد بعد أن تفرّق الناس و تركوا رسول الله (صلى الله عليه و اله) وحده فقال: و الذي بعثه بالحق إن رأيت رسول الله (صلى الله عليه و اله) زال شبرا واحدا. إنه لفي وجه العدو تتوب اليه طائفة من أصحابه مرّة و تفرّق عنه مرّة، فربما رأيتته قائما يرمى عن قوسه أو يرمى بالحجر حتى تحاجروا^{٧٠}.

ص: ٤٤=PAGE:

٥- زهد منقطع النظر:

قال تعالى: وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى^{٧١}.

و عن أبي أمامة عن النبي (صلى الله عليه و اله): أنه قال: عرض عليّ ربّي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت: لا يا ربّ و لكن أشبع يوما و أجوع يوما .. فإذا جعت تضرّعت إليك و ذكرتك، و إذا شبعت شكرتك و حمدتك^{٧٢}.

و نام علي حصير فقام و قد أثر في جنبه، فقيل له : يا رسول الله لو اتخذنا لك و طاء فقال : ما لي و ما للدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلّا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح و تركها^{٧٣}.

و قال ابن عباس: كان رسول الله يبيت الليالي المتتابعة طاويا و أهله لا يجدون عشاء و كان أكثر خبزهم خبز الشعير^{٧٤}.

و قالت عائشة: ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلّا إحداهما تمر^{٧٥}.

و قالت: توفي رسول الله (صلى الله عليه و اله) و درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير^{٧٦}.

و عن أنس بن مالك أن فاطمة جاءت بكسرة خبز الى النبي (صلى الله عليه و اله) فقال: ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت: قرص خبز، فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة. فقال:

^{٦٧} (1) رياض الصالحين (للنووي): 5/ الحديث 78، و صحيح مسلم: 4/ 465.

^{٦٨} (2) الاحزاب (33): 39.

^{٦٩} (3) فضائل الخمسة من الصحاح الستة 1/ 138.

^{٧٠} (4) مغازي الواقدي: 1/ 239-240.

^{٧١} (1) طه (20): 131.

^{٧٢} (2) سنن الترمذي: 4/ 518/ الحديث 2377.

^{٧٣} (3) المصدر السابق.

^{٧٤} (4) سنن الترمذي: 4/ 501/ الحديث 2360.

^{٧٥} (5) صحيح البخاري: 5/ 2371/ الحديث 6090.

^{٧٦} (6) صحيح البخاري: 3/ 1068/ الحديث 2759.

أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام^{٧٧}.

و عن قتادة قال : كنا عند أنس و عنده خباز له فقال : ما أكل النبي (صلى الله عليه و اله) خبزا مرققا و لا شاة مسموطة حتى لقي الله^{٧٨}.

٤- جود و حلم عظيمان:

قال ابن عباس: كان النبي (صلى الله عليه و اله) أجود الناس بالخير، و كان أجود ما يكون في شهر رمضان .. إن جبريل كان يلقاه في كل سنة من رمضان .. فإذا لقيه جبريل كان رسول الله (صلى الله عليه و اله) أجود بالخير من الريح المرسل^{٧٩}.

و قال جابر: ما سئل النبي (صلى الله عليه و اله) شيئا قط فقال لا^{٨٠}.

و روى أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) أتى صاحب بز فاشتري منه قميصا بأربعة دراهم فخرج و هو عليه، فإذا رجل من الأنصار. فقال: يا رسول الله أكسني قميصا كساک الله من ثياب الجنة فنزع القميص فكساه إياه، ثم رجع الى صاحب الحانوت فاشتري منه قميصا بأربعة دراهم و بقي معه درهمان فاذا هو بجارية في الطريق تبكي فقال : ما يبكيك؟ قالت: يا رسول الله دفع الى أهلي درهمان اشتري بهما دقيقا فهلکا، فدفع النبي (صلى الله عليه و اله) إليها الدرهمين فقالت: أخاف أن يضربوني فمشى معها الى أهلها فسلم فعرفوا صوته، ثم عاد فسلم، ثم عاد فنلت، فردوا، فقال:

أسمعتهم أول السلام؟ فقالوا: نعم و لكن أحببنا أن تزيدنا من السلام . فما أشخصك بأبينا و أمنا؟ قال : أشفت هذه الجارية أن تضربوها، قال صاحبها: هي حرة لوجه الله لممشاك معها. فبشّرهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) بالجنة و بالجنة؛ و قال: لقد بارك الله في

العشرة كسا الله نبيّه قميصا و رجلا من الأنصار قميصا و أعتق منها رقبة، و أحمد الله هو الذي رزقنا هذا بقدرته^{٨١}.

و كان إذا دخل شهر رمضان أطلق كل أسير و أعطى كل سائل^{٨٢}.

و عن عائشة: أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) ما انتقم لنفسه شيئا يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمة الله . و لا ضرب بيده شيئا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله و لا سئل شيئا قط فمنعه إلا أن يسأل مأثما فإنه كان أبعد الناس منه^{٨٣}.

^{٧٧} (1) الطبقات (لابن سعد): 400 / 1.

^{٧٨} (2) مسند أحمد: 3 / 582 / الحديث 11887.

^{٧٩} (3) صحيح مسلم: 4 / 481 / الحديث 3308، و مسند أحمد: 01 / 598 / الحديث 3415.

^{٨٠} (4) سنن الدارمي: 1 / 34.

^{٨١} (1) المعجم الكبير (الطبراني): 12 / 337 / الحديث 13607.

^{٨٢} (2) حياة النبي و سيرته: 3 / 311.

و عن عبيد بن عمير: أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) ما اتى فى غير حدِّ إلَّا عفا عنه^{٨٤}.

و قال أنس: خدمت رسول الله عشر سنين. فما قال لى أفّ قطّ، و ما قال لشىء صنعته: لم صنعته؟ و لا لشىء تركته: لم تركته؟^{٨٥}.

و جاءه أعرابى فجدب رداءه بشدّة حتى أثرت حاشية الرداء على عاتق النبى (صلى الله عليه و اله) ثم قال له: يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك. فالتفت اليه فضحك ثم أمر له بعطاء.

لقد عرف (صلى الله عليه و اله) بالعفو و السماحة طيلة حياته ... فقد عفا عن وحشى قاتل عمه حمزة ... كما عفا عن المرأة اليهودية التى قدمت له شاة مسمومة و عفا عن أبى سفيان و جعل الدخول الى داره أمانا من القتل . و عفا عن قريش التى عنتت عن أمر ربّها و حاربتة بكل ما لديها .. و هو فى ذروة القدرة و العزّة قائلا لهم: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .. اذهبوا فأنتم الطلقاء»^{٨٦}.

ص: PAGE=٤٧:

لقد أفصح القرآن عن عظمة حلم الرسول (صلى الله عليه و اله) بقوله تعالى: **وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ^{٨٧}**، و وصف مدى رأفته و رحمته بقوله تعالى: **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ^{٨٨}**.

٧- حياة و تواضعه:

عن أبى سعيد الخدرى: كان النبى (صلى الله عليه و اله) أشدّ حياء من العذراء فى خدرها و إذا كره شيئا عرف فى وجهه^{٨٩}.

و عن على (عليه السلام): كان النبى (صلى الله عليه و اله) إذا سئل شيئا فأراد أن يفعل قال: نعم و إذا أراد أن لا يفعل سكت، و كان لا يقول لشىء لا^{٩٠}.

و عن يحيى بن أبى كثير أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) قال: أكل كما يأكل العبد و أجلس كما يجلس العبد. فإنما أنا عبد^{٩١}. كما اشتهر عنه أنه كان يسلم على الصبيان^{٩٢}.

و كلّم النبى (صلى الله عليه و اله) رجلا فأرعد. فقال: هوّن عليك فإنى لست بملك إنّما أنا ابن امرأة تأكل القديد^{٩٣}.

^{٨٣} (3) حياة النبي و سيرته: 306 / 3.

^{٨٤} (4) المصدر: 307 / 3.

^{٨٥} (5) صحيح البخاري: 5 / 2260 / الحديث 5738.

^{٨٦} (6) محمد فى القرآن: 60 - 65.

^{٨٧} (1) آل عمران (3): 159.

^{٨٨} (2) التوبة (9): 128.

^{٨٩} (3) صحيح البخاري: 3 / 1306 / الحديث 3369.

^{٩٠} (4) مجمع الزوائد: 9 / 13.

^{٩١} (5) الطبقات (لابن سعد): 1 / 37 / 1 و مجمع الزوائد: 9 / 19.

^{٩٢} (6) حياة النبي و سيرته: 3 / 313 / عن ابن سعد.

و عن أبى أمامة: خرج علينا رسول الله متوكِّئاً على عصا، فقمنا إليه فقال:

«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً»^{٩٤}.

ص: PAGE=٤٨:

وكان يداعب أصحابه ولا يقول إلّا حقاً^{٩٥}. ولقد شارك أصحابه فى بناء المسجد^{٩٦} و حفر الخندق^{٩٧} وكان يكثر من مشاورة أصحابه بالرغم من أنه كان أرجح الناس عقلاً^{٩٨}.

وكان يقول: «اللهم أحيى مسكينا و توفى مسكينا و احشرنى فى زمرة المساكين و إن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا و عذاب الآخرة»^{٩٩}.

هذه صورة موجزة جدا عن بعض ملامح شخصيته (صلى الله عليه و اله) و بعض جوانب سلوكه الفردى و الاجتماعى . و هناك صور رائعة و كثيرة عن سلوكه و سيرته الإدارية و السياسية و العسكرية و الاقتصادية و الاسرية التى تستحق الدراسة المعمقة للتأسى بها و الاستلهام منها، نتركها الى الفصول اللاحقة.

ص: PAGE=٤٩:

الباب الثانى فيه فصول:

الفصل الأول:

دور الولادة و النشأة الفصل الثانى:

دور الفتوة و الشباب الفصل الثالث:

من الزواج الى البعثة

ص: PAGE=٥١:

الفصل الأوّل دور الولادة و النشأة

١- ملامح انهيار المجتمع الوثنى:

^{٩٣} (7) سنن ابن ماجه: 2/ 1101 / الحديث 3312.

^{٩٤} (8) سنن أبى داود: 4/ 358 / الحديث 5230.

^{٩٥} (1) سنن الترمذى: 4/ 304 / الحديث 1990.

^{٩٦} (2) مسند أحمد: 3/ 80.

^{٩٧} (3) الطبقات (لابن سعد): 1/ 240.

^{٩٨} (4) الدر المنثور: 2/ 359، و المواهب اللدنية: 2/ 331.

^{٩٩} (5) سنن الترمذى: 4/ 499 / الحديث 2352.

استحكم الفساد و الظلم في مجتمع الجزيرة في الفترة التي سبقت البعثة النبوية فلم تعد كتلة المجتمع واحدة و لم تكن الخصائص الاجتماعية و الثقافية التي أوجدتها طبيعة الحياة في الصحراء كافية لإيقاف حالة الانهيار التي بدت ملامحها على المجتمع في الجزيرة العربية . و ما الأحلاف التي نشأت إلا تعبير عن ظاهرة اجتماعية لمقاومة ذلك التحلل و لكنها في تعددها دليل على انعدام القوة المركزية في المجتمع.

و لا نلاحظ حركة إصلاحية تغييرية يذكرها لنا التأريخ تكون قد سعت للنهوض بالمجتمع و الارتقاء به نحو الحياة الفضلى سوى حركة بعض الأفراد التي تعبر عن حالة الرفض لهذا التفسخ و الظلم الاجتماعي متمثلة في حالة التحنث التي أبدتها عدد قليل من أبناء الجزيرة العربية و لم ترتق الى مستوى النظرية أو الحركة

ص: ٥٢=PAGE:

التغييرية الفاعلة في المجتمع ...^{١٠٠} و تفكك المجتمع القرشي قد نلاحظه أيضا في ظاهرة اختلافهم حول بناء الكعبة في الوقت الذي كانت قريش من أعز القبائل العربية و أشدها تماسكا . و يمكن لنا أن نستدل على تمادى المجتمع في الفساد من خلال الإنذارات المتكررة من اليهود القاطنين في الجزيرة العربية و استفناهم على أهالي الجزيرة بظهور المصلح المنقذ للبشرية برسالته السماوية و كانوا يقولون لهم: ليخرجن نبي فليكسرن أصنامكم^{١٠١}.

٢- إيمان آباء النبي (صلى الله عليه و اله):

ولد النبي (صلى الله عليه و اله) و ترعرع في عائلة تدين بالتوحيد و تتمتع بسمو الأخلاق و علو المنزلة. فإيمان جدّه عبد المطلب نلمسه من كلامه و دعائه عند هجوم أبرهة الحبشي لهدم الكعبة إذ لم يلتجئ الى الأصنام بل توكل على الله لحماية الكعبة^{١٠٢}.

بل يمكن أن نقول إن عبد المطلب كان عارفا بشأن النبي (صلى الله عليه و اله) و مستقبله المرتبط بالسماء من خلال الأخبار التي أكدت ذلك. و تجلّت اهتماماته به في الاستسقاء بالنبي (صلى الله عليه و اله) و هو رضيع، و ما ذلك إلا لما كان يعلمه من مكانته عند الله المنعم الرازق^{١٠٣}، و الشاهد الآخر هو تحذيره لأم أيمن من الغفلة عند ما كان صغيرا^{١٠٤}.

و كذلك حال عمه أبي طالب الذي استمر في رعاية النبي (صلى الله عليه و اله) و دعمه لأجل تبليغ الرسالة و الصدع بها حتى آخر لحظات عمره المبارك متحملا في ذلك

ص: ٥٣=PAGE:

أذى قريش و قطيعتهم و حصارهم له في الشعب . و نلمس هذا في ما روى عن أبي طالب (عليه السلام) في عدة مواقف ترتبط بحرصه على سلامة حياة النبي (صلى الله عليه و اله)^{١٠٥}.

^{١٠٠} (1) راجع السيرة النبوية: 225 / 1.

^{١٠١} (2) بحار الأنوار: 231 / 15، و راجع السيرة النبوية: 211 / 1، البقرة: 89 / 2.

^{١٠٢} (3) السيرة النبوية: 43- 62، الكامل في التأريخ: 260 / 1، بحار الأنوار: 130 / 5.

^{١٠٣} (4) السيرة الحلبية: 182 / 1، الملل و النحل للشهرستاني: 248 / 2.

^{١٠٤} (5) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: 64 / 1، و راجع تاريخ البيهقي: 10 / 2.

و أما والدا النبي (صلى الله عليه و اله) فالروايات دالة على نبذهما للشرك و الأوثان و يكفى دليلا قول الرسول (صلى الله عليه و اله): «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» و فيه إيعاز الى طهارة آلبته و امهاته من كل دنس و شرك^{١٠٦}.

٣- مولد الرسول (صلى الله عليه و اله):

ما إن استنفذت الديانة النصرانية أغراضها فى المجتمع البشرى و لم تعد لها فاعلية تذكر حتى حلت فى الدنيا كل مظاهر التيه و الزيغ، و أمسى الناس كافة ضلال فتن و حيرة، استخففتهم الجاهلية ل لجهلاء، و لم تكن أوضاع الروم بأقل سوءا من أوضاع منافسيهم فى فارس، و ما كانت جزيرة العرب أفضل وضعا من الاثنين. و الكل على شفا حفرة من النار.

و قد وصف القرآن بصورة بليغة جانبا مأساويا من حياة البشر آنذاك، كما وصف سيد أهل بيت النبوة على بن أبى طالب (عليه السلام) ذلك الوضع المأساوى وصفا دقيقا عن حس و معاشة فى عدة خطب، منها قوله فى وصف حال المجتمع الذى بعث فيه النبي (صلى الله عليه و اله):

«أرسله على حين فترة من الرسل و طول هجعة من الأمم و إعترام من الفتن، و انتشار من الأمور و تظلم من الحروب، و الدنيا كلسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين اصفرار من ورقها، و إياس من ثمرها، و اغورار من مائها، قد درست منار الهدى، و ظهرت أعلام الردى، فهى متجهمه لأهلها، عابسة فى وجه طالبها، ثمرها الفتنة، و طعامها الجيفة، و شعارها

ص: PAGE=٥٤:

الخوف، و دثارها السيف»^{١٠٧}.

فى مثل هذا الطرف العصيب الذى كانت تمر به البشرية سطع النور الإلهى فأضاء العباد و البلاد مبشرا بالحياة الكريمة و السعادة الأبدية. و ذلك عند ما بوركت أرض الحجاز بمولد النبي الأكرم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله) فى عام الفيل سنة (٥٧٠ ميلادية) و فى شهر ربيع الأول على ما هو عليه أكثر المحدثين و المؤرخين.

و أما عن يوم ميلاده (صلى الله عليه و اله)، فقد حدده أهل بيته (عليهم السلام) - و هم أدرى بما فى البيت - فقالوا: هو يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر، كما هو المشهور بين الإمامية، و عند غيرهم أنه (صلى الله عليه و اله) ولد فى يوم الاثنين الثانى عشر من الشهر نفسه^{١٠٨}.

و تتحدث جملة من المصادر التاريخية و الحديثية عن وقوع حوادث عجيبة يوم ولادته مثل : انطفاء نار فارس، و زلزال أصاب الناس حتى تهدمت الكنائس و البيع و زال كل شىء يعبد من دون الله عز و جل عن موضعه، و تساقط الأصنام

^{١٠٥} (1) السيرة النبوية: 979 / 1، تاريخ ابن عساکر: 69 / 1، مجمع البيان: 37 / 7، مستدرک الحاكم: 623 / 2، الطبقات الكبرى: 168 / 1، السيرة الحلبية: 189 / 1، اصول الكافي: 448 / 1، الغدير: 345 / 7.

^{١٠٦} (2) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: 58 / 1، و راجع أوائل المقالات للشيخ المفيد: 12 و 13.

^{١٠٧} (1) نهج البلاغة: الخطبة (89).

^{١٠٨} (2) راجع، إمتاع الأسماع 3 حيث تجد جميع الأقوال المذكورة حول يوم ميلاد النبي (صلى الله عليه و اله).

المنصوبة في الكعبة على وجوها حتى عميت على السحرة والكهان أمورهم، و طلوع نجوم لم تر من قبل هذا و قد ولد (صلى الله عليه و اله) و هو يقول: «الله أكبر، و الحمد لله كثيرا و سبحان الله بكرة و أصيلا»^{١٠٩}.

و اشتهر النبي (صلى الله عليه و اله) ب: اسمين: «محمد» و «أحمد» و قد ذكرهما القرآن الكريم، و روى المؤرخون أن جدّه عبد المطلب قد سمّاه «محمدًا»، و أجاب من سأله عن سبب التسمية قائلا: أردت أن يحمّد في السماء و الأرض^{١١٠}. كما أن أمه

ص: PAGE=٥٥

آمنة سمّته قبل جدّه ب: «أحمد».

و قد بشرّ به الإنجيل على لسان عيسى (عليه السّلام) - كما أخبر القرآن الكريم بذلك و صدّقه علماء أهل الكتاب - و قد حكاه قوله تعالى: **و مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**^{١١١}. و لا مانع من أن يعرف الشخص باسمين و لقبين و كنيّتين في عرف الجزيرة العربية و غيرها.

٤- رضاعه الميمون:

أصبح محمد (صلى الله عليه و اله) الشغل الشاغل لجدّه عبد المطلب الذي فقد ابنه عبد الله - و هو أعزّ أبنائه - في وقت مبكر جدا. من هنا أوكل جدّه رضاعه إلى «ثويبة» و هي جارية لأبى لهب كى يتسنّى لهم إرساله إلى بادية بنى سعد ليرتضع هناك و ينشأ في بيئة نقيّة بعيدا عن الأوبئة التي كانت تهدد الاطفال في مكة و يتعرّع بين أبناء البادية كما هي عادة أشرف مكة في إعطاء أطفالهم الرضّع الى المراضع و كانت مراضع قبيلة بنى سعد من المشهورات بهذا الأمر، و كانت تسكن حوالى مكة و نواحي الحرم و كانت نساؤهم يأتين إلى مكة في موسم خاص من كل عام يلتمسن الرضعاء خصوصا عام ولادة النبي (صلى الله عليه و اله) حيث كانت سنة جدب و قحط فكنّ بحاجة إلى مساعدة أشرف مكة.

و زعم بعض المؤرخين أنه لم تقبل أية واحدة من تلك المراضع أن تأخذ «محمدًا» بسبب يتمه، و أوشكت قافلة المراضع أن ترجع و مع كل واحدة رضيع إلا حلّيمة بنت أبى ذؤيب السعدية فقد أعرضت عن النبي (صلى الله عليه و اله) أوّل الأمر كغيرها من المراضعات و حين لم تجد رضيعا قالت لزوجها : و الله لأذهبن إلى ذلك البيتيم فلاآخذنه . و رجح لها زوجها ذلك فرجعت إليه و احترضته و الأمل يملأ نفسها

ص: PAGE=٥٦

١١٢

^{١٠٩} (3) بتوخي يعقوبي: 8/2، السيرة الحلبية: 92/1.
^{١١٠} (4) السيرة الحلبية: 128/1.
^{١١١} (1) الصف: (61): 6، راجع السيرة الحلبية: 79/1.
^{١١٢} گروه مؤلفان، اعلام الهداية - قم، چاپ: دوم، 1425 ه.ق.

فى أن تجد بسببه الخير و البركة^{١١٣}.

و يردّ هذا الزعم مكانة البيت الهاشمى الرفيعة و شخصية جدّه الذى عرف بالجدود و الإحسان و مساعدة المحتاجين و المحرومين.

على أن بعض المؤرخين قد ذكر أن أباه قد توفى بعد ولادته بعدة أشهر^{١١٤}.

كما روى أنه (صلى الله عليه و اله) لم يقبل إلّا ثدى «حليمة»^{١١٥}.

قالت حليمة: استقبلنى عبد المطلب فقال: من أنت؟ فقلت: أنا امرأة من بنى سعد. قال ما اسمك؟ قلت: حليمة. فتبسم عبد المطلب و قال: بخ بخ سعد و حلم خصلتان فيهما خير الدهر و عز الأبد^{١١٦}.

و لم يخب ظنّ ح ليمّة فى نيل البركة و زيادة الخير بأخذ يتيم عبد المطلب فقد روى أن ثدى حليمة كان خاليا من اللبن فلما ارتضع النبي (صلى الله عليه و اله) منه امتلاً و درّ لبنا.

و تقول حليمة: عند ما أخذنا رسول الله (صلى الله عليه و اله) عرفنا الخير و الزيادة فى معاشنا و ربا شنا حتى أثربنا بعد الجذب و الجهد^{١١٧}.

و أمضى وليد «عبد المطلب» فى أحضان حليمة و زوجها فى مراع بنى سعد ما يقارب خمس سنوات رجعت به خلالها إلى أهله عند فطامه بعد أن أتم السنيتين على كره منها؛ لما وجدت فيه من السعادة و الخير، كما أن أمّه أرادت أن يشتد عود ابنها بعيدا عن مكة، خوفا عليه من الأمراض فرجعت به مسرورة.

و روى أنها جاءت به ثانية إلى مكة خوفا عليه من أيادى السوء عند ما

ص: PAGE=٥٧:

شاهدت جماعة من نصارى الحبشة القادمين إلى الحجاز قد أصرّوا على أخذه معهم إلى الحبشة لأنهم وجدوا فيه علائم النبى الموعود، لينالوا بذلك شرف احتضانه و بلوغ المجد بتبّاعه^{١١٨}.

٥- الاستسقاء بالنبى (صلى الله عليه و اله):

^{١١٣} (1) السيرة الحلبية: 146 / 1.

^{١١٤} (2) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه و اله): 81 / 1، السيرة الحلبية: 81 / 1.

^{١١٥} (3) بحار الانوار: 342 / 15.

^{١١٦} (4) السيرة الحلبية: 147 / 1.

^{١١٧} (5) بحار الانوار: 345 / 15، المناقب لابن شهر آشوب: 24 / 1، و راجع السيرة الحلبية: 149 / 1.

^{١١٨} (1) السيرة النبوية: 167 / 1، بحار الانوار: 401 / 15، السيرة الحلبية: 155 / 1.

أشار المؤرخون إلى ظاهرة الاستسقاء برسول الله (صلى الله عليه و اله) التي حدثت أكثر من مرة في حياته، حين كان رضيعا و حين كان غلاما في حياة جدّه و عمه أبى طالب . فالمرّة الاولى: لمّا أصاب أهل مكّة من الجذب العظيم، و أمسك السحاب عنهم سنتين، أمر عبد المطلب ابنه أبا طالب أن يحضر حفيده محمدا (صلى الله عليه و اله) فأحضره- و هو رضيع في قماط- فوضعه على يديه و استقبل الكعبة و قدّمه إلى السماء، و قال : يا ربّ بحق هذا الغلام ، و جعل يكرّر قوله و يدعو: اسقنا غيثا مغينا دائما هطلا، فلم يلبث ساعة حتى أطبقت الغيوم وجه السماء و هطل المطر منهمرا حتى خافوا من شدته على المسجد أن ينهدم^{١١٩}.

و تكرر الاستسقاء ثانيا بعد مدة و كان النبي (صلى الله عليه و اله) في هذه المرّة غلاما حين خرج به ع بد المطلب الى جبل أبى قبيس و معه وجوه قريش يرجون الاستجابة ببركة النبي (صلى الله عليه و اله)، و قد أشار أبو طالب إلى هذه الواقعة بقصيدة أولها:

من الغيث رجاس العشير بكور

أبونا شفيح الناس حين سقوا به

بمكّة يدعو و المياه تغور^{١٢٠}

و نحن - سنين المحل - قام شفيحنا

و نقل المؤرخون أن قريشا طلبت من أبى طالب أن يستسقى لهم فخرج

ص: PAGE=٥٨:

أبو طالب الى المسجد الحرام و بيده النبي (صلى الله عليه و اله)- و هو غلام- كأنه شمس دجى تجلّت عنها غمامة- فدعا الله بالنبي (صلى الله عليه و اله) فأقبلت السحاب فى السماء و هطل المطر فسالت به الأودية و سرّ الجميع و قد ذكر أبو طالب هذه الكرامة أيضا عند ما تمادت قريش فى عدائها للنبي (صلى الله عليه و اله) و رسالته المباركة فقال:

ربيع اليتامى عصمة للأرامل

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه

فهم عنده فى نعمة و فواضل^{١٢١}

تلوذ به الهلاك من آل هاشم

و كلّ هذا يعرب لنا عن توحيد كفىلى رسول الله (صلى الله عليه و اله) الخالص و إيمانهما بالله تعالى، و لو لم يكن لهما إلا هذان الموقنان لكفاهما فخرا و اعتزازا. و هذا يدل أيضا على أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) قد نشأ فى بيت كانت الديانة السائدة فيه هى الحنيفية و توحيد الله تعالى.

^{١١٩} (2) الملل و النحل: 2/ 248، و راجع السيرة الحلبية: 1/ 182 - 183.

^{١٢٠} (3) السيرة الحلبية: 1/ 331.

^{١٢١} (1) السيرة الحلبية: 1/ 190، البداية و النهاية: 3/ 52، بحار الأنوار: 2/ 8.

لم يتمتع النبي (صلى الله عليه و اله) بطول رعاية أمه الحنون التي عاشت بعد أبيه و هي تنتظر أن يشبّ يتيم عبد الله ليكون لها سلوة عن فقد زوجها الحبيب و لكن الموت لم يمهله طويلا . فقد روى أن حليمة السعدية جاءت بالنبي (صلى الله عليه و اله) الى أهله و قد بلغ خمس سنين . و أرادت أمه آمنة أن تحمله معها و تزور قبر زوجها العزيز و يزور محمد (صلى الله عليه و اله) أخواله من بنى النجار فى يثرب فيتعرف فى هذه السفرة عليهم و لكن هذه الرحلة لم تترك على النبي (صلى الله عليه و اله) إلّا حزنا آخر حيث فقد أمه فى طريق العودة فى منطقة تدعى بالأبواء بعد أن زار الدار التي توفى و دفن فيها أبوه، و كأنّ تلاحق الأحزان على قلب النبي (صلى الله عليه و اله) فى طفولته كانت خطوات إعداد إلهي لتتكامل نفسه الشريفة.

ص: PAGE=٥٩:

و واصلت أم أيمن رحلتها نحو مكة و هى تصطحب النبي (صلى الله عليه و اله) لتسلمه الى جدّه عبد المطلب الذى ازداد تعلّقًا بحفيده محمد (صلى الله عليه و اله) ^{١٢٢}.

٧- مع جدّه عبد المطلب:

بلغ محمد (صلى الله عليه و اله) فى قلب عبد المطلب مكانة لم يبلغها أحد من بنيه و أحفاده و هم سادات بطحاء مكة، فقد روى أن عبد المطلب كان يجلس فى فناء الكعبة على بساط كان يمد له و حوله وجوه قريش و ساداتها و أولاده، فإذا وقعت عيناه على حفيده «محمد» (صلى الله عليه و اله) أمر بأن يفرج له حتى يتقدم نحوه ثم يجلسه إلى جنبه على ذلك البساط الخاص به ^{١٢٣}. و هذه العناية من سيد قريش قد عززت من مكانة محمد (صلى الله عليه و اله) فى نفوس قريش إضافة إلى سمو أخلاقه منذ نعومة أظفاره.

و لقد أشار القرآن الكريم إلى فترة اليتيم هذه التى اجتازها النبي (صلى الله عليه و اله) تحت رعاية ربه بقوله تعالى: **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى** إن فترة اليتيم عادة تصب فى صياغة الإنسان و إعداده للنضج و الاعتماد على النفس فى تحمّل الصعاب و المكاره عند مواجهتها و الصبر عليها . و هكذا تولّى الله إعداد نبيه المختار ليكون قادرا على تحمل مهام المس تقبل و حمل الرسالة الكبرى التى كانت تنتظر نضجه و كماله. و قد أشار النبي (صلى الله عليه و اله) الى هذه الحقيقة بقوله: «أدبنى ربي فأحسن تأديبي» ^{١٢٤}.

و لم يمض من عمر النبي (صلى الله عليه و اله) أكثر من ثمان سنوات حتى منى بمحنةً ثالثة و هى فقد جدّه العظيم «عبد المطلب»، و قد حزن محمد (صلى الله عليه و اله) لموت جدّه حزنا لا يقل عن حزنه لموت أمه حتى أنه بكى بكاء شديدا و هو يتبع نعشه إلى

ص: PAGE=٦٠:

^{١٢٢} (1) السيرة الحلبية: 1/ 105.

^{١٢٣} (2) السيرة النبوية: 1/ 168.

^{١٢٤} (3) مجمع البيان: 5/ 333 تفسير مطلع سورة القلم.

مقره الأخير، و لم ينس ذكره أبدا؛ إذ كان يرعاه خير رعاية و كان عارفاً بنبوته فقد روى أنه قال - لمن أراد أن ينحى عنه محمداً (صلى الله عليه و اله) عند ما كان طفلاً يدرج:- دع ابني فإن الملك قد أتاه^{١٢٥}.

ص: ٦١=PAGE:

الفصل الثاني دور الفتوة و الشباب

١- كفالة أبي طالب للنبي (صلى الله عليه و اله):

لقد استمرت رعاية عبد المطلب لحفيده «محمد» (صلى الله عليه و اله) حين أوكل أمره إلى ولده أبي طالب لما كان يعلم من أن أبا طالب سيقوم برعاية ابن أخيه خير قيام و هو و إن كان فقيراً لكنّه كان أنبل إخوته و أكرمهم في قريش مكانة و احتراماً. على أن أبا طالب كان شقيق عبد الله لأمه و أبيه و هو مما يزيد أواصر التلاحم مع «محمد» (صلى الله عليه و اله) و الحنان و العطف عليه.

و تقبل أبو طالب هذه المسؤولية بفخر و اعتزاز و كانت تعيينه في ذلك زوجته الطيبة فاطمة بنت أسد فكانا يؤثران محمداً بالنفقة و الكسوة على نفسيهما و على أولادهما، و قد عبّر النبي (صلى الله عليه و اله) عن ذلك حين وفاة فاطمة بنت أسد قائلاً:

اليوم ماتت أُمِّي. و كَفَّنَهَا بِقَمِيصِهِ وَ اضْطَجَعَ فِي لِحْدِهَا.

و منذ وفاة عبد المطلب بدأت مهمة أبي طالب الشاقّة في المحافظة على النبي (صلى الله عليه و اله) فكان يقيه بماله و نفسه و جاهه منذ صغره و يدافع عنه و ينصره بيده و لسانه طوال حياته حتى نشأ محمد (صلى الله عليه و اله) و تلقى النبوة و صدع بالرسالة^{١٢٦}.

ص: ٦٢=PAGE:

٢- السفارة الأولى إلى الشام:

كان من عادة قريش الخروج إلى الشام كل عام مرة للتجارة إذ كانت هي المصدر الرئيس للكسب و عزم أبو طالب على الخروج في هذه الرحلة و لم يكن يفكر في استصحاب محمد (صلى الله عليه و اله) خوفاً عليه من وثناء السفر و مخاطر اجتياز الصحراء، و لكن في لحظة الرحيل غير أبو طالب قراره إذ وجد الإصرار لدى ابن أخيه كبيراً حين أغر و رقت عيناه بالدموع لفراق عمه، فكانت الرحلة الأولى لمحمد (صلى الله عليه و اله) إلى الشام بصحبة عمه. و أطلع محمد في هذه الرحلة على طبيعة السفر عبر الصحراء و عرف طرق سير القوافل.

و في هذه الرحلة شاهد بحيرا الراهب محمداً و التقى به و وجد فيه علامات النبي الخاتم الذي بشر به عيسى (عليه السلام)) إذ كان ممن خير التوراة و الأنجيل و غيرهما من المصاد ر المبشرة بظهور النبي الخاتم، فنصح عمه أبا طالب أن

^{١٢٥} (1) تاريخ اليعقوبي: 10 / 2.

^{١٢٦} (1) مناقب آل أبي طالب: 35 / 1، تاريخ اليعقوبي: 14 / 2.

يعود به إلى مكة و أن يحتاط عليه من اليهود لئلا يغتالوه^{١٢٧}. فقفل أبو طالب راجعا الى مكة و معه ابن أخيه محمد (صلى الله عليه و اله).

٣- رعى الغنم:

لم يرو عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ما ينص على أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) قد رعى الأغنام في صباه، نعم روى عن الإمام الصادق (عليه السلام) حديث يعم الأنبياء فيما يخص الرعى و حكمة ذلك إذ جاء فيه : «ما بعث الله نبيا قط حتى يسترعيه الغنم، يعلمه بذلك رعيه للناس».

ص: PAGE=٦٣:

كما روى عنه (عليه السلام) في حكمة الحرث و الرعى قوله : «إن الله عز و جل أحبّ لأتبيائه من الأعمال : الحرث و الرعى، لئلا يكرهوا شيئا من فطر السماء»^{١٢٨}.

و روى أيضا: إن رسول الله (صلى الله عليه و اله) ما كان أجيرا لأحد قط^{١٢٩}.

و يدل هذا النص على أنه لم يكن يرعى الغنم لأهل مكة بأجرة كما زعم بعض المؤرخين من أنه (صلى الله عليه و اله) قد رعى الغنم لأهل مكة مستشهدا بحديث جاء في صحيح البخارى^{١٣٠}.

و إذا ثبت لدينا رعيه (صلى الله عليه و اله) للغنم فى صباه أو فى عنفوان شبابه أمكن تعليل ذلك بما جاء فى النص الذى أشرنا إليه من حديث الإمام الصادق (عليه السلام) و هو الإعداد الإلهي له من خلال ممارسة النشاط الذى يؤهله لبلوغ المرتبة السامية من الكمال الذى وصفه الله تعالى به بقوله : **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**^{١٣١} كما لا يجعله مستعدا لتحمل أعباء الرسالة الإلهية التى تتطلب رعاية الناس و تربيتهم و الصبر على مصاعب هدايتهم و إرشادهم.

٤- حروب الفجار:

كانت للعرب عدّة حروب استحلّت فيها حرمة الأشهر الحرم فسميت بحروب الفجار^{١٣٢}.

و زعم بعض المؤرخين أن النبى (صلى الله عليه و اله) قد حضر بعض أيامها، و شارك فيها بنحو من المشاركة . و قد شكك بعض المحققين فى ذلك لأسباب منها:

ص: PAGE=٦٤:

^{١٢٧} (1) سيرة ابن هشام: 194 / 1، الصحيح من سيرة النبي: 91 - 94.

^{١٢٨} (1) علل الشرائع: ص 23، سفينة البحار: مادة نبأ.

^{١٢٩} (2) تاريخ اليعقوبي: 2 / 21، البداية و النهاية: 2 / 296.

^{١٣٠} (3) صحيح البخاري: كتاب الاجارة، الباب 303، الحديث رقم 499.

^{١٣١} (4) القلم: 4 / 68.

^{١٣٢} (5) موسوعة التاريخ الإسلامى 1: 301 - 305 عن الأغاني 19: 74 - 80.

أولاً: أن الرسول (صلى الله عليه و اله) كلما تقدم في العمر كانت شخصيته تزداد تألقاً و قد عرف بشجاعته الفائقة كسائر بنى هاشم، و لكن هذا لا يعنى أنهم شاركوا في حرب فيها ظلم و فساد . فقد روى أن أحداً من بنى هاشم لم يحضر هذه الحروب فإن أبا طالب كان قد منع أن يكون فيها أحد منهم حين قال : هذا ظلم و عدوان، و قطيعة رحم، و استحلال للشهر الحرام، و لا أحضره و لا أحد من أهلى^{١٣٣} . و انسحب عبد الله بن جدعان و حرب بن أمية - و هو قائد قريش و كنانة حينذاك - و قالوا: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم^{١٣٤} .

ثانياً: اختلفت الروايات حول الدور الذى أداه النبى (صلى الله عليه و اله) فى هذه الحرب، فبعضهم روى : أن عمله (صلى الله عليه و اله) كان يقتصر على مناولة النبل لأعمامه و الردع على نبل عدوهم و حفظ متاعهم^{١٣٥} . و روى آخر: أنه قد رمى فيها برميات^{١٣٦} ، و روى ثالث أنه طعن أبا البراء ملاعب الأسنه فصرعه^{١٣٧} مع أنه كان غلاماً^{١٣٨} ، و لا ندرى هل كانت العرب تسمح للغلام بخوض المعارك و الحروب^{١٣٩} ؟

٥- حلف الفضول:

شعرت قريش بعد حرب الفجار بضعفها و تفرق كلمتها، و خشيت من طمع العرب فيها بعد أن كانت قوية منيعة، فدعا الزبير بن عبد المطلب إلى حلف

ص: PAGE=٦٥

الفضول حيث اجتمعت بنو هاشم و زهرة و تميم و بنو أسد فى دار عبد الله بن جدعان، و غمس المتحالفون أيديهم فى ماء زمزم و تحالفوا على نصره المظلوم، و التأسى بالمعاش، و النهى عن المنكر^{١٤٠} و كان أشرف حلف فى العهد الجاهلى.

و قد شارك محمد (صلى الله عليه و اله) فى هذا الحلف و كان يومئذ قد جاوز العشرين من عمره^{١٤١} و قد أثنى عليه بعد نبوته و أمضاه. بقوله: ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم و لو دعيت بهفى الإسلام لأجبت^{١٤٢} .

و قيل فى سبب تسميته بحلف الفضول أنه قد حضره ثلاثة نفر أسماؤهم مشتقة من مادة «الفضل» و كان السبب فى عقد هذا الحلف ما روى من أنه : أتى رجل من زبيد أو من بنى أسد بن خزيمه مكة فى شهر ذى القعدة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل السهمى و حبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدى قريشا فأبى الأحلاف من قريش معونة الزبيدى على العاص بن وائل و انتهره فلما رأى الزبيدى الشرسعد على جبل أبى قبيس و استغاث فقام الزبير بن عبد المطلب و دعا إلى الحلف المذكور؛ فعقد، ثم مشوا الى العاص و انتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه^{١٤٣} .

^{١٣٣} (1) تاريخ اليعقوبي: 15 / 2 .

^{١٣٤} (2) تاريخ اليعقوبي: 15 / 2 .

^{١٣٥} (3) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي: 304 / 1 .

^{١٣٦} (4 و 5) السيرة النبوية لزينى دحلان: 251 / 1 ، السيرة الحلبية: 127 / 1 .

^{١٣٧} (4 و 5) السيرة النبوية لزينى دحلان: 251 / 1 ، السيرة الحلبية: 127 / 1 .

^{١٣٨} (6) تاريخ اليعقوبي: 16 / 2 .

^{١٣٩} (7) راجع الصحيح فى السيرة: 95 / 1 .

^{١٤٠} (1) البداية و النهاية: 293 / 3 ، و راجع شرح النهج لابن أبى الحديد: 129 / 14 و 283 .

^{١٤١} (2) تاريخ اليعقوبي: 17 / 1 .

^{١٤٢} (3) سيرة ابن هشام: 142 / 1 .

^{١٤٣} (4) السيرة الحلبية: 132 / 1 ، البداية و النهاية: 291 / 2 .

٦- التجارة بأموال خديجة:

بدأت شخصية محمد (صلى الله عليه و اله) تتألاً في المجتمع المكي بما كانت تتمتع به من خلق رفيع و علو همة و أمانة و صدق حديث فكانت القلوب تنجذب إليه و هو سليل أسرة طاهرة و لكن الفقر الذي كان حليف أبي طالب دفع بالأسرة الكريمة

ص:٦٦=PAGE:

التي كان يعيش فيها محمد (صلى الله عليه و اله) إلى أن يقترح أبو طالب على ابن أخيه الذي كان قد بلغ الخامسة و العشرين من عمره أن يخرج مضاربا بأموال خديجة بنت خويلد و بادر أبو طالب إلى خديجة و فاتحها بالأمر فرحبت به على الفور و سرت سرورا عظيما لما كانت تعرفه عن محمد (صلى الله عليه و اله) و قد بذلت له ضعف ما كانت تبذل لغيره ممن يخرج في تجارتها^{١٤٤}.

و سافر محمد (صلى الله عليه و اله) إلى الشام يعينه في رحلته «ميسرة» غلام خديجة و استطاع بجمال شمائله و رقيق عواطفه أن يكسب حب ميسرة و إجلاله و استطاع بأمانته و حنكته أن يريح أوفر الربح و ظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، فلما عادت القافلة إلى مكة أخبر ميسرة خديجة بما شاهد و سمع^{١٤٥} مما زاد في اهتمام خديجة بمحمد (صلى الله عليه و اله) و شوقها إلى الاقتران به.

و زعم بعض المؤرخين: أن خديجة قد استأجرته في تجارتها، بينما قال البيهقي - و تاريخه الذي يعد من أقدم المصادر المعتمدة- «و إنه ما كان مما يقول الناس: إنها استأجرته بشيء، و لا كان أجيرا لأحد قط»^{١٤٦}.

و قد ورد النص عن الإمام الحسن العسكري، عن أبيه الإمام الهادي (عليه السلام):

«إن رسول الله (صلى الله عليه و اله) كان يسافر إلى الشام مضاربا لخديجة بنت خويلد»^{١٤٧}.

ص:٦٧=PAGE:

الفصل الثالث من الزواج إلى البعثة

١- الزواج المبارك:

كان لا بد لمثل شخصية محمد (صلى الله عليه و اله) التي فاقت كل شخصية من الاقتران بامرأة تناسبه و تتجاوب مع عظيم أهدافه و قيمه تواصل معه رحلة الجهاد و العمل المضنية و تصبر على متاعبه و مصاعبه، و لم يكن يومذاك امرأة تصلح لمحمد (صلى الله عليه و اله) و لهذه المهمة سوى خديجة، و شاء الله ذلك فاتجه قلب خديجة بكل عواطفه نحو محمد (صلى الله عليه و اله) و تعلق بشخصه الكريم. و لقد كانت خديجة (رضي الله عنها) من خيرة نساء قريش شرفا و أكثرهن

^{١٤٤} (1) راجع بحار الأنوار: 22 / 16، كشف الغمة: 2 / 134 نقلا عن معالم العترة للجنابذي، و راجع أيضا السيرة الحلبية 1 / 132.

^{١٤٥} (2) البداية و النهاية: 2 / 296، السيرة الحلبية: 1 / 136.

^{١٤٦} (3) تاريخ البيهقي: 2 / 21.

^{١٤٧} (4) بحار الأنوار: 17 / 308.

مالا و أحسنهن جمالا، و كانت تدعى فى الجاهلية ب «الطاهرة» و «سيدة قريش». و كان كل رجال قومها حريصين على الاقتران بها.

و قد خطبها عظماء قريش و بذلوا لها الأموال، فرضتهم جميعا ^{١٤٨} لما كانت تملك من عقل راجح يزن الأمور، و لكنّها اختارت محمدا (صلى الله عليه و اله) لما عرفت فيه من النبيل و الأخلاق الكريمة و السجايا الفاضلة و القيم العالية. فطلبت النزول فى ساحة عظمتة، و عرضت نفسها عليه.

ص: PAGE=٤٨:

و تظافت النصوص التاريخية على أنّها هى التى أبدت أولا رغبته فى الاقتران به، فذهب أبو طالب فى أهل بيته، و نفر من قريش لخطبتها من وليها آنذاك و هو عمها عمرو بن أسد ^{١٤٩} و كان ذلك قبل بعثة النبى (صلى الله عليه و اله) بخمس عشرة سنة على المشهور.

و كان مما قاله أبو طالب فى خطبته: «الحمد لربّ هذا البيت، الذى جعلنا من زرع إبراهيم و ذرية إسماعيل و أنزلنا حرما آمنا، و جعلنا الحكام على الناس، و بارك لنا فى بلدنا الذى نحن فيه ... ثم إن ابن أخى هذا ممن لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به و لا يقاس به رجل إلا عظم عنه، و لا عدل له فى الخلق و إن كان مقلّا فى المال؛ فإن المال رقد جار، و ظل زائل، و له فى خديجة رغبة و لها فيه رغبة، و قد جئناك لنخطبها إليك، برضاها و أمرها و المهر علىّ فى مالى الذى سألتموه عاجله و آجله ... و له و ربّ هذا البيت حظّ عظيم، و دين شائع و رأى كامل»^{١٥٠}.

لكن خديجة (رضى الله عنها) عادت، فضمنت المهر فى مالها .. فقال البعض: يا عجب! المهر على النساء للرجال فغضب أبو طالب، و قال: «إذا كانوا مثل ابن أخى هذا طلبت الرجال بأعلى الأثمان و أعظم المهر، و إن كانوا أمثالكم لم يزوجوا إلا بالمهر الغالى».

و تفيد بعض المصادر أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) نفسه قد أمهرها، و لا مانع من ذلك حينما يكون قد أمهرها بواسطة أبى طالب، و من خطبة أبى طالب يمكننا أن نستشف علو مكانة الرسول (صلى الله عليه و اله) فى قلوب الناس، و ما كان يتمتع به بنو هاشم من شرف و سؤدد.

ص: PAGE=٤٩:

خديجة قبل أن يتزوجها النبى (صلى الله عليه و اله):

ولدت خديجة وسط اسرة عريقة النسب كانت تتمتع بالذكر الطيب و الخلق الكريم و تميل إلى التدين بالحنيفية - دين إبراهيم الخليل (عليه السلام) - فأبوها خويلد نازع ملك اليمن حين أراد أن يحمل الحجر الأسود إلى اليمن، و لم ترهبه كثرة أنصاره دفاعا عن معتقده و مناسك دينه، و أسد بن عبد العزى - جد خديجة - كان من المبرزين فى حلف الفضول

^{١٤٨} (1) بحار الأنوار: 22/16.

^{١٤٩} (1) السيرة الحلبية: 137/1.

^{١٥٠} (2) الكافي: 374/5، بحار الأنوار: 5/16 نقلا عن الكشاف و ربيع الإبرار، و راجع أيضا السيرة الحلبية 139/1، تاريخ البعقوبي: 20/2، الأوائى لأبى هلال: 162/1.

الذى قام على أساس نصره المظلوم، وقد شهد رسول الله (صلى الله عليه و اله) لأهمية هذا الحلف و أيد القيم التي قام عليها^{١٥١}. و ابن عمها ورقة بن نوفل كان قد عاش النصرى و اليهود و درس كتبهم.

إن التاريخ لا يعطينا تفاصيل دقيقة عن حياة خديجة قبل زواجها من النبي (صلى الله عليه و اله). فقد روى أنها تزوجت قبله (صلى الله عليه و اله) برجلين و كان لها منهما بعض الأولاد و هما عتيق بن عائد المخزومي و أبو هالة التميمي^{١٥٢}، فى حين تروى مصادر أخرى أن النبي (صلى الله عليه و اله) حين تزوج بها كانت بكرًا، و حينئذ تكون زينب و رقية ابنتى هالة أخت خديجة قد تبنتهما خديجة بعد فقدهما لأمهما^{١٥٣}.

و اختلف المؤرخون فى تحديد عمر خديجة (رضى الله عنها) حين زواجها مع النبي (صلى الله عليه و اله) فهناك من روى أن عمرها كان (٢٥) عاما و آخر (٢٨) عاما و ثالث (٣٠) عاما و رابع (٣٥) عاما و خامس (٤٠) عاما^{١٥٤}.

ص: ٧٠=PAGE:

٢- إعادة وضع الحجر الأسود:

كان للكعبة منزلة كبيرة لدى العرب إذ كانت تعتنى بها و تحج إليها فى الجاهلية . و قبل البعثة النبوية بخمسة أعوام هدم السيل الكعبة فاجتمعت قريش و قررت بناءها و توسعتها و باشر أشرف القرشيين و المكيين العمل، و لما تكامل البناء و بلغوا الى موضع الحجر الأسود اختلفوا فى من يضعه فى مكانه؛ فكل قبيلة كانت تريد أن تختص بشرف ذلك و استعدوا للقتال و انضم كل حليف إلى حليفه و تركوا العمل فى بنائها ثم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا و اتفقوا على ان يكون أول داخل على الاجتماع هو الحكم بينهم و تعاهدوا على الالتزام بحكمه فكان أول داخل محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله) فقالوا: هذا الأمين قد رضينا به، و أقدم النبي (صلى الله عليه و اله) على حل النزاع حين جعل الحجر فى ثوب و قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم قال: ارفعوا جميعا ففعلوا فلما حاذوا موضعه أخذه بيده الشريفة و وضعه حيث يجب أن يكون، و بعد ذلك أتموا بناءها^{١٥٥}.

و روى بعض المؤرخين: أنهم كانوا يتحاكمون إلى النبي (صلى الله عليه و اله) فى الجاهلية لأنه كان لا يدارى و لا يمارى^{١٥٦}.

لقد كان لهذا الموقف أثر كبير فى نفوس تلك القبائل و أعطى الرسول (صلى الله عليه و اله) رصيذا كبيرا و عمقا جديدا لتثبيت مكانته الاجتماعية و لفت انتباههم إلى قدراته القيادية و كفاءته الإدارية مما ركز ثقتهم بسمو حكمتهم و حنكته و عظيم أمانته.

^{١٥١} (1) السيرة النبوية: 141 / 1.

^{١٥٢} (2) للإطلاع على اختلاف الروايات راجع الاصابة 3 / 611، السيرة الحلبية: 140 / 1، اسد الغابة:

121 و 71 / 5.

^{١٥٣} (3) مناقب آل أبي طالب: 159 / 1. و راجع أيضا أعلام الهداية الجزء 3، و الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه و اله): 1 / 126-121.

^{١٥٤} (4) راجع السيرة الحلبية: 140 / 1، البداية و النهاية: 2 / 295، بحار الانوار: 12 / 16، سيرة مغلطاي: 12 -- و الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه و اله): 126 / 1.

^{١٥٥} (1) راجع تاريخ اليعقوبي: 2 / 19، سيرة ابن هشام: 1 / 204، البداية و النهاية: 2 / 300، تاريخ الطبري: 2 / 37 (ط. الاستقامة).

^{١٥٦} (2) السيرة الحلبية: 145 / 1.

٣- ولادة عليّ (عليه السلام) و تربية النبيّ (صلى الله عليه و اله) له:

إنّ العلاقة بين محمّد (صلى الله عليه و اله) و عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) لا تقتصر على النسب بل تتميز بأنّها علاقة فكرية و عاطفية عميقة جدا، فما ان خرجت فاطمة بنت أسد تحمل وليدها الذي وضعته في بطن الكعبة^{١٥٧} حتى تقدّم إليها محمّد المصطفى (صلى الله عليه و اله) و أخذ عليا فضمه إلى صدره^{١٥٨} و كانت هذه بداية العناية به و الإعداد الخاص له.

و نشأ الوليد في أحضان والديه و ابن عمه محمد (صلى الله عليه و اله) الذي كان يتردد كثيرا على دار عمّه حتى بعد زواجه من خديجة (رضى الله عنها)، يشمله بفيض خاص من العواطف و الاهتمام الفائق يناغيه في يقظته و يحمله على صدره، و يحرك مهده عند نومه . و قد انعكست هذه الرعاية المستمرة لسنوات طويلة و هذا الحنان العظيم الملفت للنظر بأثارها على سلوك عليّ و شعوره حتّى طفق على لسانه و كلامه فأشار الى شدة قربه من رسول الله (صلى الله عليه و اله) بقوله (عليه السلام): «و قد علمتم موضعي من رسول الله (صلى الله عليه و اله) بالقرابة القريبة و المنزلة الخصيصة، و ضعني في حجره و أنا وليد يضمنني إلى صدره و يكفني في فراشه و يمسني جسده و يشمّني عرفه و كان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، و ما وجد لي كذبة في قول و لا خطله في فعل، و لقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر امه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما و يأمرني بالاعتداء به»^{١٥٩}.

و حين اشتدت الأزمة الاقتصادية على قريش سارع محمد (صلى الله عليه و اله) مقترحا

على عميه حمزة و العباس أن يعينوا أبا طالب في شدته فأخذ العباس طالبا و أخ ذ حمزة جعفرا و استبقى أبو طالب عقيبا و أخذ محمد (صلى الله عليه و اله) عليّا و قال لهم: قد اخترت من اختار الله لي عليكم: عليا^{١٦٠}.

و هكذا انتقل عليّ (عليه السلام) إلى دار ابن عمه و رعايته و أخذت تتبلور شخصيته و لم يفارقه حتى آخر لحظات عمر النبيّ (صلى الله عليه و اله) . أن اهتمام النبيّ (صلى الله عليه و اله) بعليّ (عليه السلام) لم يقتصر على فترة الأزمة الاقتصادية و هذا يفيدنا بأنّ النبيّ (صلى الله عليه و اله) كان يهدف أمرا آخر هو أن يتربى عليّ (عليه السلام) في حجره (صلى الله عليه و اله) ليعده إعدادا خاصا كي يتسنى له القيام بدور رسالي عظيم في صيانة شريعة الرسول الخاتم التي كان الله قد اختار لها خير خلقه و صفوة عباده.

و هكذا هيأ الله لعليّ (عليه السلام) أن يعيش منذ نعومة أظفاره في كنف الرسول (صلى الله عليه و اله) يحظى بمودته و حنانه، و يقتبس من أخلاقه و عظيم سجايه . هذا و قد عامله النبيّ (صلى الله عليه و اله) كما لو كان ولده الحبيب .. و

^{١٥٧} (1) قال الحاكم النيسابوري:

« فقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة المستدرك على الصحيحين: 3/483.

^{١٥٨} (2) الفصول المهمة لابن الصباغ 13.

^{١٥٩} (3) نهج البلاغة: الخطبة الفاصعة رقم (192).

^{١٦٠} (1) مقاتل الطالبين: 36، الكامل في التأريخ: 37/1.

عاش على (عليه السلام) مع النبي (صلى الله عليه و اله) كل التحولات الغيبية التي جرت لرسول الله (صلى الله عليه و اله) إذ لم يفارقه في كل يومه^{١٦١}.

إن ما حفظه لنا التاريخ من سيرة الإمام على (عليه السلام) يجسد لنا- بعمق وقوة- المدى الذي كان الإمام (عليه السلام) قد حظى به في مضمار الإعداد الرسالي على يد الرسول (صلى الله عليه و اله) قبل البعثة و بعدها و ما خصّه به من إعداد روحى و نفسى ممّا جعله جديرا بالم رجعية الفكرية و العلمية فضلا عن المرجعية السياسية بعد رسول الله (صلى الله عليه و اله).

ص: PAGE=٧٣:

٤- ملامح من شخصية خاتم الأنبياء (صلى الله عليه و اله) قبل البعثة:

لقد سطع اسم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله) في مجتمع الجزيرة العربية في وقت كان الوهن و التفكك قد بدا على أواصر ذلك المجتمع بكل نواحيه و كانت شخصية محمد بن عبد الله (صلى الله عليه و اله) تزداد تألقا و سموًا.

و بدأت تظهر استقامة شخصيته في كل جوانب سلوكه و كمالته الاخلاقية.

الى جانب الأصالة العائلية المتمثلة في كرم المحتد و طهارة المولد يرفده الإمداد الغيبي و التسديد الإلهي الذي يصونه عن كل المعاصى و المساوى.

و لقد كان على بن أبى طالب أكثر الناس التصاقا و معرفة بالرسول (صلى الله عليه و اله)، و كلامه عن الرسول أصدق قول حيث قال: «و لقد قرن الله به (صلى الله عليه و اله) من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، و محاسن أخلاق العالم، ليله و نهاره»^{١٦٢}.

و قد روى عنه (صلى الله عليه و اله) مدى بغضه للأصنام منذ الطفولة ففي قصة سفره إلى الشام مع عمه أبى طالب نجده يرفض أن يقيم وزنا للأوثان^{١٦٣}.

لقد اختار محمد (صلى الله عليه و اله) لنفسه و لبناء شخصيته منهجا خاصا حقق له حياة زاخرة بالمعنوية و القيم السامية فلم يكن كلاً على أحد و لا عاطلا عن العمل، فقد رعى الأغنام لأهله حين كان فتى يافعا^{١٦٤} و سافر للتجارة في عنفوان شبابه^{١٦٥}؛ و في جانب آخر من شخصيته الفذة نلمس جمال الإنسانية متجليًا في كمال الرحمة

ص: PAGE=٧٤:

^{١٦١} (2) نهج البلاغة: الخطبة 192، و شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: 4/ 315.

^{١٦٢} (1) نهج البلاغة: الخطبة 192.

^{١٦٣} (2) السيرة النبوية: 1/ 182، الطبقات الكبرى: 1/ 154.

^{١٦٤} (3) السيرة الحلبية: 1/ 125، سفينة البحار، مادة نبأ، السيرة النبوية لابن هشام: 1/ 166.

^{١٦٥} (4) بحار الأنوار: 16/ 22، كشف الغمة: 2/ 13، الكامل في التاريخ: 2/ 24.

و غاية العطف على الضعفاء و الفقراء و خير نموذج على ذلك تعامله مع زيد بن حارثة الذى رفض العودة الى أبيه و فضل الحياة الكريمة مع محمد (صلى الله عليه و اله) ^{١٦٦}.

و هكذا نعرف أن محمدا (صلى الله عليه و اله) كان قبل بعثته رجلا لبيبا فاضلا رشيدا طوى سنوات شبابه و هو يملك أسمى مقومات التعامل الإنسانى و الاجتماعى فى مجتمع الجزيرة الجاهلى و قد فاق بشخصيته المتلى جميع من سواه فى عامة المجتمع الإنسانى آنذاك، و بذلك شهد له التنزيل قائلا له: **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ^{١٦٧}

ص:PAGE=٧٥:

الباب الثالث فيه فصول:

الفصل الأول:

البعثة النبوية المباركة و ارهاصاتها الفصل الثانى:

مراحل حركة الرسالة فى العصر المكى الفصل الثالث:

موقف بنى هاشم و أبى طالب من النبى (صلى الله عليه و اله) الفصل الرابع:

سنوات الانفراج حتى الهجرة

ص:PAGE=٧٧:

الفصل الأول البعثة النبوية المباركة و إرهاصاتها

تمثل نصوص القرآن الكريم أقدم النصوص التاريخية التى تتمتع بالصحة و الدقة و المعاصرة لأحداث عصر الرسالة الاسلامية، و المنهج العلمى يفرض علينا أن لا نتجاوز نصوص القرآن الكريم فيما يخص عصر النبى (صلى الله عليه و اله) الذى نزلت فيه الآيات حين بعثته و استمرت بالنزول حتى وفاته.

و اذا عرفنا أن الروايات التاريخية المتمثلة فى كتب الحديث و السيرة قد تأخر تدوينها عن عصر وقوع الحوادث أولا، كما أنها قريبة من الدس و تطرق التزوير اليها ثانيا؛ كان من الطبيعى و المنطقى أن نعرضها على محكمات الكتاب و السنة و العقل لناخذ ما يوافقها و نرفض ما يخالفها.

و ينبغى أن لا يغيب عنا أن النبوة سفارة ربانية و مهمة إلهية تتعين من قبله سبحانه و تعالى لغرض رفق البشرية بالهداية اللازمة لها على مدى الحياة. و أن الله إنما يصطفى من عباده من يتمتع بخصائص فذة تجعله قادرا على أداء المهام الكبرى المرادة منه و تحقيقها بالنحو اللائق.

^{١٦٦} (1) الإصابية: 1/ 545، اسد الغابية: 2/ 225.

^{١٦٧} (2) القلم (68): 4.

اذن لا بدّ أن يكون المرسل من قبله تعالى مستوعبا للرسالة و أهدافها و قادرا

ص: PAGE=78:

على أداء الدور المطلوب منه على مستوى التلقى و التبليغ و التبيين و التطبيق و الدفاع و الصيانة و كل هذه المستويات من المسؤولية تتطلب العلم و البصيرة (و المعرفة) و سلامة النفس و صلاح الضمير و الصبر و الاستقامة و الشجاعة و الحلم و الانابة و العبودية لله و الخشية منه و الاخلاص له و العصمة (و التسديد الرباني) على طول الخط . و لم يكن خاتم المرسلين بدعا من الرسل بل هو أكملهم و أعظمهم فهو أجمع لصفات كمالهم و الله أعلم حيث يجعل رسالته.

و من أبده القضايا و من مقتضيات طبائع الاشياء أن يكون المرشح لمهمة ربانية كبرى على استعداد تام لتقبلها و تنفيذها قبل أن يتولى تلك المهمة أو يرشح لأدائها. إذن لا بد للنبي الخاتم أن يكون قد أحرز كل متطلبات حمل هذه المسؤولية الإلهية و توفّر على كل الخصائص اللازمة لتحقيق هذه المهمة الربانية قبل البعثة المباركة . و هذا هو الذي تؤيده نصوص القرآن الكريم.

١- قال تعالى: كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^{١٦٨}.

٢- و قال أيضا: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى^{١٦٩}.

٣- و قال أيضا: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ^{١٧٠}.

٤- و قال أيضا : وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ^{١٧١}.

اذن مصدر الوحي هو الله العزيز الحكيم. و المرسلون رجال يوحى اليهم الله

ص: PAGE=79:

سبحانه معالم توحيده و عبادته و يجعلهم أمة يهدون بأمره كما يوحى إليهم تفاصيل الشريعة من فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و هم القدوة لغيرهم فى العبادة و التجسيد الحى للاسلام الحقيقى لله سبحانه.

و فيما يخص خاتم النبيين يقول سبحانه و تعالى:

١- وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ...^{١٧٢}.

^{١٦٨} (1) الشورى(42): 3.

^{١٦٩} (2) يوسف(12): 109.

^{١٧٠} (3) الأنبياء(21): 25.

^{١٧١} (4) الأنبياء(21): 73.

^{١٧٢} (1 و 2 و 3) الشورى(42): 7 و 13 و 15 و 17.

٢- شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ^{١٧٣}.

٣- اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزَانَ^{١٧٤}.

٤- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَ يَمُحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتٍ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^{١٧٥}.

٥- وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ * وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^{١٧٦}.

إن الذين عاصروا الرسول الكريم قبل بعثته و حتى وفاته لم يقدموا لنا تصويرا صحيحا و واضحا عن الرسول قبل بعثته بل و حين البعثة. و لعل أقدم

ص: PAGE=٨٠:

النصوص و أتقنها هو ما جاء عن ربيب الرسول و ابن عمه و وصيه الذي لم يفارقه قبل بعثته و عاشره طيلة حياته، إلى جانب أمانته في النقل و دقته في تصوير هذه الشخصية الفذة. فقد قال عن الفترة التي سبقت البعثة النبوية و هو يتحدث عن الرسول (صلى الله عليه و اله):

«و لقد قرن الله به (صلى الله عليه و اله) من لدن أن كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم. ليله و نهاره. و لقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه.

يرفع لى فى كل يوم من أخلاقه علما. و قد كان يجاور كل سنة بحراء فأراه و لا يراه غيرى»^{١٧٧}.

و يتوافق هذا النص مع قوله تعالى: **وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**^{١٧٨}. فقد نزل هذا النص فى بداية البعثة. و الخلق ملكة نفسية متجذرة فى النفس لا تستحدث خلال أيام، فوصفه بعظمة خلقه يكشف عن سبق اتصافه بهذه الصفة قبل البعثة المباركة.

و تتضح بجلاء بعض معالم شخصيته (صلى الله عليه و اله) قبل البعثة من خلال نص حفيده الإمام الصادق (عليه السلام): ان الله عز و جل أدب نبيه فأحسن أدبه فلما أكمل له الأدب قال:

^{١٧٣} (1 و 2 و 3) الشورى(42): 7 و 13 و 15 و 17.

^{١٧٤} (1 و 2 و 3) الشورى(42): 7 و 13 و 15 و 17.

^{١٧٥} (4 و 5) الشورى(42): 24 و 51 و 52.

^{١٧٦} (4 و 5) الشورى(42): 24 و 51 و 52.

^{١٧٧} (1) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة 292.

^{١٧٨} (2) القلم(68): 4.

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ثم فوّض إليه أمر الدين و الامّة ليسوس عباده^{١٧٩}.

على أنّ الخلق العظيم جامع لتمام المكارم التي فسّرها النص الوارد عن النبيّ (صلى الله عليه و اله) حيث يقول: «إنما بعثت لاتمّم مكارم الاخلاق». فكيف يراد له تتميم مكارم الاخلاق و هو لم يتصف بها بعد؟! اذن لا بدّ من القول بأنّ النبيّ (صلى الله عليه و اله) كان قبل البعثة قد أحرز جميع المكارم ليكون وصفه بالخلق العظيم وصفا صحيحا و منطقيا.

ص: PAGE=٨١:

فالرسول قبل بعثته كان مثال الشخصية المتزنّة المتعادلة و الواعية المتكاملة و الجامعة لمكارم الأخلاق و معالي الصفات و حميد الأفعال.

و النصوص القرآنية التي تشير الى ظاهرة الوحي الرسالي و كيفية تلقي الرسول (صلى الله عليه و اله) له تصرّح بشكل لا يقبل التردد بما كان عليه الرسول من الطمأنينة و الثبات و الاستجابة التامة لأوامر الله تعالى و نواهيه التي كان يتلقاها قلبه الكريم .

لاحظ ما سقناه اليك من نصوص سورة الشورى، و اقرأ أيضا ما جاء في غيرها مثل قوله تعالى:

١- وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ^{١٨٠}.

٢- قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي^{١٨١}.

٣- قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ^{١٨٢}.

٤- قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ^{١٨٣}.

٥- قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ^{١٨٤}.

٦- وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا^{١٨٥}.

ص: PAGE=٨٢:

٧- وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَّبِّي^{١٨٦}.

^{١٧٩} (3) الكافي: 1/ 66 / الحديث 4.

^{١٨٠} (1) النجم (53): 1- 11.

^{١٨١} (2) الأنعام (6): 57.

^{١٨٢} (3) الكهف (18): 110.

^{١٨٣} (4) الأنبياء (21): 45.

^{١٨٤} (5) الأنبياء (21): 108.

^{١٨٥} (6) طه (20): 114.

٨- قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي .^{١٨٧}

و اذا عرفت ما جاء فى هذه النصوص القرآنية المباركة تستطيع أن تولّى وجهك شطر المصادر الحديثية و التأريخية لتتقف على محكماتها و متشابهاتها.

قال الامام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت : «أول ما بدئ به رسول الله (صلى الله عليه و اله) من الوحي الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب اليه الخلاء. و كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ... ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق و هو فى غار حراء.

و ليس فى بداية هذا النص ما يدعو للاستغراب سوى أن عائشة لم تكن حين بدء الوحي، و النص لا يفصح أنها عمّن استقت هذه المعلومات؟ و هى لم تروه عن رسول الله (صلى الله عليه و اله) مباشرة. و لكن فى ذيل النص ما هو مدعاة للاستغراب طبعاً.

قالت: «ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، و هو ابن عم خديجة أختي أبيها، و كان امرءاً قد تنصّر فى الجاهلية و كان يكتب الكتاب العربى فكتب بالعربية من الانجيل - ما شاء الله أن يكتب- و كان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت خديجة: أى ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة : ابن أخى! ما ترى؟ فأخبره رسول الله (صلى الله عليه و اله) ما رأى. فقال ورقة: هذا الناموس الذى انزل على موسى (عليه السلام)، يا ليتنى فيها جذعا، ليتنى أكون حيّاً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله: «أو مخرجى هم؟ فقال ورقة: نعم. لم يأت رجل

ص: PAGE=٨٣:

قط بما جئت به إلا عودى، و إن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفى»^{١٨٨}.

إن ورقة الذى لم يسلم بعد هو عارف بما سيجرى على النبى فضلاً عن علمه بنبوته ! بينما صاحب الدعوة و الرسالة نفسه لم يتضح له الامر بعد! و كأن ورقة هو الذى يفيض عليه الطمأنينة! و القرآن قد صرح بأن النبى (صلى الله عليه و اله) على بينة من ربه، كما عرفت ذلك فى أكثر من آية تنصّ على أن الرسل هم مصدر الهداية للناس و هم أصحاب البينات و ليس العكس هو الصحيح، بينما يشير هذا الحديث الى أن ورقة هو الذى عرف رسالة النبى قبله فبعث فيه الطمأنينة.

و هذا هو الذى فتح الطريق لأهل الكتاب للغمز فى رسالة النبى محمد (صلى الله عليه و اله) إذ قالوا بأن نبيكم - بموجب نصوصكم هذه- لم يطمئن الى أنه رسول من الله إلا بعد تطمين ورقة المسيحى له، و قد تجرأ البعض حتى ادعى أن محمداً (صلى الله عليه و اله) قسيس من القساوسة الذين ربّاهم ورقة استناداً الى هذا النص الذى نقلته كتب الحديث و تداوله المؤرخون! و هذه ثغرة حصلت من الابتعاد عن محكمات العقل و الكتاب و السنة جميعاً.

و هل يصدّق بهذا عاقل عرف المنطق القرآنى و تعرّف على شخصية الأنبياء فى القرآن الكريم؟ و كيف يمكن له أن يؤمن بمضمون هذا النص على أنه حقيقة؛ لمجرد زعم انتسابه الى عائشة زوجة النبى (صلى الله عليه و اله)؟!

^{١٨٦} (1) سبأ (34): 50.

^{١٨٧} (2) يوسف (12): 108.

^{١٨٨} (1) مسند أحمد، الحديث رقم: 24681.

و ثمة نصّ آخر في تاريخ الطبري هو أكثر فظاعة من هذا و أدعى للريب في محتواه حيث يذكر أن النبي (صلى الله عليه و اله) كان نائما و جاءه الملك و علّمه مطلع سورة العلق .. يقول النص بعد ذلك: «و هببت من نومي و كأنما كتب في قلبي كتابا. قال:

ص: PAGE=٨٤:

و لم يكن من خلق الله أحد أبغض إليّ من شاعر أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر اليهما، قال : قلت: إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون ! لا تحدّث بها عنى قريش أبدا ! لأعمدنّ الى حالق من الجبل فلا طرحنّ نفسي منه فلاقتلنّها فلاستريحن. قال: فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله و أنا جبريل»^{١٨٩}.

إن اضطراب النبي و خوفه يبلغ به النهاية حتى يريد الانتحار بينما يريد الله اختياره للنبوة و هداية الناس و دعوتهم الى الحق، فهل يتناسب ما في الرواية مع هذا الافق الذي هو من الواضح بمكان؟!!

و هكذا نستطيع أن نعرض نصوص التاريخ على محكمات العقل و الكتاب و السنّة لنخرج بنتائج واضحة تاركى ن ما لا يصمد أمام النقد العلمى البناء.

و بعد ملاحظة النصوص الصريحة من الكتاب العزيز إذا لا حظنا ما ورد في بعض مصادر الحديث و السيرة مما يرتبط باللقاء الأول للرسول (صلى الله عليه و اله) مع الوحي الإلهي و ما رافقه من غرائب تأباها النصوص القرآنية، جاز لنا أن نطمئن الى تسرّب الاسرائيليات اليها.

و يحسن بنا أن نقارن بين هذا النص الروائي و بين نص آخر ورد في بحار الأنوار للعلامة المجلسي (رضوان الله تعالى عليه) فيما يخصّ ارهاصات الوحي الرسالي و ما تبعه من نتائج لوحظت على نفس الرسول (صلى الله عليه و اله) و شخصيته و سلوكه.

فعن الإمام على بن محمد الهادي (عليهما السلام): أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) لمّا ترك التجارة الى الشام و تصدّق بكل ما رزقه الله تعالى من تلك التجارات كان يغدو كل يوم الى حراء يصعده و ينظر من قلله الى آثار رحمة الله، و الى أنواع عجائب رحمته و بدائع حكمته و ينظر الى أكناف السماء و أقطار الأرض و البحار و المفاوز و الفيافي، فيعتبر بتلك الآثار، و يتذكّر

ص: PAGE=٨٥:

بتلك الآيات، و يعبد الله حقّ عبادته.

فلمّا استكمل أربعين سنة و نظر الله عزّ و جلّ الى قلبه فوجده أفضل القلوب و أجلّها و أطوعها و أخشعها و أخضعها أذن لأبواب السماء فتفتحت و محمّد ينظر إليها، و أذن للملائكة فنزلوا و محمّد ينظر إليهم، و أمر بالرحمة فانزلت عليه من لدن

^{١٨٩} (1) تاريخ الطبري: 2/ 201 تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طدار سويدان. بيروت.

ساق العرش إلى رأس محمد و غرته، و نظر إلى جبرئيل الروح الأمين المطوق بالنور طاووس الملائكة هبط إليه و أخذ بضبعه^{١٩٠} و هزه و قال:

يا محمد اقرأ، قال : و ما اقرأ؟ قال يا محمد **اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقرأ وَ رَبِّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**^{١٩١}.

ثم أوحى إليه ما أوحى إليه ربه عزّ و جلّ ثمّ صعد إلى العلو.

و نزل محمد (صلى الله عليه و اله) من الجبل و قد غشيه من تعظيم جلال الله و ورد عليه من كبير شأنه ما ركبته الحمى و النافض ... و قد اشتدّ عليه ما يخافه من تكذيب قريش فى خبره و نسبتهم إياه إلى الجنون، و إنّه يعتريه شى اطين، و كان من أول أمره أعقل خلق الله، و أكرم براياه، و أبغض الأشياء إليه الشيطان و أفعال المجانين و أقوالهم، فأراد الله عزّ و جلّ أن يشرح صدره؛ و يشجّع قلبه، فأنطق الله الجبال و الصخور و المدر، و كلّما وصل إلى شىء منها ناداه:

السلام عليك يا محمد، ال سلام عليك يا ولىّ الله، السلام عليك يا رسول الله أبشر، فإنّ الله عزّ و جلّ قد فضلك و جمّلك و زيّتك و أكرمك فوق الخلائق أجمعين من الأولين و الآخرين، لا يحزنك أن تقول قريش إنّك مجنون، و عن الدين مفتون، فإنّ الفاضل من فضله ربّ العالمين، و الكريم من كرمه خالق الخلق أجمعين، فلا يضيّقنّ صدرك من تكذيب قريش و عتاة العرب لك، فسوف يبلغك ربك أقصى منتهى الكرامات، و يرفعك إلى أرفع الدرجات، و سوف ينعم و يفرح أولياءك بوصيك علىّ بن أبى طالب، و سوف يبثّ علومك

ص:PAGE=٨٦ص:

فى العباد و البلاد بمفتاحك و باب مدينة حكمتك: على بن أبى طالب، و سوف يقر عينك ببنتك فاطمة، و سوف يخرج منها و من علىّ: الحسن و الحسين سيّدى شباب أهل الجنة، و سوف ينشر فى البلاد دينك و سوف يعظّم اجور المحبّين لك و لأخيك، و سوف يضع فى يدك لواء الحمد فتضعه فى يد أخيك علىّ، فيكون تحتته كلّ نبيّ و صدّيق و شهيد، يكون قائدهم أجمعين إلى جنّات النعيم^{١٩٢}.

و حين نقارن بين هذا النص الروائى و ما سبقه مما رواه الطبرى نلاحظ البون الشاسع و الفرق الكبير بين الصورتين عن بداية البعثة و شخصية الرسول (صلى الله عليه و اله). فبينما كانت تصوّره الرواية الاولى : شاكّا و مضطربا- اضطرابا ناشئا عن الجهل بحقيقة ما يجرى له !- تصوّره الرواية الأخيرة: عالما مطمئنا متفائلا بمستقبل رسالته منذ بداية الطريق . و هذه الصورة هى التى تنسجم مع محكمات الكتاب و السنة و التاريخ.

ص:PAGE=٨٧ص:

الفصل الثانى مراحل حركة الرسالة فى العصر المكي

^{١٩٠} (1) الضبع: وسط العضد و فى المصدر: بضعيه. و هزه: حركه.

^{١٩١} (2) العلق (96): 1-5.

^{١٩٢} (1) بحار الأنوار: 18 / 207 - 208.

١- بناء الخلية الإيمانية الأولى:

و بعد اللقاء الأول مع وحى النبوة أخذت تتدرج الآيات القرآنية بالنزول، و يبدو أنه بعد أن نزلت عليه الآيات الأولى من سورة المزمل شرع النبي (صلى الله عليه و اله) يهيء نفسه للخطوات التالية فى طريق نشر الرسالة الإسلامية و بناء المجتمع الإسلامى، و كان عليه أن يعدّ العدة لمواجهة الصعاب الكثيرة و المشاكل المتوقعة، و أن يحكم خطته و اسلوبه فى العمل.

إنّ أوّل ما بدأ به هو دعوة أهل بيته . أمّا خديجة (رضى الله عنها) فكان من الطبيعي أن تصدق النبي (صلى الله عليه و اله) حيث عاشرتة عمرا طويلا و وجدت فيه منتهى السمو الأخلاقى و الطهر الروحى و التعلق بالسماء .

و لم يتكلّف النبي (صلى الله عليه و اله) جهدا فى دعوة ابن عمه و ربيبه على بن أبى طالب (عليه السلام) الذى كان يحمل بين جوانحه قلبا طاهرا لم تلوثه عبادة الأصنام قطّ، فبادر إلى التصديق به فكان أوّل القوم إسلاما^{١٩٣}.

و كان اختيار النبي (صلى الله عليه و اله) لعلى صائبا و موقفا لما كان يملكه على (عليه السلام) من مؤهلات الطاعة و الاتقياد و القوة و الاندفاع فى الوقت الذى كان النبي (صلى الله عليه و اله) بأمسّ

ص: PAGE=٨٨:

الحاجه الى الناصر و المؤازر، فكان على (عليه السلام) يمثّل ذراع النبوة فى تبليغ الرسالة منذ انطلاقتها و العين الباصرة، و لسان الدعوة الناطق بها.

فأوّل من آمن على (عليه السلام) حيث كان يرافق النبي (صلى الله عليه و اله) فى خلواته فى حراء ثمّ خديجة و هما أوّل من صلى مع رسول الله (صلى الله عليه و اله) بعد أن كانا يوحّدان الله كالنبي (صلى الله عليه و اله) متحدّين قوى الشرك و الضلالة^{١٩٤}. ثم التحق بهم زيد بن حارثة فكانوا هم المجموعة الخيرة و النواة الأولى التى انفلق منها المجتمع الإسلامى.

٢- أدوار العصر المكي:

لقد مرّ تبليغ الرسالة الإسلامية على يدي النبي العظيم بثلاثة أدوار على الأقل حتى تهيأت الظروف لتأسيس أوّل دولة إسلامية مباركة و هى كما يلي:

١- دور إعداد القاعدة الأولى للرسالة الإسلامية. و اصطلاح البعض على هذا الدور بدور الخفاء أو دور الدعوة الخاصة.

٢- دور الدعوة المحدودة بالأقربين و الصراع المحدود مع الوثنية.

٣- دور الصراع الشامل.

^{١٩٣} (١) السيرة النبوية لابن هشام: 1/ 245 باب ان علي بن أبي طالب رضى الله عنه أوّل ذكر أسلم
^{١٩٤} (١) اسد الغابة: 4/ 18، حلية الأولياء: 1/ 66، شرح ابن أبي الحديد: 3/ 256، مستدرک الحاكم: 3/ 112.

٣- دور إعداد القاعدة الأولى:

تحرك النبي (صلى الله عليه و اله) داعيا إلى الإسلام بعد أن أمره الله تعالى بالقيام و الإنذار^{١٩٥} ساعيا لبناء كتلة إيمانية تكون بؤرة نور و إشعاع لهداية المجتمع و استمر الحال هكذا حوالي ثلاث سنين مسددا بالغيب معصوما من الزلل.

و كان التحرك الرسالي هذا محفوا بالمخاطر و الصعوبات و لكنه كان متقنا متكاملا.

ص: PAGE=٨٩:

و كان من اسلوب الرسول (صلى الله عليه و اله) في هذه المرحلة من الدعوة أن ينوع الاختيار من حيث الانتماء القبلي و الموقع الجغرافي و العمر لأتباعه ليوضح شمولية الرسالة و يضمن لها الانتشار في المجتمع الى أقصى ما يمكن؛ فاستجاب له- في بداية البعثة- المستضعفون و الفقراء إذ كانت الرسالة الإسلامية م نطلقا نحو التسامى و الحياة الكريمة و الأمان، كما استجاب له من الأشراف من كان ذا نفس طيبة و عقل منفتح و رغبة ففى السلوك النزيه.

و لم يتحسس جبابرة قريش خطورة الرسالة و حسبوا أن الأمر لا يعدو تكهنات و تأملات لها سوابق اندثرت؛ فلم يشددوا على محاربتهم للرسالة للقضاء عليها في مهدها.

و في هذا الوقت القصير استطاع الرسول (صلى الله عليه و اله) أن يصوغ من النفوس التي آمنت برسالته عناصر فعالة تحمل قيم الرسالة لتنتقل بها للناس، و هم أشد حرصا على إسلامهم و أكثر يقينا بإيمانهم مستنكرين بذلك ما كان عليه آباؤهم من شرك و خلق منحرف حتى تزايد الاستعداد لديهم لتحمل آثار الجهر بالرسالة.

و يروى أن النبي (صلى الله عليه و اله) و أصحابه- في هذه الفترة- كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا فرادى و مثنى، فبينما رجلان من المسلمين يصليان في بعض شعاب مكة اذ ظهر عليهما رجلان من المشركين- كانا فاحشين- فناكرهما و عابا عليهما ما يصنعان ثم تضاربوا، و انصرفا^{١٩٦}.

و يبدو تكرر مثل هذه المواجهة مع المشركين^{١٩٧}. من هنا استعان النبي (صلى الله عليه و اله) ببعض الدور للتخفي لممارسة العبادة و الاتصال المنتظم به (صلى الله عليه و اله) بعيدا

ص: PAGE=٩٠:

عن أنظار قريش فكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم^{١٩٨} خير ملجأ للمسلمين حينئذ.

٤- دور المواجهة الأولى و إنذار الأقربين:

^{١٩٥} (2) كما ورد في مطلع سورة المدثر.
^{١٩٦} (1) أنساب الأشراف: 1/ 117، السيرة الحلبية: 1/ 456.
^{١٩٧} (2) السيرة النبوية: 1/ 263 و 282.
^{١٩٨} (1) السيرة الحلبية: 1/ 283، اسد الغابة: 4/ 44.

و حين شاع خبر الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية و فى الوقت الذى بلغت فيه الفئة المؤمنة المستوى الروحى الذى يؤهلها لخوض الصراع كان لا بد من الانتقال الى مرحلة الاعلان العام و أول خطواته إنذار الأقرين فى مجتمع تسوده الاعتبارات القبلية فمن الأولى إنذارهم قبل إنذار الناس كافة، فكان نزول الأمر الإلهى : **وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**^{١٩٩}؛ من هنا دعا النبى (صلى الله عليه و اله) عشيرته الأقرين و أوضح لهم أمر الرسالة و هدفها و مستقبلها و كان فيهم من يرتجى خيره و يؤمل إيمانه. و لئن نهض أبو لهب معلنا المعادة و الكراهية فقد تبنى أبو طالب (عليه السلام) دعم النبى (صلى الله عليه و اله) و حماية رسالته.

و قد روى أنه ما إن نزلت الآء المباركة أمر النبى (صلى الله عليه و اله) عليا باعداد وليمة ثم دعا عشيرته و كانوا أربعين رجلا، و ما إن تأهب الرسول (صلى الله عليه و اله) للحديث حتى قاطعه عمه عبد العزى - المعروف بأبى لهب- و حذره من الاستمرار فى التبليغ و الإنذار، و حال دون تحقيق هدف الرسول فانفض المجلس. و لما كان من غد جدّد النبى (صلى الله عليه و اله) أمره لعلى و دعوته لعشيرته و بعد أن فرغوا من الطعام بادروهم (صلى الله عليه و اله) بقوله: «يا بنى عبد المطلب إني و الله ما أعلم شابا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به، إني جئتمكم بخير الدنيا و الآخرة و قد أمرنى الله عز و جل أن أدعوكم إليه فأيكم يؤمن بى و يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى و وصى و خليفتى فيكم؟» فسكنوا جميعا إلا على بن أبى طالب إذ نهض قائلا: «أنا يا رسول الله أكون

ص: ٩١=PAGE:

وزيرك على ما بعثك الله». فأمره رسول الله بالجلوس، و كرر الرسول (صلى الله عليه و اله) دعوته؛ فلم يجبه غير على (عليه السلام) مليبا الدعوة معلنا المؤازرة و النصر. و عندها التفت رسول الله (صلى الله عليه و اله) الى الحاضرين من عشيرته و قال: «إن هذا أخى و وصى و خليفتى فيكم (أو عليكم) فاسمعوا له و أطيعوا». فنهض القوم من مجلسهم و هم يخاطبون أبا طالب ساخرين: «قد أمرك أن تسمع لابنك و تطيع»^{٢٠٠}.

٥- دور المواجهة الشاملة

و رغم احتياطات النبى (صلى الله عليه و اله) فى المرحلة السابقة و تجنبه الدخول فى مواجهة مباشرة له أو لأحد من المسلمين مع قوى الشرك و الوثنية فإنه كان يتعرّض خلالها للنقد و اللوم اللاذع له و لبقية المسلمين.

و كان لدعوة بنى هاشم الى الدين الجديد الأثر البالغ و الذكر الشائع فى أوساط القبائل العربية فقد تبين لهم صدق و جدية النبوة التى أعلنها محمد (صلى الله عليه و اله) و آمن بها من آمن.

و بانقضاء السنوات الثلاث - أو الخمس - من بداية الدعوة نزل الأمر الإلهى بالصدع بالرسالة الإلهية و الإنذار العام ليخرج الأمر عن الاتصال الفردى الذى كان يتم بعيدا عن الأنظار، فيدعو الجميع الى رسالة الاسلام و الايمان بالله الواحد الأحد، و

^{١٩٩} (2) الشعراء(26): 214.

^{٢٠٠} (1) روى هذا الحديث فى مصادر عديدة و بألفاظ متقاربة فى: تاريخ الطبري: 2/ 404، السيرة الحلبية: 1/ 460، شرح نهج البلاغة: 13/ 210. و راجع أيضا: حياة محمد: 104، لمحمد حسين هيكل، الطبعة الأولى

قد وعد الله نبيه (صلى الله عليه و اله) بتسديد خطاه في مواجهة المستهزئين و المعاندين في قوله تعالى : **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**^{٢٠١}.

فتحرك النبي (صلى الله عليه و اله) صادعا بأمر الله بثقة مطلقة و عزيمة راسخة متحديا كل

ص: PAGE=٩٢:

قوى الشر و الشرك، و قام على الصفا و نادى قريشا من كل ناحية فأقبلوا نحوه فقال (صلى الله عليه و اله): «أرايتكم إن
أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني؟

قالوا: بلى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فنهض أبو لهب ليرد على رسول الله فقال: تبالك سائر هذا اليوم
ألهذا جمعتنا؟! - فأنزل الله تعالى: **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ**^{٢٠٢}.

لقد كان هذا إنذارا صارخا أفرع قريشا إذ أصبح تهديدا علنيا لكل معتقداتهم و تحذيرا من عاقبة مخالفتهم لأمر الرسول
(صلى الله عليه و اله) ... و اتضح أمر الدين الجديد لأهل مكة بل كل أطراف الجزيرة إذ أدركوا أن انقلابا حقيقيا سيحل
بمسيرة البشرية و يرفع من شأنها في القيم و الثقافة و المعايير و المواقع الاجتماعية وفق تعاليم السماء و ينسف الشر من
جذوره فكانت المواجهة مع قادة الشرك و الطغيان مواجهة حقيقية لا يمكن أن تنتهي إلى نقاط وفاق.

و خلال هذه الفترة دخل في الإسلام عدد من العرب و غير العرب حتى بلغوا أربعين رجلا، و لم تتمكن قريش من تحطيم
هذه النهضة الفتية إذ إن المؤمنين ينتمون إلى قبائل شتى، من هنا توسلت قريش بالمواجهة السلمية ابتداء.

و لكن أبا طالب ردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه (صلى الله عليه و اله)^{٢٠٣}.

ص: PAGE=٩٣:

الفصل الثالث موقف بني هاشم من النبي (صلى الله عليه و اله)

دفاع أبي طالب عن الرسول و الرسالة:

لم ينش رسول الله (صلى الله عليه و اله) عن الاستمرار في نشر الرسالة الإسلامية بل اتسع نشاطه و كثرت تحركاته و
تحركات أتباعه المؤمنين به و ازدادت جاذبية الدين الجديد في نظر الناس، و قد بدت قريش تظهر غيظها و تسعى لتجد
السبل لإيقاف هذا المد الجديد (الإسلام)، و القضاء عليه فعادت مساعيها عند أبي طالب مرة أخرى باذلة مغ رياتها تارة
لإقناع الرسول بالعدول عن دعوته و التراجع عن دينه و تارة أخرى بالتهديد و الوعيد فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا و
شرفا و منزلة فينا، و إنا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا و إنا و الله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا و تسفيه
أحلامنا و عيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله و إياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

^{٢٠١} (2) الحجر (15): 94-95.

^{٢٠٢} (1) المناقب: 46/1، تاريخ الطبري: 403/2.

^{٢٠٣} (2) سيرة ابن هشام: 264-265، تاريخ الطبري: 406/2.

و من جهته أدرك زعيم بنى هاشم فرار قريش الصارم و عدم تورعها عن سلوك كل السبل للقضاء على ابن أخيه و رسالته الفتيية فحاول تهدئة الموقف مرة ثانية و تسكين غضب قريش حتى يعالج الموقف مع ابن أخيه، و لكن رسول الله (صلى الله عليه و اله) أصر على مواصلة تبليغه للرسالة الإسلامية تنفيذا لأوامر الله مهما كانت الظروف و النتائج فقال (صلى الله عليه و اله): «يا عم و الله لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، ثم اغر و رقت عيناه

ص: ٩٤=PAGE:

الشريفتان بالدموع و قام ليذهب فتأثر أبو طالب لذلك و هو يعلم صدق ابن أخيه و يؤمن به فقال له : إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا.

و لم تفتر قريش عن غيها فمشت مرة أخرى إلى أبي طالب (عليه السلام) تطمعه بخذلان رسول الله (صلى الله عليه و اله) فتعطيه أجمل فتیان مكة بدل ابن أخيه ليسلمه أبو طالب إليهم فقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش و أجمله، فخذة فلك عقله و نصره، و اتخذة ولدا فهو لك، و أسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي فرق جماعة قومك، و سفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل، فردهم أبو طالب مستاء من هذه المساومة الظالمة فقال : هذا و الله لبئس ما تسومونى، أتعطونى إبنكم أغذوه لكم، و اعطيكم ابني تقتلون، هذا و الله ما لا يكون أبدا . فقال المطعم ابن عدى بن نوفل: و الله يا أبا طالب لقد أنصفتك قومك، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا، فأجابه أبو طالب قائلا : و الله ما أنصفونى و لكنك قد أجمعت خذلانى و مظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك^{٢٠٤}.

و بدأ أيقنت قريش بأنه لا سبيل لهم لإرضاء أبي طالب بخذلان رسول الله (صلى الله عليه و اله)، و سارع أبو طالب لاتخاذ تدابير احترازية ليضمن سلامة ابن أخيه و استمراره في نشر رسالته حين وجد الشر في نفوس قريش، فدعى بنى هاشم و بنى عبد المطلب لمنع رسول الله (صلى الله عليه و اله) و حفظه و القيام دونه، فاستجابوا له سوى أبي لهب، و أكبر أبو طالب موقف بنى هاشم فشحجهم و أثار فيهم العزيمة على الاستمرار في حماية النبي (صلى الله عليه و اله)^{٢٠٥}.

ص: ٩٥=PAGE:

موقف قريش من الرسالة و الرسول (صلى الله عليه و اله):

نزلت آيات كثيرة من القرآن الكريم خلال أربع سنوات من حركة الرسالة تضمنت بيان عظمة التوحيد و الدعوة إليه و الإعجاز البلاغى و الإنذار و الوعيد لمخالفيه فتناقلتها الألسن و حوتها قلوب المؤمنين و انجذب إليها القاصى و الدانى لاستماعها و استيعابها.

و لما كان للبلاغة أكبر الأثر في النفوس قررت قريش و هى تحاول احتواء حركة النبي (صلى الله عليه و اله) بوسائل متعددة أن تمنع النبي (صلى الله عليه و اله) من الاتصال بالجماهير و عرض دعوته عليهم أن لا يستمع القادم إلى مكة لما نزل من آيات القرآن، بعد أن فشلت في محاولة إغراء النبي (صلى الله عليه و اله) بالملك و السلطان عليهم و الأموال

^{٢٠٤} (1) تاريخ الطبري: 2/ 409، السيرة النبوية: 1/ 286.

^{٢٠٥} (2) تاريخ الطبري: 2/ 410، السيرة النبوية: 1/ 269.

الطائفة و الشرف و السؤدد. ثم أردفوا ذلك بتشكيكهم في صحة دعوته؛ زاعمين أن الذي يعترى النبيّ (صلى الله عليه و اله) إنما هو حالة مرضية يسعون لعلاجها، فأجابهم النبيّ (صلى الله عليه و اله) جواباً فيه كل الخير و الشرف و النجاة لهم فقال (صلى الله عليه و اله): كلمة واحدة تقولونها تدين لكم بها العرب و تؤدى اليكم بها العجم الجزية ... ففزعوا لكلمته و حسبوا أنها نهاية المطاف فقالوا: نعم و أبيض عشرين ... قال (صلى الله عليه و اله): لا إله إلا الله ... فكان الردّ مفاجئاً قوية خذلتهم فقاموا مستكبرين و هم يرددون: **أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ**^{٢٠٦}.

و عندها قرروا أن يلجأوا الى الإهانة و السخرية من النبيّ (صلى الله عليه و اله) و أتباعه الذين بدأوا يتزايدون كل يوم و تتعمق دعوته المباركة في النفوس فكان من أفعالهم قيام أبي لهب و زوجته أم جميل بطرح الشوك على باب بيت النبيّ (صلى الله عليه و اله)

ص: PAGE=٩٦:

اذ كان بيته يجاورهم^{٢٠٧}. و أخذ أبو جهل يتعرض للنبيّ (صلى الله عليه و اله) فيؤذيه بقوله الفاحش و لكن الله كان للظالمين بالمرصاد إذ ما كان من حمزة عم النبيّ (صلى الله عليه و اله) حين علم بذلك إلا أن ردّ على أبي جهل إهاتته أمام الملاء من قريش معلناً إسلامه و تحدّيه لجمعهم أن يردّوا عليه أو أن يتعرضوا ثانية للرسول (صلى الله عليه و اله)^{٢٠٨}.

الكفر يأبى الانصياع لصوت العقل:

تصورت قريش أنها بدعائها تستطيع أن تتنى النبيّ (صلى الله عليه و اله) عن رسالته، و قد بان لها استجابة الناس لدعوته المباركة. من هنا اقترح عتبة بن ربيعة - حين اجتمعت وجوه قريش - أن يذهب الى النبيّ (صلى الله عليه و اله) ليحدثه كي يكفّ عن دعوته، فمشى إليه و النبيّ (صلى الله عليه و اله) جالس - وحده - في المسجد، و امتدح النبيّ (صلى الله عليه و اله) و مكانته في قريش و عرض عليه عروضه و النبيّ (صلى الله عليه و اله) ينصت مستمعاً فقال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا و إن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، و إن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، و إن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ و بذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ... و لما أتم كلامه قال (صلى الله عليه و اله): أقدر فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال (صلى الله عليه و اله): فاسمع مني ثم تلا قوله تعالى: **حَمِّمْنَا نَزِيلًا مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَ نَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ**^{٢٠٩} و استمر النبيّ (صلى الله عليه و اله) يقرأ الآيات الكريمة فانبهر عتبة لما سمع و ألقى يديه خلف

ص: PAGE=٩٧:

ظهره معتمدا عليها. ثم سجد رسول الله عند آية السجدة. ثم قال (صلى الله عليه و اله): قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت و ذاك.

^{٢٠٦} (1) السيرة الحلبية: 1/ 303، تاريخ الطبري: 2/ 409.

^{٢٠٧} (1) السيرة النبوية: 1/ 380.

^{٢٠٨} (2) السيرة النبوية: 1/ 313، تاريخ الطبري: 2/ 416.

^{٢٠٩} (3) فصلت (41): 1-5.

فلم يجر عتبة جوابا و قام إلى قومه فلما جلس إليهم قال : إنى قد سمعت قولاً و الله ما سمعت مثله قط، و الله ما هو بالشعر و بالسحر و لا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعونى و اجعلوها بى، و خلّوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه فاعتزلوه».

و لكن أنى للقلوب الميتة أن تستجيب فقالوا: سحرك و الله يا أبا الوليد بلسانه قال: هذا رأبى فيه فاصنعوا ما بدا لكم^{٢١٠}.

الاتهام بالسحر:

أرادت قريش أن لا تختلف كلمتها و لا تفقد مكانتها فى محاربة الرسالة الإسلامية و فى نفس الوقت أن توقف سريان الرسالة الى نفوس الناس و موسم الحج على الأبواب فرأت أن تتخذ وسيلة تبدو فيها محافظتها على مكانتها الوثنية و إضعاف دور الرسول و مكانته فاجتمعوا الى الوليد بن المغيرة لكبر سنّه و سعة معرفته لاتخاذ قرار بذلك فاختلفت أقوالهم بين أن يدّعوا أنّه كاهن أو مجنون أو شاعر أو مريض تعتريه الوسوسة أو ساحر، ثم أرجعوا القول للوليد فقال : و اللع إنّ لقوله لحلاوة و إن أصله لعذق و إن فرعه لجناء و ما أنتم بقائلين فى هذا شيئاً إلّا عرف أنّه باطل و إن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء و أبيه و بين المرء و أخيه و بين المرء و زوجته، فتنفّروا يندسّون بين الناس يبتّون شائعهم الخبيثة^{٢١١}.

ص: ٩٨=PAGE:

التعذيب وسيلة لقمع المؤمنين:

لقد عجزت قوى الكفر و الشرك أن تتنى الرسول (صلى الله عليه و اله) و أصحاب الحق عن الاستمرار فى نشر الرسالة الإسلامية، مثلما عجزت عقولهم عن إدراك التوحيد و الإيمان، و راحت كل جهودهم لإيقاف الرسالة أو تشويهها سدى فلم يجدوا بداً من اتخاذ العنف و القسوة و التعذيب وسيلة لمحاربة أصحاب العقيدة فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم و يعذبونهم بالضرب و فرض الجوع و العطش عليهم، محاولين أن يفتنوهم عن دينهم و رسالة ربّهم.

فهذا أمية بن خلف يخرج بلا لا إلى رمضاء مكة إذا حميت الظهيرة ليمارس تعذيبه بأشع صورة، و هذا عمر بن الخطاب يعذب جارية له - لإسلامها- ضرباً حتى إذا عجز قال : إنى أعتذر إليك، إنى لم أتركك إلّا ملالة، و هذه بنو مخزوم يخرجون عمّارا و أباه و أمه يعذبونهم فى رمضاء مكة فيمرّ بهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) فيقول: «صبرا آل ياسر موعدكم الجنة»، حتى بلغ من تعذيبهم أن استشهدت سمية أم عمار^{٢١٢} على أيديهم فكانت أول شهيدة فى الاسلام.

و إذا حاولنا أن نرسم صورة عامّة لأساليب مواجهة قريش للرسالة و الرسول و أتباعه فنستطيع أن نلخص مراحل المواجهة فى ما يلى:

١- كان الاستهزاء و السخرية بشخصية النبىّ (صلى الله عليه و اله) و إضعاف مكانته فى نفوس الناس من أبسط الأساليب. و قد مارس هذا الدور الوليد بن المغيرة (والد خالد)، و عقبه بن أبى معيط، و الحكم بن العاص بن أمية، و أبو جهل.

^{٢١٠} (1) راجع السيرة النبوية: 293 / 1.

^{٢١١} (2) السيرة النبوية: 289 / 1.

^{٢١٢} (1) السيرة النبوية: 320 - 317 / 1.

و لكن التسديد الإلهي أحبط كل مساعيهم فقد قال القرآن الكريم:

ص: PAGE=٩٩:

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ^{٢١٣}، وَ لَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^{٢١٤}.

٢- إهانة النبي (صلى الله عليه و اله) شخصيا لإضعافه. فقد روى أنهم ألقوا الفرث و السلى عليه (صلى الله عليه و اله)، فغضب عمه أبو طالب حين علم بذلك و رد الإهانة عليهم، و يعتبر موقف أبي جهل و رد حمزة بن عبد المطلب عليه شاهدا آخر.

٣- محاولات الإغراء بالملك و السيادة و بذل الأموال الطائلة.

٤- الاتهامات الباطلة: بالكذب و السحر و الجنون و الشعر و الكهانة. و قد تحدث القرآن عن كل ذلك.

٥- الطعن فى القرآن الكريم، فقد اتهموا النبي (صلى الله عليه و اله) بتقوله و افتراءه على الله فتحداهم القرآن بأن يأتوا بمثله. على أن النبي كان قد أمضى عمرا بينهم لم يعرف بما اتهموه به.

٦- استخدام التعذيب و قتل المؤمنين برسالته.

٧- الحصار و المقاطعة الشاملة.

٨- التخطيط لقتل صاحب الرسالة^{٢١٥}.

و قد تصدى النبي (صلى الله عليه و اله) لكل هذه الأساليب بما يحقق للرسالة أهدافها مسددا بالوحي الذى كان يرعى حركة الرسول (صلى الله عليه و اله) خير رعاية.

ص: PAGE=١٠٠:

الهجرة الى الحبشة و إيجاد قاعدة آمنة:

لقد أدرك رسول الله (صلى الله عليه و اله) بعد عامين من الجهر بالرسالة أن لا قدرة له على حماية المسلمين من العناء الذى يصيبهم من طغاة قريش و زعماء الوثنية.

و حيث اشتد العنف من المشركين و صناديدهم تجاه المستضعفين من المسلمين حث رسول الله (صلى الله عليه و اله) المسلمين المضطهدين على الهجرة إلى الحبشة ليعطيهم بذلك فترة استراحة و استعادة نشاط ليعودوا ثانية لمواصلة مسيرة الرسالة الإسلامية أو يفتحوا جبهة جديدة للصراع مع قريش بعد أن يحدثوا م ركزا للضغط من خارج الجزيرة على مواقع

^{٢١٣} (1) الحجر (15): 95.

^{٢١٤} (2) الأنعام (6): 10.

^{٢١٥} (3) الأنفال (8): 30.

قريش و عسى الله أن يحدث - خلال ذلك - أمرا كان مفعولا إذ أخبرهم (صلى الله عليه و اله) «أن في الحبشة ملكا لا يظلم عنده أحد» فاستجاب المسلمون لذلك و تسلل عدد منهم صوب الساحل فعبروا البحر غير أن قريشا لاحقتهم و لكن لم يدركهم طلبها و تتابع المهاجرون منفردين أو مع أهلهم، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة بضعة و ثمانين مهاجرا عدا أبنائهم الصغار و أمر رسول الله (صلى الله عليه و اله) عليهم جعفر بن أبي طالب^{٢١٦}.

لقد كان اختيار الحبشة دارا للهجرة خطوة موفقة من خطوات الرسول القيادية نظرا للصفة التي وصف بها ملكها في الحديث المروى عن النبي (صلى الله عليه و اله)، و تيسر السفر إليها بالسفن، فضلا عن العلاقات المذهبية الطيبة التي أَرادها الإسلام أن تكون بين الإسلام و النصرانية.

و قد أقلق قريشا أمر الهجرة إلى الحبشة فخشيت العاقبة و ساءها أن يأم ن حملة الرسالة الإسلامية هناك، فأرسلت عمرو بن العاص و عمارة بن الوليد إلى

ص:١٠١=PAGEص:

النجاشي و حملتهما الهدايا في محاولة منها لإقناع النجاشي بالتخلي عن جوارهم و إعادتهم إليها، و استطاعا أن ينفذا إلى بطارقة الملك و إقناعهم بضرورة مساعدتهم لاسترداد المسلمين، لكن الملك أبى ذلك إلّا بعد أن يسمع رأى المسلمين في التهمة الموجهة إليهم بأنهم قد ابتدعوا دينا جديدا لهم.

و شملت العناية الإلهية ذلك اللقاء، فقد انبرى جعفر بن أبي طالب ليجيب بكلام رائع ينفذ إلى قلب النجاشي عن ماهية الدين الجديد فيزداد اقتناعه بحمايتهم . و كانت كلمات جعفر بن أبي طالب كالصاعقة على رؤوس الوفد القرشي الذي لم تنفعه هداياه لإنجاح خطته الشيطانية، و أصبحوا في موقف الدليل أمام النجاشي في الوقت الذي سطع فيه نجم المسلمين و قويت حججهم مما دلّ على عظيم أثر التربية التي كان قد بذلها رسول الله (صلى الله عليه و اله) للنهوض بالإنسان في الفكر و المعتقد و السلوك، فلم يهتز المسلمون ثانية عند ما حاول وفد قريش أن يثير فتنة عن ما جاء به القرآن حول عيسى (عليه السلام)، و لكن النجاشي قال للمسلمين:

أذهبوا فأنتم آمنون، عند ما سمع آيات الله يرددها جعفر بن أبي طالب ردّا على سؤاله^{٢١٧}.

عندها أيقنت قريش بفشل مساعيها لاسترداد المسلمين حين عاد إليها وفدها خائبًا، و قرّر زعماءها أن يضيّقوا على من عندهم من المسلمين بالمأكل و المشرب و أن يحظروا كل أنواع التعامل الاجتماعي معهم حيث لم يتخلّ أبو طالب و بنو هاشم عن نصره النبي (صلى الله عليه و اله) و دعمه الشامل.

ص:١٠٢=PAGEص:

الحصار الظالم و موقف بني هاشم:

^{٢١٦} (1) السيرة النبوية: 321 / 1، تاريخ يعقوبي: 29 / 2، بحار الأنوار: 412 / 18.
^{٢١٧} (1) السيرة النبوية: 335 / 1، تاريخ يعقوبي: 29 / 2.

و لما لم يستجب أبو طالب لقريش، وأصرَّ على حماية الرسول (صلى الله عليه و اله) مهما كان الثمن، كتبت قريش صحيفتها الظالمة^{٢١٨} بالمقاطعة الشاملة في البيع و الشراء و المخالطة و الزواج.

و وقعت الصحيفة من قبل أربعين زعيما من زعماء قريش.

و عمد أبو طالب إلى الشعب مع ابن أخيه و بنى هاشم و بنى المطلب حيث كان أمرهم واحدا. و قال: نموت من عند آخرنا قبل أن يوصل إلى رسول الله (صلى الله عليه و اله)، و خرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بنى المطلب، و دخل الشعب من كان من هؤلاء مؤمنا كان أو كافرا^{٢١٩}.

و كان لا يصل إلى المسلمين خلالها شيء إلا سراً، يحملهم إليهم مستخفيا من أراد مساعدتهم من قريش بدافع من عصبية أو نخوة أو عطف.

و بعد أن مضت على المقاطعة ثلاث سنين و قاسى خلالها المسلمون و النبي الأكرم (صلى الله عليه و اله) آلاما قاسية من الجوع و العزلة و الحرب النفسية، أرسل الله دودة الأرضة على صحيفتهم المعلقة في جوف الكعبة فأكلتها جميعا غير كلمة «باسمك اللهم».

و أنبأ الله رسوله (صلى الله عليه و اله) فأخبر عمه أبا طالب بالأمر فخرج مع النبي (صلى الله عليه و اله) إلى المسجد الحرام فاستقبله و جهاء قريش ظنا منهم بأن الاستسلام يقودهم الى التخلّي عن موقفهم من الرسالة فقال لهم أبو طالب : إن ابن أخى أخبرنى بأن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فأكلتها غير اسم الله، فإن كان صادقا نزعتم عن سوء

ص:١٠٣=PAGEص:

رأيكم و إن كان كاذبا دفعته إليكم ... قالوا: قد أنصفتنا، ففتحوها، فوجدوا الأمر كما قال رسول الله (صلى الله عليه و اله) فنكسوا رؤوسهم حياء و خجلا لما حل بهم^{٢٢٠}.

و روى أيضا أن بعض رجال قريش و شبابها ساءهم أمر القطيعة و معاناة بنى هاشم من المتاعب و الشدائد فى الشعب فتعاقدوا فيما بينهم لتمزيق الصحيفة و إنهاء المقاطعة و واجهوا المتعنتين منهم، ففتحو الصحيفة فوجدوا حشرة الأرضة قد أكلتها^{٢٢١}.

و مهما كان فإن قريشا قد أخزأها الله مرة اخرى و لكنها لم ترتدع عن عداوتها للرسول و الرسالة.

عام الحزن:

و فى السنة العاشرة من البعثة خرج المسلمون من الحصار و هم أصلب عودا و أغنى تجربة و أكثر قدرة على التحرك صوب الهدف الذى آلا على أنفسهم أن لا يتخلوا عنه رغم كل الصعاب . و كان من أثر الحصار أن اشتهر ذكر الإسلام و

^{٢١٨} (1) جاء فى أعيان الشيعة، ان الصحيفة الظالمة كتبت فى غرة محرم من السنة السابعة للبعثة

^{٢١٩} (2) السيرة النبوية: 1/ 350، أعيان الشيعة: 1/ 235.

^{٢٢٠} (1) تاريخ يعقوبي: 2/ 21، طبقات ابن سعد: 1/ 173، السيرة النبوية: 1/ 377.

^{٢٢١} (2) السيرة النبوية: 1/ 375، تاريخ الطبري: 2/ 423.

المسلمين و انتشر في كل أرجاء الجزيرة العربية و كانت أمام رسول الله (صلى الله عليه و اله) مهام صعبة، منها: الانفتاح بصورة أوسع خارج نطاق مكة، و محاولة إيجاد أكثر من مكان آمن تتحرك من خلاله الرسالة الإسلامية.

و لكن الرسالة الإسلامية تعرضت لأخطر محنة في مسيرتها في مكة عند ما توفي أبو طالب، سندها الاجت ماعى الأول و المدافع القوى عن الرسول و الرسالة، و بعده بأيام توفيت أم المؤمنين خديجة ثانی سندی الرسول (صلى الله عليه و اله). و لشدة تأثير

ص: PAGE=١٠٤:

الحادثتين في مسيرة الرسالة الإسلامية سمى رسول الله (صلى الله عليه و اله) ذلك العام ب «عام الحزن»، و صرح قائلا: «ما زالت قريش كاعّة عنى حتى مات أبو طالب»^{٢٢٢}.

و من جرأة قريش على النبي (صلى الله عليه و اله) عند ذاك أن قام أحدهم و نثر التراب على رأسه الشريف و هو ماراً إلى بيته. فقامت إليه ابنته فاطمة (عليها السلام) لتنفض التراب عنه و هى تبكى فقال لها (صلى الله عليه و اله): «يا بنية لا تبكى فإن الله مانع أباك»^{٢٢٣}.

الاسراء و المعراج:

و فى هذه الفترة كانت حادثة الإسراء و المعراج تثبيتاً للرسول (صلى الله عليه و اله) على طريق المقاومة الطويل، و تكريماً له فى أعقاب سنين طويلة من العمل و الصمود، و تتويجا لهذه المصاعب و الآلام المريرة مع قوى الشرك و الضلالة، رفعه الله الى قلب السموات، ليريه جوانب من عظمة ملكه الباهرة فى الكون الشاسع و ليطلع على أسرار الخليقة و مصير الإنسان الصالح و الطالح.

و فى الوقت نفسه كانت بمثابة امتحان لقدرات اصحابه على تصور المدى الذى يك افحون فيه مع رسولهم و قائدهم من أجل إبلاغ الرسالة و بناء الإنسان الصالح، و إبتلاء صعباً لأصحاب النفوس الضعيفة.

و لم تستطع قريش المشركة أن تدرك المعانى السامية فى أمر الإسراء فما حدثهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) عن ذلك حتى راحوا يسألون عن الصورة المادية من أمر الإسراء و إمكانية تحققها و الأدلة على ذلك - فقال بعضهم: و الله إن العير لتطرد شهرا من مكة الى الشام مدبرة و شهرا مقبلة، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة

ص: PAGE=١٠٥:

و يرجع؟! و وصف لهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) المسجد الأقصى و صفاً دقيقاً، و ذكر لهم أنه مر بقافلة و هم يطلبون بعيراً قد ضلّ لهم، و فى رحلهم قعب ماء كان مكشوفاً و قد غطاه كما كان.

^{٢٢٢} (1) كشف الغمة: 1/ 61، مستدرك الحاكم: 2/ 622، وكأعة بمعنى وكغ عنه إذ اهابه و جين عنه.
^{٢٢٣} (2) السيرة النبوية: 1/ 416، تاريخ الطبري: 2/ 426.

و سألوه عن قافلة أخرى فقال : مررت بها بالتنعيم، و بين لهم أحوالها و هيئاتها و قال : يقدمها بعير بصفة كذا و سيطلع عليكم عند طلوع الشمس. فجاء كل ما قاله صحيحا كما أخبر به^{٢٢٤}.

ص:١٠٧=PAGE:

الفصل الرابع سنوات الانفراج حتى الهجرة

الطائف ترفض الرسالة الإسلامية^{٢٢٥}:

أدرك رسول الله (صلى الله عليه و اله) أن أذى قريش سيزداد، و أن خطط المشركين و مساعيهم للقضاء على الرسالة لن تتوقف، فقد زال غطاؤها الأمنى بوفاء أبي طالب و لا بد للرسالة الإسلامية أن تفتتح على جبهة أوسع . و فى الوقت الذى استطاع فيه رسول الله أن يبنى الإنسان الرسالى سعى لتهيئة قاعدة تتضح فيها معالم الاستقرار و النظام فى محيط يمارس فيه الفرد حياته و علاقاته مع ربه و الناس و لينطلق بعد ذلك إلى بناء الحضارة الإسلامية الإنسانية وفق تعاليم السماء، فوقع اختياره على الطائف حيث تقطن ثقيف كبرى القبائل العربية بعد قريش . و لما انتهى إليها وحده أو بمرافقة زيد بن حارثة أو بمرافقة زيد و على^{٢٢٦}، عمد إلى نفر من ثقيف و هم يومئذ سادتها و أشرفها، فجلس إليهم و دعاهم إلى الله، و عرض عليهم المهمة التى جاء من أجلها و هى أن ينصروه فى دعوته و يمنعوه من قومه فلم يعابوا لدعوته وردوا عليه ساخرين فقال أحدهم: إننى أمزق ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، و قال آخر : و الله لا أكلمك أبدا و لئن كنت رسولا من الله كما تقول

ص:١٠٨=PAGE:

لأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام و لئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك . و ردّ الآخر قائلا: أعجز على الله أن يرسل غيرك؟!^{٢٢٧}.

بعد هذا الرد الجاف و العنيف قام (صلى الله عليه و اله) من عندهم بعد أن طلب منهم أن يكتموا ما جرى بينه و بينهم؛ إذ كره أن يبلغ قريش ذلك فيجرّتهم عليه، لكن زعماء ثقيف لم يستجيبوا لطلبه و أغروا به سفهاءهم و عبيدهم فأخذوا يسبّونه و يصيحون به، و يرمونه بالحجارة، فلم يكن يرفع قدما و يضع أخرى إلّا على الحجارة حتى اجتمع عليه الناس و ألجأوه إلى بستان لعنتبة و شبيبة ابني ربيعة، و كانا هناك فتفرق عنه سفهاء الطائف، و قدماه تنزفان دما، فعمد إلى ظل كرمه و نادى ربّه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، و قلة حيلتى، و هوانى على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين و أنت ربّى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب على فلا ابالى و لكن عافيتك هى أوسع لى».

و لم يلق رسول الله (صلى الله عليه و اله) إلّا التفاتة عطف من رجل نصرانى ضعيف وجد فى رسول الله ملامح النبوة^{٢٢٨}.

^{٢٢٤} (1) السير النبوية: 396 / 1.

^{٢٢٥} (1) كان خروج (صلى الله عليه و اله) إلى الطائف لليل بقين من شوال سنة عشرة من البعثة.

^{٢٢٦} (2) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 127 / 4 و 97 / 14.

^{٢٢٧} (1) السيرة النبوية: 420 / 1، بحار الأنوار: 6 / 19 و 7 و 22، إعلام الورى: 133 / 1.

^{٢٢٨} (2) الطبري: 426 / 2، أنساب الأشراف: 227 / 1، تاريخ يعقوبي: 36 / 2 السيرة النبوية: 420 / 1.

و حين انصرف رسول الله من الطائف راجعا الى مكة بعد أن يؤس من خير تقيف كان محزونا حيث لم يستجب له أ حد فنزل نخله (بين مكة و الطائف). و فى جوف الليل و حين كان يصلى مرّ به نفر من الجن و استمعوا للقرآن فلما فرغ من صلاته و لّوا الى قومهم منذرين بعد أن آمنوا به و أجابوا الى ما سمعوا، و قصّ الله خبرهم عليه قائلا: **وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:**

وَ يُجْرِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ^{٢٢٩}.

ص: PAGE=١٠٩:

الافتتاح على الرسالة و معوّقاتها فى مكة:

لقد كانت حركة الرسول (صلى الله عليه و اله) جهادا رساليا متكاملا، و كان منطقته و سلوكه و خلقه يحاكي الفطرة السليمة و الأخلاق السامية، يناشد الحق فى النفوس ليحييها و يدعو إلى الفضيلة لتنعم البشرية بها و لهذا لم يبأس الرسول (صلى الله عليه و اله) رغم اضطهاد قريش و قسوتها معه و صد الطائف و جفوتها، إذ كان يتحرك بين الناس و يدعو الجميع إلى دين الله و لا سيّما فى مواسم العمرة و الحج حيث تتوفر فيها فرص تبليغية عظيمة فكان (صلى الله عليه و اله) يقف على منازل القبائل من العرب و يقول : «يا بنى فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تتعبدوا إليه و لا تشركوا به شيئا و أن تؤمنوا بى و تصدقونى و تمنعونى حتى ابين عن الله ما بعثنى به»^{٢٣٠}.

و كرّر رسول الله (صلى الله عليه و اله) مساعيه بالتحرك على عدة قبائل غير آبه بما يلاقى من ردّ قاس أو اعتذار جميل . على أن بعضهم وجد فى الانتماء إلى الإسلام مشروعا سياسيا لبلوغ السلطان فحاول أن يساوم و لكن رسول الله (صلى الله عليه و اله) ردهم بلسان لا يعرف المساومة و التخاذل و لم يرد انتهاز الفرص على حساب المبادئ فقال (صلى الله عليه و اله): «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»^{٢٣١}.

و فى أثناء ذلك ربما مشى «أبو لهب» خلف النبي (صلى الله عليه و اله) يثبّط الناس عن متابعتة فيقول : يا بنى فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات و العزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة و الضلالة فلا تطيعوه و لا تسمعوا منه^{٢٣٢}.

ص: PAGE=١١٠:

و فى جانب آخر تقوم أم جميل فى وسط النساء فتسخر من النبي (صلى الله عليه و اله) و دعوته المباركة لتمنع النساء من متابعتة.

و لم يتيسر للرهبى (صلى الله عليه و اله) أن يقنع القبائل بالرسالة الإسلامية إذ أن قريشا كانت تتمتع بالمكانة الدينية من بين القبائل الاخرى لما كانت تقوم به من سدانة البيت الحرام كما أنّها كانت تدير مركزا تجاريا و اقتصاديا مهما فى الجزيرة

^{٢٢٩} (3) تاريخ الطبري: 2/ 346، و سيرة ابن هشام: 2/ 63، و الطبقات: 1/ 312. راجع سورة الأحقاف: 29- 31.

^{٢٣٠} (1) السيرة النبوية: 1/ 423، تأريخ الطبري: 2/ 429، أنساب الأشراف: 1/ 237.

^{٢٣١} (2) السيرة النبوية: 1/ 424، تأريخ الطبري: 2/ 431.

^{٢٣٢} (3) السيرة النبوية: 1/ 423، تاريخ الطبري: 2/ 430.

العربية و كانت لقريش أيضا شبكات م ن العلاقات و الأحلاف مع ما كان يحيط بها من القبائل الأخرى التي كان النبي (صلى الله عليه و اله) قد عرض عليهم دعوته، فكان من الصعب كسر كل تلك القيود و إلغاء هيمنة قريش فكان تردد الناس فى قبول الرسالة الاسلامية واضحا، و خشيت قريش رغم ذلك من تحرك النبي (صلى الله عليه و اله) و قوة دعوته فالتجأت إلى اسلوب مبرمج يمكن أن تقبله العقول الوثنية فاتفقوا على دعاية ينشرونها بين الناس فقالوا : إنه ساحر فى بيانه يفرق بين المرء و وزوجه و بين الإنسان و أخيه . و لم تفلح قريش فى مسعاها حين كانت تتكشف عظمة الرسول و الرسالة لكل من يلتقى بالنبي (صلى الله عليه و اله)^{٢٣٣}.

بيعة العقبة الاولى:

كان النبي (صلى الله عليه و اله) لا يدخر وسعا و لا يتوانى فى السعى لنشر الرسالة الإسلامية و دعوة أى عنصر يرى فيه الأمل و الخير أو يجد فيه التأثير و النفوذ ممن كان يقدم الى مكة لحاجة ما . و قد كانت مدينة يثرب تعيش صراعا سياسيا و عسكريا بين أقوى قطين فيها و هما الأوس و الخزرج، و كان يؤجج هذا الصراع عناصر من اليهود- بخبثهم و دسائسهم- فى جو من ضياع القانون الإلهي.

و التقى النبي (صلى الله عليه و اله) مع بعض شخصيات يثرب ممن جاء يبحث عن

ص: PAGE=١١١:

تحالف يزيد قوته، فما برحوا حتى تغلغل أثر الرسالة و صدق النبوة فى نفوسهم، ففى إحدى اللقاءات تحدث النبي (صلى الله عليه و اله) الى جماعة من بنى عفراء- و هم ينتسبون إلى الخزرج- فعرض عليهم الإسلام و تلا عليهم شيئا من القرآن، فوجد فى عيونهم التجاوب و فى قلوبهم اللفتة لسماع المزيد من الآيات ... و أكدوا من حديث النبي (صلى الله عليه و اله) أنه هو النبي الذى يقصده اليهود حينما كانوا يتوعدون به المشركين فى يثرب كلما وقع شر بينهم فيقولون لهم : إن نبيا قد بعث الآن و قد أطل زمانه و سنتبعه و نقتلكم قتل عاد و إرم^{٢٣٤}.

فأعلنوا فى الحال إسلامهم و كانوا ستة أشخاص و قالوا للنبي (صلى الله عليه و اله): إنا قد تركنا قومنا و لا قوم بينهم من العداوة و الشر مثل ما بينهم و عسى الله أن يجمعهم بك و سنقدم عليهم و ندعوهم إلى أمرك و إلى الدين الذى أجبناك عليه.

ثم انصرفوا را جعين إلى يثرب و شرعوا يتحدثون عن النبي (صلى الله عليه و اله) و الرسالة و الأمل القادم لبناء حياة يسودها الأمن و السعادة، حتى فشا أمر الرسالة الإسلامية بينهم و لم يبق دار من دور يثرب إلّا و فيها ذكر لرسول الله (صلى الله عليه و اله)^{٢٣٥}.

و ما أسرع ما انقضت الأيام فلما كان موسم الحج للعام الحادى عشر من البعثة النبوية قدم وفد من أوس يثرب و خزرجها- و هم اثنا عشر رجلا- من بينهم الستة الذين أسلموا من قبل و التقوا برسول الله (صلى الله عليه و اله) سرا فى

^{٢٣٣} (1) السيرة النبوية: 270 / 1.

^{٢٣٤} (1) السيرة النبوية: 428 / 1، بحار الأنوار: 25 / 19.

^{٢٣٥} (2) تاريخ يعقوبي: 37- 38، السيرة النبوية: 429 / 1، بحار الأنوار: 23 / 19.

العقبة- وهى المنفذ الذى يجتازه القادمون من يثرب صوب مكة- و أعلنوا هذه المرة بيعتهم للنبيّ (صلى الله عليه و اله) على أن لا يشركوا بالله شيئا، و لا يسرقوا، و لا يزنوا، و لا يقتلوا أولادهم و لا يأتوا بيهتان يفترونه بين أيديهم و أرجلهم و لا يعصوه فى

ص:PAGE=١١٢ص:

معروف^{٢٣٦}.

و لم يشأ النبي (صلى الله عليه و اله) أن يحملهم أكثر من ذلك، و أرسل معهم الشاب المسلم مصعب بن عمير إلى يثرب لكى يتولى شؤون التبليغ و التنقيف العقائدى بينهم، و بدأ تمت بيعة العقبة الاولى.

بيعة العقبة الثانية:

تحرك مصعب بين أزقة يثرب و فى مجتمعاتها يتلو آيات الله و يحرك الأفتدة و العقول بالقرآن حتى آمن بالرسالة الإسلامية عدد كبير من الناس.

و قد أحدث الإسلام فى النفوس شوقا كبيرا للقاء النبي (صلى الله عليه و اله) و التزود من معينه و الطلب الجاد بالهجرة إليهم.

و عند ما اقترب موسم الحج من السنة الثانية عشرة من البعثة خرجت وفود الحجيج من يثرب و م عها وفد المسلمين البالغ ثلاثا و سبعين رجلا و امرأتين فواعدهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) أن يلتقى بهم عند العقبة- جوف الليل فى أواسط أيام التشريق- و كنتم مسلمو يثرب أمرهم.

و ما إن مضى من الليل ثلثه و فى غفلة عن العيون حتى تسلل المسلمون من أخبيبتهم و اجتمعوا فى انتظار رسول الله (صلى الله عليه و اله) فجاء و معه بعض أهل بيته فبدأ الاجتماع و تكلم القوم، ثم تحدث رسول الله (صلى الله عليه و اله) فتلا شيئا من القرآن و دعا إلى الله و رغب فى الإسلام.

و تمت البيعة هذه المرأة صريحة واضحة مكتملة على كل جوانب الاسلام و أحكامه و فى السلم و الحرب معا. فقال (صلى الله عليه و اله): ابايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم و أبناءكم. فقاموا و بايعوا رسول الله (صلى الله عليه و اله).

ص:PAGE=١١٣ص:

و ظهر شعور بالقلق من جانب مسلمي يثرب فقال أبو الهيثم ابن التيهان: يا رسول الله إن بيننا و بين الرجال- يعنى اليهود- حبالا و إنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك و تدعنا؟ فتبسم الرسول (صلى الله عليه و اله) و قال: بل الدم الدم و الهدم الهدم احارب من حاربتهم و اسالم من سالمتم^{٢٣٧}.

^{٢٣٦} (1) السيرة النبوية: 433 /1، تاريخ الطبري: 436 /2.

فإن رسول الله (صلى الله عليه و اله) قال: أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه و اله): أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم و أنا كفيل على قومي^{٢٣٨}.

و بالإرشاد الحكيم و الاستخدام الحصيف لكل الإمكانيات و بالوعي السياسي العميق خطا الرسول (صلى الله عليه و اله) بالرسالة نحو الأمام يسدده الوحي الإلهي في كل ذلك، و أذن (صلى الله عليه و اله) للمبايعين أن يعودوا إلى رحالهم من دون أن يواجهوا المشركين بالقوة فلم يأذن الله بالقتال.

و أدركت قريش بوادر الخطر المحدق بها من نصره مسلمي يثرب للنبي (صلى الله عليه و اله) فأقبلوا و الشر و الغضب يتملكانهم كي يحولوا بين النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمين لكن حمزة و عليا (عليهما السلام) كانا بوابة الأمان لاجتماع العقبة فرجعت قريش خائبة منكسرة^{٢٣٩}.

ص:١١٤=PAGEص:

الاستعداد للهجرة الى يثرب:

انتبهت قريش و خرجت من غفلتها فقد انفتح باب الرجاء في الغلبة، في وجه المسلمين فراحت تزيد من استخدام القسوة و التنكيل و الاضطهاد للمسلمين في محاولة منها للقضاء عليهم قبل استفحال الأمر، فشكا المسلمون ذلك لرسول الله (صلى الله عليه و اله) و استأذنه للخروج من مكة فاستمهلهم أياماً ثم قال: «لقد أخبرت بدار هجرتكم و هي يثرب فمن أراد الخروج فليخرج إليها^{٢٤٠}. و في رواية اخرى: «إن الله قد جعل لكم داراً تأمنون بها و إخواناً»^{٢٤١}.

و شرع بعض المسلمين يخرجون من مكة إلى يثرب سراً كي لا يثيروا هواجس قريش، و بدأت طرقات مكة و بيوتها و نواديها تشهد يوماً بعد يوماً غياباً مستمراً لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه و اله). أمّا هو فكان ينتظر الأمر الإلهي بالهجرة و ليضمن سلامة و دقة هجرة المسلم ين. و أدركت قريش هدف النبي (صلى الله عليه و اله) و خطته فسعت إلى منع المسلمين من الخروج من مكة و لحقت بالمهاجرين مستخدمة أساليب الإغراء و التعذيب لإعادتهم إلى مكة.

و كانت قريش حريصة في أن يبقى الأمن سائداً في مكة مما جعلها تخشى عواقب قتل المهاجرين خشية وقوع الحرب بينها و بينهم فاكثفت بالتعذيب و الحبس للمسلمين.

نعم كانت قريش تحسب ألف حساب لخروج رسول الله (صلى الله عليه و اله) إلى يثرب فقد أصبح للمسلمين اليد العليا هناك فإذا لحق بهم النبي (صلى الله عليه و اله) و هو المعروف بالثبات و حسن الرأي و التدبير و القوة و الشجاعة حينئذ سوف تحل الكارثة

ص:١١٥=PAGEص:

^{٢٣٧} (1) السيرة النبوية: 438 / 1، تأريخ الطبري: 441 / 2، مناقب آل أبي طالب: 181 / 1

^{٢٣٨} (2) تأريخ الطبري: 442 / 2، السيرة النبوية: 443 / 1، المناقب: 182 / 1.

^{٢٣٩} (3) تفسير القمي: 272 / 1.

^{٢٤٠} (1) الطبقات الكبرى: 226 / 1.

^{٢٤١} (2) مناقب آل أبي طالب: 182 / 1، السيرة النبوية: 468 / 1.

بالمشركين عامة وبقريش بشكل خاص.

و سارع رؤساء قريش لعقد اجتماع لهم في دار الندوة للبحث عن حلّ يواجهون به الخطر المحقق بهم فتعددت الآراء و تضاربت و كان من بين الحلول المقترحة حبسه و تكبيله بالأغلال أو ن فيه بعيدا عن مكة في منقطع الصحراء، و لكن رأيا بقتله و تفريق دمه بين القبائل - لتعجز بنو هاشم عن المطالبة بدمه - هو الذي حاز الموافقة و الإعجاب^{٢٤٢}، فإنهم إن قتلوا الرسول (صلى الله عليه و اله) فقد قضاوا على الرسالة الإسلامية و هي في مهدها.

و جاء الأمر الإلهي تأمر رسول الله (صلى الله عليه و اله) بالتحرك و الهجرة الى يثرب و كانت تلك الإشارة التي ينتظرها الرسول (صلى الله عليه و اله) بشوق بالغ ليحطّ قدمه على أرض يتمكن فيها من بناء دولة على أعمدة التقوى و تعاليم السماء و إنشاء المجتمع الإنساني الصالح.

و بعد أن دبر المشركون خطّتهم و أحكموها نزل أمين الوحي «جبرئيل» على رسول الله (صلى الله عليه و اله) و أخبره بما حاك المشركون ضدّه من مؤامرة إذ قرأ عليه قوله تعالى : **وَ إِذِ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**^{٢٤٣}.

و رغم يقينه الكامل بأن الإمداد الغيبي يرعاه و يسدد خطاه لم يتعجل الحركة، و لم يرتجل الخطوات بل خطّ ط و دبر بصيرة و حنكة و سرية تامة.

ص:١١٦=PAGEص:

المؤاخاة قبل الهجرة:

لقد آخى رسول الله (صلى الله عليه و اله) بين المهاجرين كنقطة انطلاق نحو المجتمع الإسلامي المتناسك يتعاونون كجسد واحد لمصلحة الإسلام و إعلاء كلمة الله حيث سيواجه المسلمون مصاعب جمّة يستلزم تجاوزها التعاون و التعاضد بأعلى مراتبه.

و كخطوة أولى في طريق الهجرة المباركة آخى رسول الله (صلى الله عليه و اله) بين المهاجرين بعلاقة إيمانية إلهية على الحق و المؤاساة مؤاخاة ينعكس أثرها على التعامل فيما بينهم بالانسجام و الصمود بعيدا عن النوازع النفسية، فلقد آخى (صلى الله عليه و اله) بين أبي بكر و عمر، و بين حمزة و زيد بن حارثة و بين الزبير و ابن مسعود و بين عبيدة بن الحارث و بلال.

كما آخى بين علي (عليه السلام) و نفسه الشريفة (صلى الله عليه و اله) ... و قال لعلي (عليه السلام): أما ترضى أن أكون أخاك؟ قال (عليه السلام): بلى يا رسول الله رضيت. و هنا قال (صلى الله عليه و اله): فأنت أخي في الدنيا و الآخرة^{٢٤٤}.

ص:١١٧=PAGEص:

^{٢٤٢} (1) السيرة النبوية: 480 / 1، الطبقات الكبرى: 227 / 1، تفسير العياشي: 54 / 2.

^{٢٤٣} (2) المناقب: 182 - 183، الأنفال: 3 / 8.

^{٢٤٤} (1) السيرة الحلبية: 20 / 2، مستدرک الحاكم: 14 / 3.

الباب الرابع فيه فصول:

الفصل الأول:

تأسيس الدولة الإسلامية الأولى الفصل الثاني:

الدفاع عن كيان الدولة الفتية الفصل الثالث:

تظاهر قوى الشرك و الرد الإلهي الحاسم

ص: ١١٩=PAGEص:

الفصل الأول تأسيس الدولة الإسلامية الأولى

١- الهجرة الى يثرب:

لكي تتكامل حركة الرسالة و تتحقق النبوة أهدافها الربانية المنشودة لا بد أن تسدد و تؤيد بقوى الخير و عناصر تملك اليقين المطلق بالعقيدة و تنذر نفسها لتلك العقيدة و تستعد للتضحية على الدوام مع مؤهلات تصونها من الانحراف.

لقد كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) ذلك العنصر الفذ الذي قال له رسول الله (صلى الله عليه و اله): «يا علي إن قريشا اجتمعت على المكر بي و قتلى و إنه أوحى إليّ عن ربي أن أهجّر دار قومي، فم علي فراشي و التحف ببردى الحضرمي لتخفي بمبيتك عليهم أثرى فما أنت قائل و صانع؟»

فقال علي (عليه السلام): أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبي الله؟

قال: نعم، فتبسم علي (عليه السلام) ضاحكا مسرورا و أهوى إلى الأرض ساجدا شاكرا لله تعالى لما أنبأه رسول الله (صلى الله عليه و اله) من سلامته و قال (عليه السلام): إمض لما امرت فداك سمعي و بصرى و سويداء قلبي^{٢٤٥}.

ص: ١٢٠=PAGEص:

و خرج رسول الله (صلى الله عليه و اله) بعد منتصف الليل من داره تحيط به العناية الإلهية مخترقا طوق قوات الشرك المحيطة بداره تاركا عليا في فراشه.

و كم كانت خيبة أعداء الله حين اقتحموا دار النبي (صلى الله عليه و اله) صباحا شاهرين سيوفهم تفوح منها رائحة الموت، و يفيض الحقد من وجوههم يتقدمهم خالد بن الوليد، فوثب علي (عليه السلام) من مضجعه في شجاعة فائقة فارتد القوم على أدبارهم و تملكتهم دهشة و ذهول و هم يرون كيف خيب الله سعيهم و أنقذ نبيه (صلى الله عليه و اله).

^{٢٤٥} (1) راجع احقاق الحق: 3/ 23- 45 مع تعليقات المرعشي النجفي لتقف على مصادر هذا الحدث التاريخي وموقف علي الرسالي عند علماء أهل السنة.

و راجع أيضا: مسند الإمام أحمد: 1/ 331 الطبعة الأولى بمصر، و تفسير الطبري: 9/ 140 الطبعة الميمنية بمصر و مستدرك الحاكم: 3/ 4 طبعة حيدرآباد الدكن.

و توسّلت قريش بطغيانها بكل حيلة لتردّ هيبتها الضائعة لعلّها تدرک محمداً (صلى الله عليه و اله) فأرسلت العيون، و ركبت في طلبه الصعب و الذلول حتّى وضعت مئة ناقة جائزة لمن يأتي بمحمد حيا أو ميتا . و قادهم الدليل الحاذق مقتنيا أثر قدم الرسول (صلى الله عليه و اله) إلى باب غار ثور- حيث كان قد اختبأ فيه النبيّ (صلى الله عليه و اله) و معه أبو بكر- فانقطع عنه الأثر فقال: ما جاوز محمد و من معه هذا المكان، إما أن يكونا صعدا إلى السماء أو دخلا في الأرض.

و في داخل الغار كان أبو بكر قد غلبه خوف كبير و هو يسمع صوت قريش تنادى: اخرج يا محمد، و يرى أقدامهم تقترب من باب الغار و رسول الله (صلى الله عليه و اله) يقول: «لا تحزن إن الله معنا».

و عادت قريش بخفيّ حنين فهي لم تدرک أن النبي (صلى الله عليه و اله) في الغار إذ رأت العنكبوت قد نسج بيته على باب الغار و عندها بنت الحمامة عشاها و باضت فيه.

و في المساء التقى على و هند بن أبي هالة بالنبي (صلى الله عليه و اله) بعد أن علما بمكانه و قد أدلى النبي (صلى الله عليه و اله) بوصايا لعلّ (عليه السلام) بحفظ ذمته و أداء أمانته- إذ كان محمد (صلى الله عليه و اله) مستودع أمانات العرب- و أمره أن يبتاع رواحله و للفواطم و يلحق به (صلى الله عليه و اله) فقال له مطمئنا: «إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا على بأمر تكرهه حتى تقدم علىّ، فأدّ أمانت ي على أعين الناس ظاهرا ثم إنى مستخلفك على فاطمة ابنتي و مستخلف ربي

ص: ١٢١=PAGE ص:

عليكما و مستحفظه فيكما»^{٢٤٤}.

و بعد ثلاثة أيام حين عرف النبيّ (صلى الله عليه و اله) أنّه قد سكن الناس عن طلبه، تحرّك نحو يثرب مسرعا، لا يعبأ بمشقة مستعينا بالله و اتقا من نصره.

و حينما وصل منطقة (قباة) تربّث فيها أياما ينتظر قدوم ابن عمّه على ابن أبي طالب و الفواطم عليه ليدخلوا جميعا يثرب التي كانت تموج بالفرح و البهجة لقدوم النبي (صلى الله عليه و اله) في حين دخل صاحب النبي و رفيق سفره إلى يثرب تاركا الرسول (صلى الله عليه و اله) في قباة!

و ما إن وصل على بن أبي طالب (عليه السلام) منهكا من تعب الطريق و مخاطره- حيث كانت قريش قد تعقبتهم حين علمت بخروجه بالفواطم- اعتنقه رسول الله (صلى الله عليه و اله) و بكى رحمة لما به^{٢٤٧}.

و أقام رسول الله (صلى الله عليه و اله) ب (قباة) عدة أيام و كان أوّل عمل قام به هو كسر الأصنام^{٢٤٨} ثم أسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة فأدركته صلاة الظهر في بطن وادي (رانواناء) فكانت أول صلاة جمعة في الإسلام و خرج مسلمو

^{٢٤٦} (1) أعيان الشيعة: 237 / 1.

^{٢٤٧} (2) راجع الكامل في التاريخ: 106 / 2.

^{٢٤٨} (3) البدء و التاريخ: 176 / 4 - 177.

يثرب يزيتهم و سلاحهم يستقبلون رسول الله (صلى الله عليه و اله) و يحيطون بركبه و كل يريد أن يطلع إليه و يملأ عينيه من هذا الرجل الذى آمن به و أحبه^{٢٤٩}.

و ما كان يمر رسول الله (صلى الله عليه و اله) بمنزل أحد من المسلمين إلّا و يأخذ بزمام ناقته و يعرض عليه المقام عنده و هو يقابلهم بطلاقة الوجه و البشر و تجنبنا من إحراج أحد منهم كان (صلى الله عليه و اله) يقول: خلوا الناقة إنها مأمورة.

ص:١٢٢=PAGEص:

و أخيرا بركت الناقة عند مربرد يعود لغلامين يتيمين من بنى النجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى فأسرت زوجته فأدخلت رحل رسول الله (صلى الله عليه و اله) فى دارها فنزل عندهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) إلى أن تمّ بناء المسجد النبوى و بيته (صلى الله عليه و اله)^{٢٥٠}.

و قد غيرّ النبىّ (صلى الله عليه و اله) اسم يثرب الى (طيبة)^{٢٥١} و اعتبر هجرته إليها مبدءا للتأريخ الاسلامى^{٢٥٢}.

٢- بناء المسجد:

لقد اجتاز النبىّ (صلى الله عليه و اله) بالمسلمين دائرة بناء الفرد، و بوصوله الى يثرب شرع فى التخطيط لتكوين الدولة التى تحكمها قوانين السماء و الشريعة الإسلامية السمحاء و من ثمّ بناء الحضارة الإسلامية لتشمل كل الإنسانية فى مرحلة ما بعد الدولة.

و من اولى العقبات أمام تأسيس الدولة الإسلامية وجود النظام القبلى الذى كان يحكم العلاقات فى مجتمع الجزيرة، كما أن ضعف المسلمين كان لا بد له من معالجة واقعية، فكان المنطلق بناء المسجد ليكون مكانا لمهام متعددة، و مركزا للسلطة المركزية التى تدير شؤون الدولة . و تمّ تعيين الأرض و شرع المسلمون بهمة و شوق فى العمل الجادّ لبناء المسجد و ما يتطلبه من مستلزمات، و كان الرسول هو القدوة و الأسوة و منبع الطاقة التى تحرّك المسلمين فى العمل فشارك بنفسه فى حمل الحجارة و اللبن، و بينما هو (صلى الله عليه و اله) ذات مرة ينقل حجرا على بطنه استقبله اسيد بن حضير فقال : يا رسول الله أعطنى أحمل عنك قال (صلى الله عليه و اله): لا، اذهب

ص:١٢٣=PAGEص:

فاحمل غيره.

و تمّ أيضا بناء دار للرسول (صلى الله عليه و اله) و لأهل بيته و لم يكن البناء ذا كلفة كبيرة فقد كان بسيطا كحياتهم، و لم ينس النبى (صلى الله عليه و اله) الفقراء الذين لم يجدوا لهم مسكنا يأوون إليه فألحق لهم مكانا بجانب المسجد^{٢٥٣}.

^{٢٤٩} (4) وصل النبى (صلى الله عليه و اله) مدينة يثرب فى 12 ربيع الأول.

^{٢٥٠} (1) راجع السيرة النبوية: 494 / 1.

^{٢٥١} (2) ابن خلدون: المقدمة/ 283، و تاج العروس: 85 / 2.

^{٢٥٢} (3) تأريخ الطبرى (الامم و الملوك): 110 / 2 - 114.

^{٢٥٣} (1) بحار الانوار: 112 / 19، السيرة النبوية: 496 / 1.

و أصبح المسجد مركزا في حياة المسلمين العبادية و الحياتية فعّالا في بناء الفرد و المجتمع.

٣- المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار:

ثم خطا النبي (صلى الله عليه و اله) خطوة اخرى لإقامة الدولة الجديدة و القضاء على بعض قيم النظام القبلي من دون أن يمس القبيلة بشيء، مستثمرا حالة التعاطف و حرارة الإيمان التي بدت من المسلمين فجعل أساس العلاقة بين الأفراد رابطة العقيدة و الدين متجاوزا علقه الدم و العصبية، فقال (صلى الله عليه و اله): تأخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي^{٢٥٤}، و أخذ كل رجل من الأنصار أخا له من المهاجرين يشاركه الحياة . و بذات طوت المدينة صفحة دامية من تأريخها إذ كانت لا تخلو أيامها من صراع مرير بين الأوس و الخزرج يؤججه اليهود بخبثهم و دسائسهم و انفتح على العالم عهد جديد من الحياة الإنسانية الر اقية حيث زرع رسول الله (صلى الله عليه و اله) بذلك عنصر بقاء الامة، و فاعليتها الإيمانية.

ص:١٢٤=PAGEص:

ابعاد و نتائج التأخي بين المسلمين البعد الاقتصادي:

- ١- إعالة المهاجرين و إعادة تأهيلهم اقتصاديا للعودة لممارسة حياتهم الطبيعية.
- ٢- إزالة الفوارق الطبقي في محاولة للقضاء على الفقر.
- ٣- السعي للاستقلال الاقتصادي بعيدا عن مركز الثروة غير المشروعة و قطع أيادي اليهود المرابية.
- ٤- إنجاز مشاريع اقتصادية: زراعية مع تنشيط حركة التجارة- من خلال تلاحق فاعلية المهاجرين و الأنصار و أفكارهم و ترابط جهودهم و استثمار كل الموارد المتاحة في المدينة.

البعد الاجتماعي:

- ١- القضاء على الأمراض الاجتماعية المتأصلة في المجتمع و مخلفات التناحر القبلي و اشاعة روح الحب و الود و التألف لسد النغرات لئلا يستغلها المتآمرون على الاسلام، و توفير الجهود و الطاقات البشرية لخدمة الاسلام في مراحلها اللاحقة.
- ٢- إلغاء النظام القبلي و إحلال النظام و القيم الإسلامية محله في التعامل اليومي.
- ٣- تهيئة المسلمين نفسيا و تربيتهم على التضحية و الإيثار للانفتاح على العالم لنشر الرسالة الاسلامية الذي يتطلب مرونة عالية و قيم رفيعة تتوفر في الداعية المسلم.

ص:١٢٥=PAGEص:

^{٢٥٤} (2) السيرة النبوية: 504 /1.

البعد السياسى:

١- تكوين نسيج مترابط من المسلمين يتحرك مستجيبا لأوامر الرسول و الرسالة كفرد واحد فى ظرف تعددت فيه الجهات المعادية و لم تتوقف عن دسائسها.

٢- تناقل الخبرات التنظيمية و وسائل المقاومة و الصمود و التجربة الإيمانية و طرق التحرك وسط المهاجرين و الأنصار إذ لم يعيش الأنصار تجربة المهاجرين و محتتهم.

٣- بناء الفرد كخطوة من خطوات بناء الدولة و هيكلها الإدارى.

٤- إشعار المسلمين بالقوة فى الدفاع عن أنفسهم وفق قيم الإسلام بعيدا عن الروح القبلية و العنصرية.

٤- معاهدة المدينة:

و لكى ينتقل النبى (صلى الله عليه و اله) بالمسلمين من حالة الصراع و المقاومة إلى مرحلة البناء و تطبيق الشريعة الإسلامية كان لا بد من توفير أجواء الأمن و الاستقرار- و لو نسبيا- فالصراع قد يعيق انتشارها فى الوسط الجماهيرى.

و فى يثرب كانت قوى تنافس المسلمين فى الوجود، فاليه و د كانوا يشكلون عبئا كبيرا بقوتهم الاقتصادية و خبتهم السياسى المعروف إضافة إلى عدتهم و عددهم الذى لا يستهان به . و المشركون أيضا قوة أخرى و إن ضعف دورهم بقدم النبى (صلى الله عليه و اله) و المهاجرين و لكنه لم ينته تماما- فجاملهم النبى (صلى الله عليه و اله) و قابلهم بالحسنى.

ص:١٢٤=PAGEص:

و كان لا بد للنبى (صلى الله عليه و اله) أيضا أن يحتوى وجود المنافقين.

و فى خارج المدينة كانت قريش و سائر القبائل المشركة تمثل تهديدا حقيقيا للكيان الإسلامى الفتى و كان على الرسول (صلى الله عليه و اله) أن يستعد لمواجهةهم و دفع خطرهم.^{٢٥٥}

و هنا تجلت عظمة الرسول (صلى الله عليه و اله) و مقدرته السياسية فى التعامل مع القوى المتعددة مظهرا النوايا الحسنة و الطيبة تجاه الآخرين، داعيا جميعهم الى السلام و الأمان.

و كتبت معاهدة صلح و تعاون بين المسلمين و اليهود لبناء دولة تعود بمركزيتها إلى النبى (صلى الله عليه و اله) يتمتع الجميع فيها بالحقوق الانسانية على السواء.

^{٢٥٥} گروه مؤلفان، اعلام الهداية- قم، چاپ: دوم، 1425 ه.ق.

و يمكن القول بأن الصحيفة كانت بمثابة أول مشروع دستوري لبناء دولة إسلامية متحضرة في مجتمع المدينة الذي سوف ينطلق نحو المجتمع العربي ثم المجتمع الإنساني العالمي لتقبل النظام الإسلامي الجديد.

و أهم ما تضمنته الصحيفة هو ما يلي:

- ١- إبراز وجود المجتمع المسلم و إشعار الفرد المسلم بقوة انتمائه إليه.
- ٢- الإبقاء على الوجود القبلي - مع تحجيم دوره و صلاحياته - لتخفيف العب عن كاهل الدولة، باشراكه في بعض النشاطات الاجتماعية و الاستعانة به لحل جملة من المشكلات.
- ٣- التأكيد على حرية العقيدة بالسماح لليهود بالبقاء على ديانتهم و ممارسة طقوسهم و اعتبارهم مواطنين في الدولة الإسلامية الجديدة.
- ٤- ترسيخ دعائم الأمن في المدينة بجعلها حرماً آمناً لا يجوز القتال فيه.
- ٥- إقرار سيادة الدولة و النظام الإسلامي و إرجاع قرار الفصل في الخصومات الى القيادة الإسلامية المتمثلة في شخص الرسول (صلى الله عليه و اله).

ص:١٢٧=PAGEص:

٦- توسيع دائرة المجتمع السياسي باعتبار أن المسلمين و اليهود يتعايشون في نظام سياسي واحد و يدافعون عنه.

٧- الحث على إشاعة روح التعاون بين أفراد المجتمع المسلم كي يتجاوز الأزمات التي تعترضه.

٥- النفاق و بدايات الاستقرار في المدينة:

اهتم النبي (صلى الله عليه و اله) ببناء المجتمع المسلم و من هنا فرض الهجرة على كل مسلم إلا بعذر و ذلك لاستقطاب كل الطاقات و الكفاءات و سحبها إلى المدينة.

و قد تمتعت المدينة في هذا العهد الجديد بحياة الأمن و الاستقرار فأصبح الأمر مزعجاً لسائر القوى التي رفضت دعوة النبي (صلى الله عليه و اله) أولاً و رأت فيه طرفاً يهدد معتقدها و اليوم أصبح كياناً يرتقى بالإنسان نحو الفضائل و قوة تنمو باطراد لا يصدّه أحد ع ن نشر رسالته فأسلمت أعداد كبيرة منهم و مضى قسم آخر يخطط للابتعاد عنه أو التحالف معه.

و من جانب آخر كان النبي (صلى الله عليه و اله) يصد حركة النفاق و مساعى اليهود الحاقدة لتقويض الكيان الإسلامي الفتى بتمزيق صفوفه بالفرقة في ما بين المسلمين.

و لم تمض فترة طويلة حتى دخل الإسلام فى كل بيت من بيوت المدينة^{٢٥٦}، و اتسق النظام الاجتماعى العام تحت حكم الإسلام و قيادة الرسول (صلى الله عليه و اله).

و فى هذه الفترة شرعت أحكام الزكاة و الصيام و أحكام إقامة الحدود، كما شرع الأذان لإقامة الصلاة و قبل ذلك كان النبى (صلى الله عليه و اله) قد أعدّ مناديا ينادى للصلاة

ص: PAGE=١٢٨:

إذا جاء وقتها، و نزل الوحي الإلهى يعلم رسول الله (صلى الله عليه و اله) صيغة الأذان^{٢٥٧} فدعا رسول الله (صلى الله عليه و اله) بنفسه بلالا و علمه كيفية الأذان.

٦- تحويل القبلة:

و كان النبى (صلى الله عليه و اله) طوال فترة تواجده فى مكة يتجه فى صلاته نحو بيت المقدس و لم يغير من اتجاه صلاته بعد هجرته المباركة إلى سبعة عشر شهرا ثم أمره الله أن يتجه فى صلاته نحو الكعبة.

و قد أمعن اليهود فى عدائهم للدين الإسلامى و استهزئهم بالرسول و الرسال ة حتى أنهم كانوا يفخرون على المسلمين بتبعيتهم لقبلة اليهود فكان هذا يحزن النبى (صلى الله عليه و اله) و أصبح ينتظر نزول الوحي الإلهى بتغيير القبلة، و خرج النبى (صلى الله عليه و اله) فى جوف الليل يطيل النظر إلى آفاق السماء فلما أصبح و حضر وقت صلاة الظهر كان فى مسجد بنى سالم قد صلى من الظهر ركعتين فنزل جبرئيل (عليه السلام) فأخذ بعضديه و حوله الى الكعبة و أنزل عليه قوله تعالى: **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**^{٢٥٨}.

و قد كانت حادثة تحويل القبلة بمثابة اختبار للمسلمين فى مدى طاعتهم و انقيادهم لأوامر الرسول (صلى الله عليه و اله)، و تحديا لعناد اليهود و استهزئهم و رداً لكيدهم كما كانت منطلقا جديدا من منطلقات بناء الشخصية المسلمة^{٢٥٩}.

٧- بدايات الصراع العسكرى:

لقد كانت القوة هى التى تحكم الناس و تسودهم، و فى هذا الظرف تحرك

ص: PAGE=١٢٩:

النبى (صلى الله عليه و اله) و المسلمون - بعد الاستقرار النسبى فى المدينة - ليؤكد لكل القوى المؤثرة فى الجزيرة بل و خارجها- كالروم و فارس - إصراره على نشر الرسالة الإسلامية و بناء الحضارة وفق تعاليم السماء، و كان للمسلمين من أدوات البناء ما لم يملكه غيرهم، فهم أصحاب عقيدة و فكر و طلبات حق و عدل، و مشرعى سلام و أمن، و أهل سيف و قتال.

^{٢٥٦} (1) السيرة النبوية: 500 / 1.

^{٢٥٧} (1) الكافي: 83 / 1، تهذيب الأحكام: 215 / 1.

^{٢٥٨} (2) البقرة (2): 144.

^{٢٥٩} (3) راجع مجمع البيان: 413 / 1.

وقد توقع رسول الله (صلى الله عليه و اله) أن قريشا و من نصب له العداة سيلجأون لمحاولة استئصال المسلمين و لو بعد حين فكان طلبه من الأنصار فى بيعة العقبة الثانية النصرة و القتال كما أن قريشا هى التى تمادت فى التعدى و الظلم بل و خرجت تتبّع النبى (صلى الله عليه و اله) و المسلمين للقضاء عليهم، و فى مكة قد صادرت الأملاك و نهبت البيوت . و كانت الرغبة لدى النبى (صلى الله عليه و اله) و المسلمين - المهاجرين خصوصا- أن تدخل قريش فى الإسلام طواعية أو أن لا تمضى فى غيها على أقل تقدير.

من هنا بدأ النبى (صلى الله عليه و اله) يبعث (السرايا) و هى عبارة عن مجاميع صغيرة تتحرك لتعلن عن وجودها و عدم استسلامها. و إذا نظرنا إلى عدتها البسيطة و عددها القليل الذى لا يتجاوز الستين فردا و كلهم من المهاجرين و ليس فيهم من الانصار الذين بايعوا على القتال و النصرة، ندرك أنها لم تكن مرشحة للقتال و إنما كانت هذه السرايا وسيلة للضغط على قريش اقتصاديا^{٢٦٠} أيضا لعلها تسمع نداء الحق باذن صاغية و بقلب مفتوح أو تهادن المسلمين فلا تتعرض لهم لينتشر الإسلام فى أطراف اخرى، و فى الوقت نفسه كان ينبغى إشعار اليهود و المنافقين بقوة الإسلام و هيبته المسلمين .

و هكذا بعد مضى سبعة أشهر على الهجرة المباركة انطلقت أول سرية و كان

ص:١٣٠=PAGEص:

عدد افرادها ثلاثين رجلا بقيادة حمزة عم النبى (صلى الله عليه و اله). ثم تلتها سرية اخرى بقيادة عبيدة بن الحارث . و سرية ثالثة بقيادة سعد بن أبى وقاص.

و خرج النبى (صلى الله عليه و اله) فى صفر من العام الثانى للهجرة على رأس مجموعة من أتباعه لاعتراض قوافل قريش و لكن لم يحصل الصدام بين الطرفين فى حركته نحو الأبواء و بواط . و فى خروجه الى ذى العشيرة وادع بنى مدلج و حلفاءهم من بنى ضمرة.

و تحرك النبى (صلى الله عليه و اله) لرد الاعتبار و معاقبة المعتدى حين أغار كرز بن جابر الفهري على أطراف المدينة لسلب الإبل و المواشى فخرج النبى (صلى الله عليه و اله) لملاحقته و خلف زيد بن حارثة على المدينة^{٢٦١}.

و انطلق النبى (صلى الله عليه و اله) فى حركته العسكرية من مفهوم الجهاد و التضحية من أجل الدين بدلا عن مفهوم العصبية و الثأر، محترما أعراف و تقاليد الصلح و المواعدة و حرمة الأشهر الحرم.

ص:١٣١=PAGEص:

الفصل الثانى الدفاع عن كيان الدولة الفتية

١- غزوة بدر الكبرى:

^{٢٦٠} (1) إذ إن مصدرها المالى هو التجارة من خلال حركة القوافل بين مكة و الشام و اليمن
^{٢٦١} (1) السيرة النبوية: 598/1، المغازي: 1/11-12.

بنزول الأمر الإلهي بالقتال انتقلت الرسالة الإسلامية إلى مرحلة جديدة من الصراع مع قوى الشرك والضلالة، و تحركت في نفوس المهاجرين الرغبة الجادة لاسترداد حقوقهم المسلوبة من قبل و التي استلبتها قريش منهم لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله وحده.

و رصد النبيّ (صلى الله عليه و اله) قافلة قريش التي فاتته في طريق ذهابها إلى الشام في غزوة ذات العشيرة و خرج في عدة خفيفة و عدد قليل يرتجى ملاقة قافلة ضمت أسهما تجارية ضخمة لأغلب المكيين. و لم تكن حركة النبي (صلى الله عليه و اله) سرية فقد بلغ خبرها إلى مكة و إلى أبي سفيان قائد القافلة فتحوّل في مسيره إلى اتجاه آخر حيث لا يدركه المسلمون ... و خرجت قريش فزعة تطلب مالها تلهبها مشاعر الحقد و الحسد للمسلمين، على أن عددا من كبارها نظر إلى الأمر بتدبر و روية و آثر عدم الخروج لملاقة المسلمين و خصوصا بعد أن ورد خبر نجاه أبي سفيان بالقافلة التجارية.

خرجت قريش بعدد يناهز الألف في عدة ثقيلة يدفعها تجبرها، و الاغترار بمنزلتها بين العرب و مع جموع اخرى هبت لنصرتها مصرّة على لقاء المسلمين

ص: ١٣٢=PAGE:

أو لتثبت أنها لا تخذل كي لا يتعرض لها المسلمون ثانية، فقريش ما ذلت مذ عزت، كما أعرب عن ذلك بعض أصحاب الرسول (صلى الله عليه و اله) حين أراد مواجهة قريش لأول مرة^{٢٦٢}.

نزلت قريش و صفت صفوفها للقتال على مقربة من (ماء بدر) حيث سبقهم المسلمون في ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا و هيباً الله لرسوله (صلى الله عليه و اله) و للمسلمين مقدمات النصر و أسبابه فسهل لهم الوصول إلى موقع القتال و ألقى عليهم الأمن و الاطمئنان و وعدهم بالنصر على أعدائهم و إظهار دين الحق^{٢٦٣}.

و بالرغم من أن المسلمين لم يتوقعوا خروج قريش لملاقاتهم و لكن بعد أن فاتتهم القافلة و تحول الهدف إلى القتال أراد النبيّ (صلى الله عليه و اله) أن يختبر نوايا المهاجرين و الأنصار فوقف و قال: «أشيروا على أيها الناس».

فقام بعض المهاجرين و تكلم بكلام يدل على الخوف و الجبن عن مواجهة العدو ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله إمض لأمر الله فنحن معك، و الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: «فأذهب أنت و ربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون و الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^{٢٦٤} لسرنا معك.

فقال له رسول الله (صلى الله عليه و اله) خيرا. ثم كرر رسول الله (صلى الله عليه و اله) قوله: أشيروا على أيها الناس، يريد بذلك أن يسمع رأى الأنصار إذ كانوا قد بايعوه على الدفاع و الذب عنه بالنفس و النفيس في العقبه قبل الهجرة.

فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا؟

^{٢٦٢} (1) راجع المغازي للواقدي: 48 / 1، السيرة الحلبية: 160 / 2، و بحار الأنوار: 217 / 19.

^{٢٦٣} (2) الانفال (8): 7-16.

^{٢٦٤} (3) برك الغماد: موضع وراء مكة مما يلي البحر.

قال (صلى الله عليه و اله): أجل. قال: إنا قد آمنا بك و صدقتك و شهدنا أن كل ما جئت به حق.

و أعطيناك موثيقنا و عهدونا على السمع و الطاعة، فامض يا نبي الله، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقى منا رجل، و ما نكره أن يلقانا عدونا غدا؛ إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك.

عندها قال رسول الله (صلى الله عليه و اله): «سيروا على بركة الله فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين و الله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم»^{٢٤٥}.

و فى كل موقف كان رسول الله (صلى الله عليه و اله) يدعو و يسأل الله النصر بعد أن تهيأ المسلمون للحرب و قاموا بالإعدادات اللازمة بدءا باختيار الموقع المناسب و إعداد الماء و اتخاذ التحوطات لملاقاة العدو، و النبي القائد (صلى الله عليه و اله) كان دائما هو الطاقة المتدفقة التى تبعث فى نفوسهم الصبر و الجلد، و الاطمئنان كما كان يثير الحماس فيهم و يخبرهم بالمدد الإلهي^{٢٤٦}.

و احتف المسلمون حول النبي و هم يظهرون أروع صور الاستعداد للتضحية من أجل العقيدة و يفكرون فى خطة بديلة لودارت الحرب على غير ما يحبون فأعدوا عريشا كمبرق لقيادة النبي (صلى الله عليه و اله) ليشرف من خلاله على المعركة. و خرجت سرية الاستطلاع لمعرفة أحوال قريش و عادوا بالأخبار اللازمة للنبي (صلى الله عليه و اله) فقدّر عددهم ما بين (٩٥٠ - ١٠٠٠) مقاتل^{٢٤٧}.

وقف رسول الله (صلى الله عليه و اله) يصف المسلمين صفوفًا و أعطى رايته الكبرى لعلى ابن أبى طالب (عليه السلام) و أرسل إلى قريش طالبا منها أن ترجع، فهو يكره قتالها،

فدبّ الخلاف بين صفوف المشركين بين راغب فى السلم و مصرّ على العدوان^{٢٤٨}.

و أمر الرسول (صلى الله عليه و اله) أن لا يبدأ المسلمون القتال، و وقف يدعو الله قائلا:

«اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم».

^{٢٤٥} (1) المغازي: 48 / 1 - 49.

^{٢٤٦} (2) الانفال (8): 65.

^{٢٤٧} (3) راجع المغازي: 50 / 1.

^{٢٤٨} (1) المغازي: 61 / 1، بحار الانوار: 252 / 19.

و كما هو المعتاد في كل الحروب القديمة برز من المشركين عتبة بن ربيعة و أخوه شيبه و ابنه الوليد يطلبون نظراء لهم من قريش ليبارزوه. فقال النبي (صلى الله عليه و اله) لعبيدة بن الحارث و حمزة بن عبد المطلب و علي بن أبي طالب : «يا بني هاشم قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله»^{٢٦٩}.

فقتل من برز من قريش و التحم الجيشان و رسول الله (صلى الله عليه و اله) يبعث الحماس في نفوس المسلمين. ثم أخذ النبي (صلى الله عليه و اله) كفا من الحصى و رمى بها على قريش و قال : شأهت الوجوه، فلم يبق منهم أحد إلا اشتغل بفرك عينيه^{٢٧٠} فكانت هزيمة قريش و وقف رسول الله (صلى الله عليه و اله) على قلب بدر بعد طرح جثث المشركين فيه، و ناداهم بأسمائهم و قال : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا . فقال المسلمون: يا رسول الله أتنادى قوما قد ماتوا؟ فقال (صلى الله عليه و اله): إنهم ليسمعون كما تسمعون و لكن منعوا من الجواب^{٢٧١}.

نتائج المعركة:

خلقت معركة بدر نتائج عظيمة فقد فرّ المشركون نحو مكة و الخيبة و الذل يحيطان بهم من كل جانب تاركين خلفهم سبعين قتيلًا و سبعين أسيرا و غنائم كثيرة ... و بدت بين صفوف المسلمين المنتصرين بوادر اختلاف حول كيفية

ص:١٣٥=PAGE:ص:

تقسيم الغنائم فأمر النبي (صلى الله عليه و اله) بجمعها حتى يرى فيها رأيه، و نزل الأمر الإلهي في سورة الأنفال بتقسيم الغنائم و تشريع أحكام الخمس، فأعطى رسول الله لكل فرد مقاتل حصته على قدم المساواة مع غيره^{٢٧٢}.

و بشأن الأسرى أعلن رسول الله (صلى الله عليه و اله) أن من علم من الأسرى عشرة من صبيان المسلمين القراء و الكتاب فذلك فداؤه مظهرا بذلك سماحة العقيدة الإسلامية و حثها على التعلم و بناء الإنسان المتحضر . و أما الباقي من الأسرى فجعل فداء كل واحد منهم أربعة آلاف درهم، و شمل هذا القرار أبا العاص زوج زينب بنت رسول الله (صلى الله عليه و اله) من دون تمييز له عن غيره من المشركين.

و حين أرسلت زينب قلاتها لفداء زوجها بكى رسول الله (صلى الله عليه و اله) لرؤية القلادة متذكرا زوجته خديجة فالتفت (صلى الله عليه و اله) الى المسلمين قائلا: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها و تردّوا عليها مالها فافعلوا^{٢٧٣}. و ما أيسر هذا الطلب لنبي الرحمة من المسلمين. و أسرع ابو العاص الى مكة ليرسل زينب الى المدينة كما وعد رسول الله (صلى الله عليه و اله) عليه و اله) و سرت بشائر النصر و الفتح المبين نحو المدينة فأوجفت قلوب اليهود و المنافقين خيفة و رعبا و سعوا لتكذيب الخبر في حين انتشى المسلمون فرحا و سرورا و خرجوا لاستقبال النبي القائد المنتصر.

و حلّت الكارثة بأهل مكة و خيم الحزن على أجوائها و صعق المشركون من هول الصدمة و عمّت الأحزان بيوتات مكة و أطرافها.

^{٢٦٩} (2) المغازي: 68 / 1.

^{٢٧٠} (3) إعلام الوري: 169 / 1، السيرة النبوية: 628 / 1.

^{٢٧١} (4) إعلام الوري: 171 / 1، السيرة النبوية: 638 / 1.

^{٢٧٢} (1) المغازي: 104 / 1، السيرة النبوية: 642 / 1.

^{٢٧٣} (2) السيرة النبوية: 652 / 1، البحار: 348 / 19.

و تضمّنت آيات الذكر الحكيم نصوصا صريحة عن هذه المعركة المصيرية و هي تذكر تفاصيل الأحداث و تظهر الإمداد الإلهي للامة المسلمة المخلصة لربها

ص: PAGE=١٣٦:

في سبيل نشر رسالته^{٢٧٤}.

و قد استبسل علي بن أبي طالب (عليه السلام) للدفاع في هذه الغزوة الكبرى حين قتل الوليد بن عتبة و أعان عمّه حمزة و عبيدة بن الحارث علي قتل شيبه و عتبة منازلها . و قد عدّ الشيخ المفيد س تة و ثلاثين نفرا ممن قتلهم علي (عليه السلام) يوم بدر سوى من اشترك في قتله^{٢٧٥} ، و قال ابن اسحاق: اكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعل^{٢٧٦}.

و ألجأت هذه الهزيمة قريشا الي تحويل مسير تجارتها من الشام الي العراق بعد أن أصبح للمسلمين كيان قوي، له آثاره علي تركيبة مجتمع الجزيرة حيث بدت تظهر بالتدرج و بدأت قريش تفقد هيبتها بين القبائل في الوقت الذي أخذت تشتد أوامر المسلمين فيما بينهم و بين الرسول القائد (صلى الله عليه و اله).

٢- اهتمام النبي (صلى الله عليه و اله) بزواج الزهراء (عليها السلام):

حلّت الزهراء من قلب النبي المصطفى (صلى الله عليه و اله) المنزلة الرفيعة إذ كان يجد فيها السلوة و العزاء، و الصورة الطيبة التي تركتها خديجة (عليها السلام)، و الذرية الطاهرة.

و شاركت الزهراء (عليها السلام) النبي (صلى الله عليه و اله) هموم الرسالة و عملت كثيرا للتخفيف عنه حتى قال عنها: «إنها أم أبيها».

و حين بلغت الزهراء (عليها السلام) في بيت النبوة مبلغ النساء و قد نهلت من معين النبوة و سلسيل الرسالة خطبها أكابر قريش من أهل الفضل و السابقة في الإسلام و الشرف و المال إلى النبي (صلى الله عليه و اله) و هو يردهم بحكمة رداً جميلا بقوله: إنى انتظر

ص: PAGE=١٣٧:

فيها القضاء أو يقول: أنتظر أمر السماء^{٢٧٧}.

و فرح النبي (صلى الله عليه و اله) بتقدم علي بن أبي طالب (عليه السلام) لخطبة فاطمة الزهراء (عليها السلام) و قال له: ابشرك يا علي فإن الله عزّ و جلّ قد زوجكها في السماء من قبل أن أزوجهكها في الأرض، و قد هبط عليّ من قبل أن تأتيني ملك من السماء فقال: يا محمد إن الله - عزّ و جلّ - أطع إلى الأرض إطلاعةً فاخترارك من خلقه فبعثك برسالته، ثم أطع إلى الأرض ثانيةً فاختر لك منها أخوا و وزيراً و صاحباً و ختنا فزوجه ابنتك فاطمة (عليها السلام)، و قد احتفلت

^{٢٧٤} (1) الانفال(8): 9، 11، 12، 42، 44، و آل عمران(3): 13 و 123 و 127.

^{٢٧٥} (2) الارشاد: 39-40.

^{٢٧٦} (3) المناقب: 120/3.

^{٢٧٧} (1) حياة النبي و سيرته: 309/1، نقلا عن المنتقى للكارزوني البماني

بذلك ملائكة السماء. يا محمد إن الله - عزّ وجلّ - أمرني أن آمرك أن تزوّج عليا في الأرض فاطمة، و تبشرهما بغلامين زكيين نجيبين طاهرين خيّرين فاضلين في الدنيا والآخرة^{٢٧٨}.

و أمام جمع من المهاجرين و الأنصار أجرى رسول الله (صلى الله عليه و اله) عقد الزواج لقاء مهر يسير ليحمله سنّة تقتدى به الامّة. و حين وضع أثاث بيت الزهراء (عليها السلام) بين يدي الرسول (صلى الله عليه و اله) و كان أكثر أو عييته من الخزف دمعت عيناه و هو يقول:

اللهم بارك لأهل بيت جلّ آيتهم من الخزف^{٢٧٩} و أبدى النبي (صلى الله عليه و اله) اهتماما بالغاً في زواج ابنته الزهراء (عليها السلام) في كل تفاصيله، و قد تجلت ناحية من نواحي اهتمامه (صلى الله عليه و اله) بذلك في دعائه للزوجين يوم الزفاف إذ قال: «اللهم اجمع شملهما و آلف بين قلوبهما و اجعلهما و ذريتهما من ورثة جنّة النعيم و ارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة و اجعل في ذريتهما البركة و اجعلهم أئمة يهدون بأمرك الى طاعتك و يأمرن بما رضيت».

و قال (صلى الله عليه و اله) أيضا: «يا ربّ إنك لم تبعث نبيا إلّا و قد جعلت له عتره اللهم فاجعل عترتي الهادية من علي و فاطمة» ثم قال: «طهركما الله و طهر نسلكما، أنا سلم لمن سالمكما

ص: ١٣٨=PAGE=ص:

و حرب لمن حاربكما»^{٢٨٠}.

٣- الصدام المباشر مع اليهود و اجلاء بني قينقاع:

لمس اليهود خطر تنامي قوة الإسلام و المسلمين في المدينة . فالكيان الطرى أصبح أشدّ عودا و أقوى شكيمة و تحولت الرسالة الإسلامية الى قوة تحكم.

و قبل بدر كانت معاهدة الصلح صمّام الأمان الذي يقبض على طرفي الصراع و يحول د ون الانفجار، لكن النصر المؤزر للمسلمين فجّر روح العداء و ألهب نزعة الشرّ اليهودية تعينها أطراف النفاق الاخرى، و جعلوا يتغامزون و يتآمرون، و يرسلون الأشعار و يجهدون في التحريض على المسلمين الذين أصبح لهم سلطان جديد مضافا إلى دينهم الجديد.

و لم تكن أخبارهم لتخفى على الرسول (صلى الله عليه و اله). و تحركت في نفوس المسلمين الجراءة في الدفاع و الحرص على الإسلام و النبي (صلى الله عليه و اله)، فلم يتمالك الفدائي المسلم - هو سالم بن عمير - نفسه حين سمع رجلا مشركا - هو أبو عفك من بني عوف - يسىء للنبي فقتله^{٢٨١} و تكرّرت المحاولة مع مشرّكة حاقدة - هي عصماء بنت

^{٢٧٨} (2) كشف الغمة: 1/ 356-358.

^{٢٧٩} (3) كشف الغمة: 1/ 359.

^{٢٨٠} (1) كشف الغمة: 1/ 362، مناقب آل أبي طالب: 3/ 355.

^{٢٨١} (2) المغازي: 1/ 174.

مروان-^{٢٨٢} و تمكن المسلمون أيضا من اغتيال كعب بن الأشرف إذ تمادى فى التعريض و الاستهزاء و النيل من أعراض المسلمين^{٢٨٣}.

و لم تتوقف مساعى اليهود التحريضية و نشر الأباطيل و الدعايات الكاذبة و التشهير بالمسلمين ناقضين بذلك عهد المودعة و التعايش السلمى و أراد نبي الرحمة (صلى الله عليه و اله) أن يخلص و إياهم الى الاستقرار فخرج رسول الله (صلى الله عليه و اله) الى يهود

ص: ١٣٩=PAGE:

بنى قينقاع يدعوهم بالحكمة و الموعظة الحسنة و بنذرهم من مغبة سياساتهم و تصرفاتهم اللامحمودة فقال لهم بعد أن جمعهم فى سوقهم: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، و أسلموا فإنكم قد عرفتم أنى رسول الله تجدون ذلك فى كتابكم و عهد الله إليكم».

و لم يزد لهم ذلك إلا علواً و استكبارا فقالوا: يا محمد لا يغرنك من لقيت، أنك قهرت اقو اما أغمارا و إنا و الله اصحاب الحرب و لئن قاتلنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا^{٢٨٤}.

و تجلّت خسة اليهود حين أسأوا إلى امرأة من المسلمين و نالوا من كرامتها و انتهى الأمر الى قتل يهودى و مسلم فعندها سار النبي (صلى الله عليه و اله) بالمسلمين فحاصر يهود بنى قينقاع فى دورهم خمسة عشر يوما متتابعة لا يخرج منهم أحد و لا يدخل عليهم أحد، فلم يبق لهم إلا الاستسلام و النزول على حكم النبي (صلى الله عليه و اله) بجلائهم عن المدينة تاركين عدتهم و أدواتهم، فخلت المدينة من أهم عناصر الشر و ساد الهدوء السياسى فيها إذ تضا عل تواجد و دور غير المسلمين فى المدينة، بعد أن لمسوا قوة المسلمين و تطوّر التنظيم الإدارى و ازدياد قوة القيادة و الدولة الإسلامية التى كانت تعمل وفق مخطط حكيم.

٤- ردود فعل قريش بعد انتصارات المسلمين:

جمع أبو سفيان عددا من فرسان قريش و قادهم نحو المدينة تدفعهم نواياهم الغادرة إلى الفتك بالمسلمين و رد اعتبار قريش المفقود فى بدر . و على مقربة من المدينة عاثوا فى الأرض فسادا و كروا فاريين خوفا من أن تنالهم سيوف المسلمين.

و خفّ النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمون فى أثر المشركين يدفعهم و لاؤهم لدينهم

ص: ١٤٠=PAGE:

تأكيدا منهم على الدفاع عن سيادة الدولة الفتية و حفظها من أبادى سوء ...

^{٢٨٢} (3) المصدر السابق: 172 / 1.

^{٢٨٣} (4) السيرة النبوية: 51 / 2.

^{٢٨٤} (1) المغازي: 176 / 1.

وقد اتخذ المشركون كل ما يعينهم على الهرب فألقوا ما معهم من (سويق) و هو مؤونتهم، و التقطه المسلمون من خلفهم و سميت الغزوة بذلك غزوة السويق و كان هذا خزيا آخر لحق قريشا . و تأكيدا للقبائل التي تطاير الخبر إليها أن وجود الإسلام كقوة منظمة قد أصبح واقعا مفروضا.

و كان همّ النبي (صلى الله عليه و اله) فى هذه المرحلة توفير الأمان فى أوساط المجتمع المسلم فى المدينة و صدّ أىّ عدوان محتمل . على أن بعض القبائل التي كانت تأبى الدخول فى الاسلام و تبطن العداء له لم تكن لتتهدى الى تصرف مناسب مع الرسول و المسلمين، فكانوا يعدون العدة للهجوم على المدينة و يفرون حين يسمعون بخروج النبي (صلى الله عليه و اله) لهم.

و خرجت سرية اخرى بقيادة زيد بن حارثة بعد أن وجهها النبي (صلى الله عليه و اله) لقطع الطريق الجديد لتجارة قريش عن طريق العراق. و قد نجحت السرية فى مهمتها.

٥- غزوة احد^{٢٨٥}:

مرّت الأيام التي تلت معركة بدر ثقيلة على قريش و المشركين . و فى المدينة لم يزل النبي (صلى الله عليه و اله) يواصل عمليّة بناء الانسان و الدولة حيث كانت الآيات الإلهية تترى و هى تشرّع للإنسان سلوكه و حياته و النبي (صلى الله عليه و اله) يفصلّ التعاليم و يطبق الأحكام و يهدى الى طاعة الله.

و تظافرت الأسباب و الدواعى عند مشركى مكة و من والاهم لخوض حرب جديدة ضد الإسلام تزيح عن كاهلهم كابوس الهزيمة فى بدر و تطفىء غليل الحقد

ص:١٤١=PAGEص:

الذى ما زال يؤجّجه أبو سفيان زعيم البيت الاموى و الخاسر الأكبر فى بدر، كما كان عويل النساء و مطامع التجار الذين فقدوا كل الطرق الآمنة للتجارة عاملين آخرين لذلك.

فكانت الحرب محاولة لإضعاف المسلمين و تأمين طرق التجارة الى الشام، و الحدّ من تنامي قوة المسلمين العسكرية لتجنّب مكة من خطر الاحتلال و القضاء على الشرك فيها . و مما أسهم فى إعداد الحرب أيضا تحريض يهود و منافقى المدينة لقريش و غيرها لغزو المدينة و القضاء على الإسلام.

و سارع العباس بن عبد المطلب إلى الكتابة للنبي (صلى الله عليه و اله) يخبره عن اجتماع كلمة قريش على الحرب و تهيئتهم للعدّة و العدد حيث استنفروا معهم القبائل و اتخذوا عدّة أساليب لإثارة الحرب و العزيمة على القتال إذ خرجت النسوة معهم.

و وصل الكتاب سرا الى النبي (صلى الله عليه و اله) فكتّم الخبر عن المسلمين حتى يستوضح الأمر و يعدّ له العدة اللازمة.

^{٢٨٥} (1) وقعت معركة أحد فى شوال من السنة الثالثة للهجرة

واقتربت جحافل الشرك من المدينة فبعث النبي (صلى الله عليه و اله) الحباب بن المنذر سرا ليستطلع العدو- بعد أن بعث أنسا و مؤنسا ابني فضالة- فجاء الخبر و الوصف متوافقين مع كتاب العباس و خبر ابني فضالة، و بات عدد من المسلمين من الذين أخبرهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) بالخبر في حيطه و حذر خشية مدهمة العدو.

ثم استشار رسول الله (صلى الله عليه و اله) أصحابه بعد أن أعلن قدوم قريش للحرب فاختلقت آراؤهم بين التحصن في المدينة أو الخروج لملاقاة العدو خارجها . و لم يكن عسيرا على النبي (صلى الله عليه و اله) أن يحدد الخطة مسبقا لكنه أراد أن يشعر المسلمين بمسئوليتهم . ثم كان الاتفاق على خروج المسلمين للقاء العدو و قتاله خارج المدينة . ثم صلى النبي (صلى الله عليه و اله) صلاة الجمعة و صعد المنبر و خطب و أخذ يعظ الناس و يذكرهم بطاعة الله و أمرهم بالجد و الجهاد و الصبر. ثم نزل و دخل داره و لبس

ص: PAGE=١٤٢:

لامته مما أثار المسلمين و هزهم بشدة و ظنوا أنهم أكرهوا الرسول (صلى الله عليه و اله) على الخروج من المدينة فقالوا: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك.

فقال (صلى الله عليه و اله): ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل^{٢٨٦}.

و خرج النبي (صلى الله عليه و اله) في ألف مقاتل من المسلمين و رفض أن يستعين باليهود ضد المشركين قائلا : لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك^{٢٨٧}. و لم يستطع المناقون إخفاء حقدهم فانخذل ع بد الله بن ابي عن رسول الله بثلاثمئة و بقي رسول الله بسبعمئة و كان المشركون أكثر من ثلاثة آلاف^{٢٨٨}.

و عند جبل أحد وضع النبي (صلى الله عليه و اله) خطة محكمة ليضمن النصر المؤزر ثم قام (صلى الله عليه و اله) فخطب الناس قائلا: «أيها الناس أوصيكم بما أوصانى الله في كتابه من العمل بطاعته و التناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر و ذكر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه له على الصبر و اليقين و الجد و النشاط فإن جهاد العدو شديد كراهه، قليل من يصبر عليه، إلا من عزم الله رشده، فإن الله مع من أطاعه و إن الشيطان ان مع من عصاه، فافتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد و التمسوا بذلك ما وعدكم الله، و عليكم بالذي أمركم به، فإنني حريص على رشدكم فإن الاختلاف و التنازع و التشبيط من أمر العجز و الضعف مما لا يحب الله، و لا يعطى عليه النصر و لا الظفر»^{٢٨٩}.

و اصطف المشركون للقتال الذي سرعان ما نشب و لم يمض زمن طويل حتى ولت قوى الشرك الأدبار، و كادت نساؤهم أن تقع بأيدي المسلمين سبايا، و بدا انتصار المسلمين واضحا في ساحة المعركة حتى وسوس الشيطان في نفوس

ص: PAGE=١٤٣:

^{٢٨٦} (1) السيرة النبوية: 23 / 2، المغازي: 214 / 1.

^{٢٨٧} (2) الطبقات لابن سعد: 39 / 2.

^{٢٨٨} (3) الطبري: 107 / 3.

^{٢٨٩} (4) المغازي: 221 / 1.

بعض الرماة الذين وضعهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) فوق الجبل و أمرهم بعدم ترك مكانهم مهما كانت نتيجة المعركة حتى يتلقوا أمرا جديدا منه فعصوا أمر رسول الله (صلى الله عليه و اله) و تركوا مواقعهم سعيا وراء الغنائم فكرت قوى الشرك ثانية بقيادة خالد بن الوليد من موقع الثغرة التي نهى رسول الله (صلى الله عليه و اله) عن تركها.

فذهل المسلمون لذلك و تفرقت جموعهم و عادت فلول قريش المنهزمة الى الحرب و قتل عدد كبير من المسلمين و أشاع المشركون نبأ مقتل رسول الله (صلى الله عليه و اله) و كادت كتائب الشرك أن تصل الى النبي (صلى الله عليه و اله) لو لا استبسال على بن أبي طالب و حمزة بن عبد المطلب و سهل بن حنيف و قلة قليلة ثبتت في ساحة المعركة إذ فرت البقية الباقية من المسلمين بما فيهم كبار الصحابة^{٢٩٠}، حتى أن بعضهم بدرت منه فكرة التبري من الإسلام فقال : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن ابي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان^{٢٩١}.

و استشهد حمزة بن عبد المطلب عم النبي (صلى الله عليه و اله) و تعرض رسول الله (صلى الله عليه و اله) للإصابة فكسرت رباعيته السفلى و شقت شفته و سال الدم على وجهه فجعل يمسه و هو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم و هو يدعوهم الى الله^{٢٩٢} و قاتل (صلى الله عليه و اله) حتى صارت قوسه شظايا . و طعن ابي بن خلف حين هجم عليه يريد قتله (صلى الله عليه و اله) و مات ابي على أثرها و استبس على ابن أبي طالب بصورة لا نظير لها و هو يفرق كل من يتقدم نحو رسول الله و يهده بسيفه فنزل جبرئيل على رسول الله (صلى الله عليه و اله) فقال: يا رسول الله هذه المواساة، فقال (صلى الله عليه و اله): «إنه منى و أنا منه».

ص:١٤٤=PAGEص:

فقال جبرئيل: و أنا منكما، فسمعوا صوتا يقول: «لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا على»^{٢٩٣}.

و انسحب الرسول (صلى الله عليه و اله) و البقية الباقية معه من المسلمين الى الجبل و هدأت المعركة و جاء أبو سفيان يستهزئ و يسخر بالمسلمين قائلا: اعل هبل.

و أمر رسول الله (صلى الله عليه و اله) أن يرد على الكفر مظهرا بذلك عدم انكسار العقيدة رغم الانكسار في ساحة المعركة فقال قولوا: «الله أعلى و أجل».

و أمر النبي (صلى الله عليه و اله) بالردة ثانية على شعار أبي سفيان الكافر حين قال : نحن لنا العزى و لا عزى لكم فقال (صلى الله عليه و اله): قولوا «الله مولانا و لا مولى لكم»^{٢٩٤}.

و رجع المشركون إلى مكة و قام النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمون بدفن الشهداء فبالهم المنظر الفظيع الذي تركته قريش فقد مثلت بجث الشهداء . و لما أبصر النبي (صلى الله عليه و اله) حمزة بن عبد المطلب يبطن الوادى و قد اخرج كبده و مثل به بوحشية و حقد؛ حزن حزنا شديدا و قال: ما وقفت موقفا قط أغيظ إلى من هذا.

^{٢٩٠} (1) المغازي: 237 / 1، السيرة النبوية: 83 / 2، شرح نهج البلاغة: 20 / 15.

^{٢٩١} (2) بحار الأنوار: 27 / 20. و قد وردت آيات القرآن تبين القتال و نوازع المسلمين في سورة آل عمران 121 - 180.

^{٢٩٢} (3) تاريخ الطبري: 117 / 3، بحار الأنوار: 102 / 20.

^{٢٩٣} (1) تاريخ الطبري: 116 / 3، مجمع الزوائد: 114 / 6، بحار الأنوار: 71 / 20.

^{٢٩٤} (2) السيرة النبوية: 94 / 2.

و لم تكن التضحيات الجسام و الخسارة الكبيرة فى ساحة المعركة لتثنى أهل العقيدة و الرسول القائد (صلى الله عليه و اله) عن الاستمرار فى الدفاع عن حياض الإسلام و كيان الدولة الفتية، ففى اليوم التالى من رجوعهم إلى المدينة أمر النبى (صلى الله عليه و اله) باستنفاة المسلمين لطلب العدو و مطاردته على أن لا يخرج إلّا من حضر الغزوة فخرج المسلمون على ما بهم من جراح إلى منطقة حمراء الأسد و بهذا أتبع الرسول القائد (صلى الله عليه و اله) اسلوبا جديدا لإرعاب العدو، ممّا جعل الخوف يسيطر عليهم فأسرعوا فى مسيرهم نحو مكة^{٢٩٥} و رجع النبى (صلى الله عليه و اله) و المسلمون إلى المدينة و قد استردوا

ص: PAGE=١٤٥ص:

كثيرا من معنوياتهم.

٤- محاولات الغدر بالمسلمين:

كان من الطبيعى فى مجتمع تحكمه القوة و الغلبة بالسيف أن يطمع المشركون فى المسلمين بعد النكسة فى احد، لكن النبى القائد (صلى الله عليه و اله) كان يقظا و مدركا لكل المتغيرات حريصا على سلامة الرسالة و قوتها مجتهدا فى بناء الدولة و المحافظة عليها، فكان يتحسس الأخبار و يستطلع النوايا و يسرع فى الرد قبل أن يدرك المشركون أهدافهم فخرجت سرية أبى سلمة ترد غدر بنى أسد بالمدينة و نجحت السرية فى مهمتها^{٢٩٦} و تمكّن المسلمون أيضا من رد كيد مشرك كان يعدّ لغزو المدينة.

و قد تمكنت جماعة من المشركين من الغدر بالمسلمين حين قدم جمع من قبيلتى «عضل» و «القارة» إلى رسول الله (صلى الله عليه و اله) تطلب من يقهها الدين و استجاب نبى الرحمة (صلى الله عليه و اله) سعيًا منه لنشر الرسالة الاسلامية و لكن يد الغدر فتكت بالمسلمين الدعاء عند منطقة «ماء الرجيع». و قبل أن يبلغ خبر مصرعهم إلى النبى (صلى الله عليه و اله) اقترح أبو براء العامرى على النبى (صلى الله عليه و اله) أن يرسل مبلغين إلى أهل «نجد» يدعون إلى الإسلام بعد أن رفض هو الدخول فى الإسلام، فقال النبى (صلى الله عليه و اله): «إنى أخشى عليهم أهل نجد .. قال أبو براء: «لا تخف، أنا لهم جار». و قد كان للجوار اعتبار و اهمية تعدل النسب فى عرف الجزيرة العربية لذا اطمأن النبى (صلى الله عليه و اله) و أرسل و فدا من الدعاء للتبليغ و لكن الغدر طالهم فعدا عليهم عامر بن الطفيل و قبائل بنى سليم فى منطقة «بئر معونة» و فتكوا بهم و لم يسلم منهم إلا عمرو بن امية الذى أطلقوه فعاد إلى النبى (صلى الله عليه و اله) بالخبر و لكنه فى طريقه قتل

ص: PAGE=١٤٦ص:

رجلين ظنّا منه أنهما من العامريين، و لكن النبى (صلى الله عليه و اله) حزن لذلك و قال له: بس ما صنعت قتلت رجلين كان لهما منى أمان و جوار، لأدفعنّ ديتهما»^{٢٩٧}.

^{٢٩٥} (3) السيرة النبوية: 102/2، الطبقات الكبرى: 49/2.

^{٢٩٦} (1) المغازي: 340/1.

^{٢٩٧} (1) السيرة النبوية: 3: 193-195.

تتابعت النكبات على المسلمين حتى بدى للمناققين و ليهود المدينة أن هيبه المسلمين قد ضاعت، و أراد النبي (صلى الله عليه و اله) بحكمته السياسية أن يحدّد ملامح التصرف الصحيح مع يهود (بني النضير) ميرزا نواياهم، فاستعان بهم على دفع دية القتيلين. فتلقوه قرب مساكنهم مرحّبين به و بجماعة من المسلمين و هم يضمرون سوء، فطلبوا منه الجلوس ريثما يحققون له طلبه. فجلس مستندا إلى جدار بيت من بيوتهم فأسرعوا- مستغلّين الفرصة- لإلقاء حجر عليه و قتله، فهبط الوحى عليه يخبره، فانسلّ من بينهم تاركا الصحابة معهم، فاضطرب بنو النضير و أمسوا في حيرة من أمرهم و باتوا قلقين بشدة من سوء فعلتهم، و أسرع الصحابة الى النبي (صلى الله عليه و اله) فى المسجد يستطلعون سرّ عودته فقال (صلى الله عليه و اله): «همّت اليهود بالغدر بي فأخبرني الله بذلك فقامت»^{٢٩٩}.

و بذلك استحلّ الله دماءهم إذ نقضوا عهد المودعة مع النبي (صلى الله عليه و اله) و همّوا بالغدر به فلم يكن لهم إلاّ الجلاء عن المدينة. و تدخلّ زعيم النفاق عبد الله بن ابي و غيره يمنون بنى النضير بعدم الامتثال لأمر النبي (صلى الله عليه و اله) و الة) و الثبات له و وعدهم بأنّه و جماعته سيمدونهم مقابل النبي (صلى الله عليه و اله) و لن يخذلوهم، و تحصن بنو النضير فى

ص:١٤٧=PAGEص:

حصونهم متمردين على أمر النبي (صلى الله عليه و اله).

و استخلف النبي (صلى الله عليه و اله) ابن ام مكتوم على المدينة حين علم بمساعي المناققين و خرج لمحاصرة بنى النضير و اتّبع معهم اسلوبا اضطرّهم إلى التسليم و الخروج بما تحمله إبلهم فقط أدلّة خاسئين^{٣٠٠}.

و غنم المسلمون أموالا و سلاحا كثيرا و لكن الرسول (صلى الله عليه و اله) جمع المسلمين و عرض عليهم رأيه فى أن تكون الغنائم للمهاجرين خاصة كى يتحقّق لهم الاستقلال الاقتصادى إلاّ سهل بن حنيف و أبا دجانه- و هما من فقراء الأنصار- فأعطاهما النبي (صلى الله عليه و اله) من هذه الغنائم^{٣٠١}.

٨- مناوشات عسكرية بعد احد:

ساد الهدوء و الاستقرار أجواء المدينة و اضطرب المناققون قلقا من انكشاف أساليبهم و أيقنوا أن الدور القادم هو دور تحطيمهم. و فى هذا الظرف وردت أخبار للنبي (صلى الله عليه و اله) بأنّ غطفان تعدّ العدة لغزو المدينة فأسرع النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمون فى الخروج إليهم و لكنهم فوجئوا بالعدو قد أعدّ و استعدادا لملاقاتهم فتهيب كل من الفريقين الآخر و لم يقع أى قتال. و فى هذه الغزوة صلى النبي (صلى الله عليه و اله) صلاة الخوف بالمسلمين إذ لم يتسنّ لهم الغفلة عن العدو برهة من الزمن، و عاد المسلمون إلى المدينة دون قتال^{٣٠٢}، و سميت هذه الغزوة ب (ذات الرقاع).

^{٢٩٨} (*) وقعت هذه الغزوة فى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة

^{٢٩٩} (2) الطبقات الكبرى: 57/ 2، امتاع الاسماع: 187/ 1.

^{٣٠٠} (1) وصفت سورة الحشر احداث جلاء بني النضير

^{٣٠١} (2) الارشاد: 47.

^{٣٠٢} (3) راجع السيرة النبوية: 204/ 2.

مرّت الأيام الحرجة على المسلمين بسرعة و قد ازدادوا خبرة قتالية

ص: PAGE=١٤٨:

و تنزلت عليهم أحكام الشريعة فتهدّبت العلاقات و انتظمت شؤون حياتهم فى عامة جوانبها و ازداد الإيمان رسوخا و ثباتا و برزت نماذج رائعة من الصمود و التضحية و الفداء و الإخلاص للدين الإسلامى و للامة المسلمة و أوشكت أن تنمحي آثار الانكسار فى احد. و حلّ موعد التهديد الذى أطلقه زعيم الكفر أبو سفيان فى احد حين قال : موعدا و موعداكم بدر، قاصدا الانتقام لقتلى المشركين يوم بدر . فخرج النبى (صلى الله عليه و اله) فى ألف و خمسمائة مقاتل من أصحابه و عسكر هناك ثمانية أيام و لم تفلح مساعى المشركين لتخويف المسلمين و تنيهم عن الخروج بل تملّكهم الخوف حين علموا بما عزم عليه النبى (صلى الله عليه و اله) و المسلمون فاضطر أبو سفيان إلى أن يخرج إلى الموعد المحدد و لكنه كرّ راجعا بحجّة الجفاف و الجذب المؤثر على الاستعداد العسكرى . و بذلك و صمت قريش بعار الهزيمة و الجبن و ارتفعت معنويات المسلمين و استردّوا عافيتهم و نشاطهم.

و بعد فترة قليلة أفادت الأخبار بأن سكان دومة الجندل يقطعون الطريق و يتجهزون لغزو المدينة، فخرج اليهم النبى (صلى الله عليه و اله) بألف من المسلمين للقائهم، و ما أن سمعوا بخروجه إليهم حتّى لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم ما كان معهم من غنائم فاستولى عليها المسلمون دون قتال^{٣٠٣}.

٩- غزوة بنى المصطلق و دور النفاق:

و وردت أخبار جديدة تفيد بأن الحارث بن أبى ضرار - زعيم بنى المصطلق - يعدّ لغزو المدينة فاستوثق النبى (صلى الله عليه و اله) - كعادته قبل كل تحرك - من صدق الخبر و ندب المسلمين فخرجوا إليهم و التقوا عند ماء يدعى «المريسيع» و نشبت الحرب ففر المشركون بعد قتل عشرة اشخاص منهم، و غنم المسلمون

ص: PAGE=١٤٩:

غنائم كثيرة و سبيت أعداد كبيرة من عوائل بنى المصطلق، كانت من بينهم جويرية بنت الحارث فأعتقها النبى (صلى الله عليه و اله) ثم تزوجها، و أطلق المسلمون ما فى أيديهم من الأسرى إكراما لرسول الله (صلى الله عليه و اله) و لها^{٣٠٤}.

و فى هذه الغزوة كادت أن تقع فتنة بين المهاجرين و الأنصار بسبب بعض النعرات القبليّة و لما علم النبى (صلى الله عليه و اله) بذلك قال «دعوها فإنها فتنة»^{٣٠٥}. و أسرع عبد الله بن أبى راس النفاق يبتغى الفتنة و يوجب الخلاف فوجّه اللوم لمن حوله من أهل المدينة إذ آووا و نصروا المهاجرين ثم قال : أما و الله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، و كادت أن تفلح مساعى ابن أبى لولا أن النبى (صلى الله عليه و اله) - بعد أن توثق من تحريض ابن أبى و نفاقه - أمر بالعودة إلى المدينة على وجه السرعة رافضا رأى عمر بن الخطاب بقتل ابن أبى فقال (صلى الله عليه و اله): «فكيف يا

^{٣٠٣} (1) السيرة النبوية لابن كثير: 3/ 177، الطبقات الكبرى: 2/ 62.

^{٣٠٤} (1) تاريخ الطبري: 3/ 204، امتاع الاسماع: 1/ 195.

^{٣٠٥} (2) السيرة النبوية: 1/ 290.

عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ! لا»^{٣٠٦}. ولم يأذن النبي (صلى الله عليه و اله) بالاستراحة في الطريق فسار بالمسلمين يوماً و ليلة ثم أذن لهم بالاستراحة فأخذ الجميع للنوم من شدة التعب و لم تتح فرصة للتحدث و تعميق الخلاف. و على أبواب المدينة طلب عبد الله بن عبد الله بن ابي الإذن من النبي (صلى الله عليه و اله) في قتل أبيه بيده دون أحد من المسلمين خشية أن تثيره العاطفة فيأثر لأبيه فقال نبي الرحمة (صلى الله عليه و اله): «بل تترفق به و نحسن صحبته ما بقي معنا». ثم وقف عبد الله (الأبن) ليمنع أباه من دخول المدينة إلا بإذن من الرسول الأكرم (صلى الله عليه و اله)^{٣٠٧}، و في هذا الظرف نزلت سورة المنافقين لتفضح سلوكهم و نواباهم.

ص: PAGE=١٥٠:

١٠- إبطال أعراف جاهلية:

برحمته الفياضة و بطيب قلبه المفعم حبا للإنسانية وقف النبي (صلى الله عليه و اله) ذات يوم و قال لقريش: «يا من حضر إشهدوا أن زيدا هذا ابني»^{٣٠٨}. و انتقل زيد من رق العبودية إلى بنوة أكرم خلق الله و آمن زيد بالنبي المرسل (صلى الله عليه و اله) من أول أيام البعثة المباركة ا يمانا صادقا. و مضت الأيام حتى بلغ زيد مرحلة الرجولة في ظل رعاية النبي الأكرم (صلى الله عليه و اله) و بجرأة الثائر العظيم و المصلح الكبير اختار النبي (صلى الله عليه و اله) زينب بنت جحش (ابنة عمته) زوجا لزيد، فامتنعت أن تتنازل عن مكانتها الاجتماعية و نسبها الرفيع لتتزوج رجلا سبق له أن كان رقاً. و لكن إيمانها الصادق دفعها لتستجيب لأمر الله تعالى حيث يقول : **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**^{٣٠٩}.

و بذلك ضرب الرسول (صلى الله عليه و اله) مثالا رائعا للقضاء على الأعراف الجاهلية البالية تطبيقا لقيم الرسالة الخالدة . و لكن تفاوت الثقافة و تنافر الطباع حالا دون نجاح تجربة رائدة في مجتمع كان لا يزال يعاني من ترسبات الجاهلية و تدخل النبي (صلى الله عليه و اله) ليصلح ما فسد محاولا أن لا يصل إلى طريق مسدود فقال لزيد:

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تَكَرَّرتْ شَكْوَى زَيْدٍ مِنْ زَيْنَبَ فَكَانَ آخِرَهَا الطَّلَاقَ.

ثم نزل الأمر الإلهي ليبطل ما تعارف عليه العرب من اعتبار الأدعياء (من ادعى بنوتهم) أبناء فقال تعالى : **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ**

ص: PAGE=١٥١:

وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ^{٣١٠}، و أبقى لهم حق الموالاة و الاخوة في الدين.

^{٣٠٦} (3) امتناع الأسماع 1/ 202.

^{٣٠٧} (4) راجع السيرة النبوية: 2/ 292.

^{٣٠٨} (1) أسد الغاية: 2/ 235، الاستيعاب مادة: زيد.

^{٣٠٩} (2) الأحزاب (33): 36.

^{٣١٠} (1) الأحزاب (33): 4.

و أراد الله سبحانه أن ينسف هذا العرف الباطل فأمر نبيه (صلى الله عليه و اله) أن يتزوج زينب بعد طلاقها من زيد، و إكمال عدتها بعد أن نزلت الآيات الكريمة تحت النبي (صلى الله عليه و اله) على إبطال هذا العرف الجاهلي و أن لا يخشى الناس بل يمضى فى تطبيق أحكام الله تعالى بكل شجاعة^{٣١١}.

ص:PAGE=١٥٣:

الفصل الثالث تظاهر قوى الشرك و الرد الإلهي الحاسم

تحالف قوى الشرك و غزوة الخندق:

أشرفت السنة الخامسة على الانتقضاء و كانت كل الأحداث و التحركات العسكرية التى خاضها المسلمون تهدف الى الدفاع عن كيان الدولة الفتية، و توفير الأمن فى محيط المدينة و أفرزت الأحداث تنوعا و تعددا فى الجهات و الأطراف المعادية للدين و للدولة الإسلامية. فسعى اليهود لاستثمار هذا التنوع بتجميعه و تمويله و إثارة النزعة العدائية فيه لاستئصال الوجود الإسلامى من الجزيرة، و من ذلك أنهم أوهموا المشركين الذين تساءلوا عن مدى أفضلية الدين الإسلامى على الشرك، بأن الوثنية خير من دين الاسلام^{٣١٢} و تمكنوا من جمع قبائل المشركين و تعبثهم و سوقهم صوب المدينة عاصمة الدولة الإسلامية. و سرعان ما وصل الخبر الى مسامع النبي (صلى الله عليه و اله) و هو القائد المتحفز اليقظ و المدرك لكل التحركات السياسية، من خلال العيون الثقات.

و استشار النبي (صلى الله عليه و اله) أصحابه فى معالجة الأمر و توصلوا الى فكرة حفر خندق يحصن الجانب المكشوف من المدينة. و خرج النبي (صلى الله عليه و اله) مع المسلمين ليشاركهم فى حفر ذلك الخندق بعد تقسيم العمل بينهم و كان يحضهم بقوله:

ص:PAGE=١٥٤:

«لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم إغفر للأتباع و المهاجرة»^{٣١٣}.

و لم يخل الأمر عن دور للمنافقين و المتقاعسين عن العمل رغم الهمة و الحماس الذى أظهره المخلصون من المسلمين^{٣١٤}.

و أحاطت قوى الأحزاب المشركة البالغة نحو عشرة الاف مقاتل بالمدينة يمنعها الخندق و تسيطر عليها الدهشة لهذا الاسلوب الدفاعى الذى لم تكن تألفه من قبل. و خرج النبي (صلى الله عليه و اله) فى ثلاثة آلاف مقاتل و نزل فى سفح جبل سلع و وزع المهام و الأدوار لمواجهة الطوارئ.

و بقيت الأحزاب تحاصر المدينة ما يقرب من شهر عاجزين عن اقتحامها، و كانت هناك مواقف رائعة للمسلمين و كان بطلها الأوحى بن أبى طالب (عليه السلام)، و قد توج النبي (صلى الله عليه و اله) موقف على بن أبى طالب البطولى

^{٣١١} (2) راجع سورة الأحزاب (33): 37-40، و راجع تفسير الميزان: 16 / 290، مفاتيح الغيب: 25 / 212، روح المعاني: 22 / 23.

^{٣١٢} (1) كما ورد فى قوله تعالى فى الآية 51 من سورة النساء.

^{٣١٣} (1) راجع البداية و النهاية لابن كثير: 4 / 96، و المغازي: 1 / 453.

^{٣١٤} (2) نزلت آيات من القرآن الكريم تفضح السلوك التخادلى و تدعم مركزية العمل بوجود الرسول القائد (صلى الله عليه و اله). راجع سورة الأحزاب، الآيات: 12-20.

عند ما خرج لمبارزةً صنيدياً من صناديد العرب - هو عمرو بن عبدود - بعد أن أحجم المسلمون عن الخروج إليه بقوله (صلى الله عليه و اله): «برز الإيمان كله الى الشرك كله»^{٣١٥}.

و حاول المشركون الاستعانة بيهود بنى قريظة بالرغم من انهم كانوا قد تعاهدوا مع رسول الله (صلى الله عليه و اله) ان لا يدخلوا فى حرب ضد المسلمين، و تيقن الرسول القائد (صلى الله عليه و اله) من عزيمة اليهود على المشاركة فى القتال و فتح جبهة داخلية ضد المسلمين فأرسل اليهم سعد بن معاذ و سعد بن عبادة فرجعوا مؤكداين الخبر فكبر الرسول (صلى الله عليه و اله) قائلاً: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بالفتح»^{٣١٦}.

ص: PAGE=١٥٥ص:

الضغط على المسلمين:

لقد تعرض المسلمون لضغوط عديدة أثناء الحصار منها:

١- تناقص الأقوات (المواد الغذائية) حتى بدى شبح المجاعة يدنو من المسلمين^{٣١٧}.

٢- صعوبة الظروف الجوية حيث البرد القارس فى لىالى الشتاء الطويلة.

٣- الحرب النفسىة المريرة التى شنتها جيوب المنافقين فى صفوف المسلمين و تخذيلهم عن القتال و تخويفهم من مغبة الاستمرار فى الصمود.

٤- السهر المستمر طوال مدة الحصار حذرا من الهجوم المباغت، فقد أتعب ذلك المسلمين بالنظر إلى عددهم القليل اذا ما قيس الى كثرة قوآت الأحزاب.

٥- غدر بنى قريظة حيث أصبح خطرا حقيقيا يهدد قوات المسلمين داخليا و يزيدهم قلقا على سلامة أهاليهم داخل المدينة.

هزيمة العدو:

لقد كانت قوى الأحزاب ذات نوايا و أهداف متخالفة، فاليهود كانوا يحاولون استعادة نفوذهم على المدينة بينما كانت قريش مندفعة بعدائها للرسول و الرسالة و كانت غطفان و فزارة و غيرها طامعة فى محاصيل خيبر التى وعدّها اليهود . هذا من جانب. و من جانب آخر أحدثت قسوة ظروف الحصار كللا و مللا فى نفوس الأحزاب الى جانب ما واجههوه من التحصين و قوة المسلمين التى أبدوها و ما قام به «نعيم بن مسعود» من إحداث شرخ فى تحالف الأحزاب

ص: PAGE=١٥٦ص:

^{٣١٥} (3) بحار الأنوار: 215 / 20. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 283 / 13 و 291 / 14 - 292 و 63 / 19 - 64 و السيرة النبوية: 281 / 3 و راجع مستدرك الحاكم: 32 / 3.
^{٣١٦} (4) المغازي: 1 / 456، بحار الأنوار: 222 / 20.
^{٣١٧} (1) راجع المغازي: 2 / 465، 475، 489.

و اليهود إذ أقدم - بعد اسلامه - الى الرسول (صلى الله عليه و اله) قائلا: مرني ما شئت فقال له (صلى الله عليه و اله):
«أنت فينا رجل واحد، فخذلّ عنا ما استطعت فإنّ الحرب خدعة».

و أرسل الله سبحانه و تعالى على الأحزاب ريحا عاتية باردة أحدثت فيهم رعبا و قلقا فاقتلعت خيامهم و كفأت قدورهم،
فنادى أبو سفيان بقريش للرحيل فأخذوا معهم من الم تاع ما استطاعوا حمله و فروا هاربين و تبعتهم سائر القبائل حتى إذا
أصبح الصباح لم يبق أحد منهم **وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**^{٣١٨}.

غزو بني قريظة و تصفية يهود المدينة:

لقد كشف يهود قريظة عن الحقد و العدا الذي انطوت عليه نفوسهم يوم الخندق و لو لا أن الله أخزى الأحزاب لتمكن
يهود بني قريظة من الفتك بالمسلمين من خلف ظهورهم فكان لا بد للرسول (صلى الله عليه و اله) من معالجة موقفهم
الخياني، و لهذا أمر النبي (صلى الله عليه و اله) أن يتحرك المسلمون لمحاصرة اليهود في حصونهم من دون أن يعطى
فرصة للاستراخ مظهرا بذلك أهمية الحركة العسكرية الجديدة فأذن المؤذن في الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين
العصر ألا في بني قريظة^{٣١٩}.

و أعطى النبي (صلى الله عليه و اله) رأيته لعلى (عليه السلام) و تبعه المسلمون مع ما بهم من ألم الجوع و السهر و الجهد
من أثر محاصرة الأحزاب ... و استولى الهلع و الخوف على اليهود حين رأوا الرسول (صلى الله عليه و اله) و المسلمين
يحيطون بهم و أيقنوا أن النبي غير منصرف عنهم حتى يناجزهم.

و طلب اليهود أبا لبابة بن عبد المنذر - و كان من حلفائهم الأوس -

ص: PAGE=١٥٧ص:

يستشيرونه في أمرهم و لكنه كشف لهم عمّا كان يعلمه من مصيرهم حين قاموا إليه صغارا و كبارا بيبكون^{٣٢٠} . و لم يقبل
النبي (صلى الله عليه و اله) عرض بني قريظة و هو الارتحال عن المدينة من دون عقوبة بسبب موقفهم الخياني السابق و
أبى إلا النزول على حكم الله و رسوله، و حاول الأوس التوسط - بطلب من اليهود - لدى النبي (صلى الله عليه و اله) فقال
(صلى الله عليه و اله): الا ترضون أن أجعل بيني و بين حلفائكم رجلا منكم؟ قالوا:

بلى يا رسول الله، قال (صلى الله عليه و اله): فقولوا لهم أن يختاروا من الأوس من شاؤوا. فاختر اليهود سعد بن معاذ^{٣٢١}
حكما و كان هذا من سوء حظ اليهود؛ لأن سعدا جاءهم يوم تجمعت الأحزاب طالبا منهم الحياد في الموقف فأبوا ذلك . و
كان سعد جريحا فحملوه إلى رسول الله (صلى الله عليه و اله) فاستقبله و قال (صلى الله عليه و اله) لمن حوله: قوموا إلى
سيدكم، فقاموا إليه . ثم حكم سعد بقتل الرجال و سبى النساء و الذراري و تقسيم الأموال على المسلمين، فقال له النبي
(صلى الله عليه و اله): لقد حكمت فيهم بحكم الله فوق سبع أرقعة^{٣٢٢}.

^{٣١٨} (1) نزلت سورة الأحزاب و فيها تفاصيل ما جرى يوم الخندق

^{٣١٩} (2) الطبري: 179 / 3.

^{٣٢٠} (1) السيرة النبوية: 237 / 2.

^{٣٢١} (2) السيرة النبوية: 239 / 2، الارشاد: 50.

^{٣٢٢} (3) راجع السيرة النبوية: 240 / 2، المغازي: 510 / 2.

ثم إن رسول الله (صلى الله عليه و اله) قسّم أموال بنى قريظة و نساءهم و أبناءهم على المسلمين بعد ما أخرج الخمس، للفرس ثلاثة أسهم و للراجل سهم، ثم أعطى الخمس الى زيد بن حارثة و أمره أن يشتري بها خيلا و سلاحا و غيرها من عدة الحرب استعدادا للمهام اللاحقة^{٢٢٣}.

ص: PAGE=١٥٩ص:

الباب الخامس فيه فصول:

الفصل الأول:

مرحلة الفتح الفصل الثاني:

الاسلام خارج الجزيرة الفصل الثالث:

تصفية الوجود الوثني داخل الجزيرة الفصل الرابع:

أيام الرسول الأخيرة الفصل الخامس:

من معالم الرسالة الاسلامية الخاتمة الفصل السادس:

تراث خاتم المرسلين (صلى الله عليه و اله)

ص: PAGE=١٦١ص:

الفصل الأول مرحلة الفتح

١- صلح الحديبية:

كادت تنتهى السنة السادسة للهجرة و كانت تلك السنة سنة جهاد مستمر و دفاع مستميت بالنسبة للمسلمين . و اهتم المسلمون بنشر الرسالة الإسلامية و بناء الانسان و المجتمع الإسلامى و تكوين الحضارة الاسلامية . و قد ادرك كل من كان فى الجزيرة العربية عظمة هذا الدين و عرف أن من المستحيل استئصاله و القضاء عليه، فالصراع مع قريش - و هى أكبر قوة سياسية و عسكرية آنذاك - و مع اليهود و باقى القوى المشركة لم يمنع من انتشار الإسلام و سطوع معانيه و بلوغ أهدافه.

و لم يكن البيت الحرام ملكا لأحد أو حكرا لمذهب أو أصحاب معتقد معين، فقد كانت هنالك أصنام و أوثان متعددة يحج إليها من يعتقد بها، إلا أن طغيان قريش و عتوها صدّ النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمين عن زيارة البيت الحرام.

و فى هذه الفترة أدرك النبي (صلى الله عليه و اله) حرج قريش فى موقفها تجاه الإسلام فقرر أن ينطلق بالمسلمين فى رحلة عبادية مؤديا العمرة، ليعلن من خلالها مواصلته للدعوة الإسلامية و يوضح ما يمكنه من مفاهيم العقيدة الاسلامية و

^{٢٢٣} (4) السيرة النبوية: 241 / 2.

معالمها واحترامها وتقديسها للبيت الحرام، وتكون حركته هذه مرحلة انفتاح رسالي جديد وعهد انتقال من مرحلة الدفاع الى مرحلة الانتشار والهجوم.

ص: ١٦٢=PAGE:

سلك الرسول (صلى الله عليه و اله) و أصحابه طريقا و عرا ثم هبطوا إلى منطقة سهلة تدعى ب «الحديبية» فبركت ناقة رسول الله فقال (صلى الله عليه و اله): «ما هذا لها عادة و لكن حبسها حابس الفيل بمكة»^{٣٢٤}، فأمر (صلى الله عليه و اله) المسلمين بالنزول فيها- و قال (صلى الله عليه و اله): «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطئة يسألونني فيها صلة الرحم إلّا أعطيتهم إياها»^{٣٢٥}، و لكن قريشا بقيت تترصد المسلمين و وقف فرسانها في طريقهم، ثم بعثت إلى النبي (صلى الله عليه و اله) بديل بن ورقاء في وفد من خزاعة لتستعلم هدف النبي (صلى الله عليه و اله) و تصده عن دخول مكة، و عاد الوفد ليقنع قريشا أن السلم و العمرة هدف النبي (صلى الله عليه و اله). و استكبرت قريش و بعثت بوفد آخر يرأسه الحليس- سيد الأحابيش - فلما رآه النبي (صلى الله عليه و اله) مقبلا قال: «إن هذا من قوم يتألهون» (أى يعظمون الله). فلما رأى الحليس الهدى رجع الى قريش من دون أن يلتقى بالنبي (صلى الله عليه و اله) ليقنع قريشا ان النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمين جاءوا معتمرين . و لكن لم تقتنع قريش فأرسلت مسعود بن عروة الثقفي الذي انهر من مشهد المسلمين و هم يتسابقون لالتقاط القطرات المتناثرة من وضوئه (صلى الله عليه و اله) فعاد الى قريش قائلا: يا معشر قريش إنني قد جئت كسرى في ملكه و قيصر في ملكه و النجاشي في ملكه، و إنني و الله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل «محمد» في أصحابه، و لقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء قط فروا رأيكم^{٣٢٦}.

و قد أعرب النبي (صلى الله عليه و اله) عن احترامه للأشهر الحرم من خلال رحلة المسلمين العبادية حيث لم يحملوا معهم سوى سلاح المسافر، كما دعا القبائل المجاورة أن يكونوا الى جانب المسلمين في هذه الرحلة رغم أنهم لم يكونوا مسلمين مؤكدا أن العلاقة بين الاسلام و باقى القوى غير قائمة على أساس الحرب.

ص: ١٦٣=PAGE:

و استنفر النبي (صلى الله عليه و اله) ألفا و أربعمائة مسلم - على أقل التقادير- و ساق الهدى أمامه (سبعين بعيرا). و بلغ قريشا نبأ خروج النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمين لأداء العمرة فأصبحت قريش فى ضيق من أمره ا و كان أمامها طريقان: إما أن تسمح للمسلمين بأداء العمرة و بذلك يتحقق للمسلمين أملهم فى زيارة البيت الحرام و يحظى المهاجرون بالاتصال بأهلهم و ذويهم و ربما دعوتهم الى الاسلام، أو أن تمنع قريش المسلمين عن دخول مكة و بذلك ستتعرض مكانة قريش للاهتزاز و تكون محطاً للوم القبائل الاخرى بسبب سوء معاملتها لقوم مسالمين يبتغون أداء مناسك العمرة و تعظيم الكعبة المشرفة لا غير.

لقد أبت قريش إلّا العتو و المعاندة فأخرجت مجموعة من فرسانها تقدّر بمئتي فارس بقيادة خالد بن الوليد لمواجهة النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمين. و لما كان النبي (صلى الله عليه و اله) قد خرج محرما لا غازيا قال (صلى الله عليه و اله): يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ما ذا عليهم لو خلوا بيني و بين سائر العرب فإن هم أصابوني كان الذى أرادوا، و إن

^{٣٢٤} (1) بحار الأنوار: 20 / 229.

^{٣٢٥} (2) الطبري: 3 / 216.

^{٣٢٦} (3) المغازي: 2 / 598.

أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، و إن لم يفعلوا قاتلوا و بهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.

ثم أمر بالعدول عن طريق فرسان قريش تجنباً لوقوع قتال تتخذه قريش ذريعة لصحة موقفها و فخرا لها . و أرسل النبي (صلى الله عليه و اله) خراش بن امية الخزاعي ليفاوض قريشا في الأمر، فعقروا ناقته و كادوا أن يقتلوه . و لم ترع قريش حرمة و لاذمة للأعراف و التقاليد . و لم تلبث قريش أن كلفت خمسين رجلا للتحرش بالمسلمين عسى أن يبدر منهم ما ينفي صفة السلم عنهم . و فشلت خطتهم و تمكن المسلمون من أسرهم فعفا رسول الله (صلى الله عليه و اله) عنهم مؤكداً بذلك هدفه السلمي^{٣٢٧}.

ص:١٦٤=PAGEص:

و أراد النبي (صلى الله عليه و اله) أن يبعث الى قريش رسولا آخر- و لم يتمكن من إرسال على بن أبي طالب ممثلاً عنه؛ لأن علياً كان قد وتر قريش بقتل صناديدها في معارك الدفاع عن الإسلام، فانتدب عمر بن الخطاب و لكن عمر خاف من قريش على نفسه رغم أنه لم يقتل فرداً من أفرادها و اقترح على النبي (صلى الله عليه و اله) أن يرسل عثمان بن عفان^{٣٢٨}؛ لكونه أموياً و ذا قرابة مع أبي سفيان . و تأخر عثمان في العودة من قريش و اشيع خبر مقتله، فكان هذا إنذاراً ب فشل كل المساعي السلمية لدخول مكة . و لم يجد الرسول (صلى الله عليه و اله) بداً من التهيؤ للقتال، و هنا كانت بيعة الرضوان إذ جلس النبي (صلى الله عليه و اله) تحت شجرة و أخذ أصحابه يبائعونه على الاستقامة و الثبات مهما كلف الأمر، و هدأ استنفار المسلمين بعودة عثمان. و ارسلت قريش سهيل بن عمرو لمفاوضة النبي (صلى الله عليه و اله).

شروط الصلح:

و بسبب تشدد «سهيل» في شروط الصلح كادت المفاوضات أن تفشل، و أخيراً تمّ الاتفاق على عدّة شروط للصلح، هي:

- ١- تعهد الطرفین بترك الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس و يكف بعضهم عن بعض.
- ٢- من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، و من جاء قريشا ممن مع «محمّد» لم يردّوه عليه.
- ٣- من أحب أن يدخل في عقد «محمّد» و عهده دخل فيه و من أحب أن يدخل في عقد قريش و عهدهم دخل فيه .
- ٤- يرجع «محمّد» بأصحابه إلى المدينة عامه هذا فلا يدخل مكة، و إنما

ص:١٦٥=PAGEص:

يدخل مكة في العام القادم فيقيم فيها ثلاثة أيام ليس معه سوى سلاح الراكب، و السيوف في القرب^{٣٢٩}.

^{٣٢٧} (1) تاريخ الطبري: 223 / 3.

^{٣٢٨} (1) السيرة النبوية: 315 / 2.

^{٣٢٩} (1) السيرة الحلبية: 21 / 3.

٥- لا يستكره أحد على ترك دينه و يعبد المسلمون الله بمكة علانية و بحرية و أن يكون الاسلام ظاهرا بمكة و أن لا يؤذى أحد و لا يعير^{٣٣٠}.

٦- لا إسلال (سرقة) و لا إغلال (خيانة) بل يحترم الطرفان أموال الطرف الآخر^{٣٣١}.

٧- لا تعيين قريش على «محمد» و أصحابه أحدا بنفس و لا سلاح^{٣٣٢}.

و لم يرض نفر من المسلمين ببند الصلح، فاعترضوا على النبي (صلى الله عليه و اله) متصورين أن النبي (صلى الله عليه و اله) قد تراجع أمام قريش و لم يدركوا أن النبي (صلى الله عليه و اله) مسدد من الله و أنه ينظر بعين متطلعة الى مستقبل الرسالة الإسلامية و مصالحها العليا . و ردّ النبي (صلى الله عليه و اله) على المعترضين بقوله: «أنا عبد الله و رسوله لن أخالف أمره و لن يضيعني».

و أقرّ النبي ما كرهه بعض المسلمين، و جاءت قضية تسليم أبي جندل لقريش^{٣٣٣} إثارة جديدة في ظرف توتر فيه الوضع النفسى عند بعضهم.

و لكن هذا الصلح كان فى الواقع فتحا مبينا و كبيرا للمسلمين على خلاف ما كان يبدو للبعض من ظاهر بنود الصلح؛ إذ انقلبت شروط المعاهدة لصالح المسلمين بعد قليل.

و فى طريق الرجوع الى المدينة نزلت آيات القرآن الكريم^{٣٣٤} لتؤكد البعد

ص:١٦٦=PAGEص:

الحقيقى للصلح مع زعيمة الوثنية، و تبشّر المسلمين بدخول مكة قريبا.

نتائج صلح الحديبية:

- ١- اعترفت قريش بكيان المسلمين كقوة عسكرية و سياسية منظمة، و كدولة حقيقية جديدة.
- ٢- دخلت المهابة فى قلوب المشركين و المنافقين و تصاغر دورهم، و ظهر ضعفهم عند المواجهة.
- ٣- أعطت الهدنة فرصة لنشر الاسلام و دخلت قبائل كثيرة فى الاسلام . و قد كان رسول الله (صلى الله عليه و اله) يتوقع منذ بدء حركته الرسالية الإسلامية أن تترك قريش له فرصة يعبر فيها بحرية عن موقفه، و يشرح الإسلام للناس بأمان.
- ٤- أمن المسلمون جانب قريش فحوّلوا ثقلهم و جهودهم لمواجهة اليهود و سائر المناوئين.

^{٣٣٠} (2) بحار الأنوار: 352 / 20.

^{٣٣١} (3) مجمع البيان: 117 / 9.

^{٣٣٢} (4) بحار الأنوار: 352 / 20.

^{٣٣٣} (5) السيرة الحلبية: 21 / 3، السيرة النبوية: 218 / 2، بحار الأنوار: 252 / 20.

^{٣٣٤} (6) راجع سورة الفتح (48): 1- 7 و 18- 28.

٥- جعلت مفاوضات الصلح حلفاء قريش يفتقرون موقف المسلمين و يميلون إليهم.

٦- مكّن الصلح النبيّ (صلى الله عليه و اله) من أن يرأس الملوك و رؤساء الدول خارج الجزيرة لدعوتهم إلى الاسلام، و أن يستعدّ لغزوة مؤتة، كخطوة لنقل الإسلام خارج منطقة الجزيرة العربية.

٧- مهّد الصلح لفتح مكة- التي كانت أهم قلاع الوثنية حين ذاك- في مراحل لاحقة.

٢- انطلاقة الرسالة الاسلامية الى خارج المدينة:

لقد كانت محاولات قريش للقضاء على الاسلام فيما مضى عاملا لانشغال النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمين في معارك الدفاع و التحصين و تثبيت أركان الدولة

ص:١٦٧=PAGEص:

و المجتمع الإسلامي عدة سنين فلم يستطع خلالها أن يبلغ بحرية تامّة رسالته السماوية العالمية و الخاتمة لكل الأديان . و لكن بتوقيع معاهدة صلح الحديبية أمن الرسول جانب قريش و أتاحت هذه العملية فرصة مناسبة لأن يبعث الرسول الأعظم (صلى الله عليه و اله) سفراءه الى زعماء القوى الكبرى المحيطة بالجزيرة العربية و الى كل رؤساء المجاميع في الجزيرة و خارجها يدعوهم الى الاسلام بعد بيان التعاليم الإلهية لهم.

فقد روى أنه (صلى الله عليه و اله) قال في أصحابه: «أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة و كآفة فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم».

فقال أصحابه: و كيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال (صلى الله عليه و اله): «دعاهم الى الذي دعوتكم إليه فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى و سلّم و أما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه و تناقل»^{٣٣٥}.

و انطلقت رسل الدعوة و الهداية تنقل أمر رسول الله (صلى الله عليه و اله) الى نقاط العالم المختلفة^{٣٣٦}.

٣- غزوة خيبر^{٣٣٧}:

بجهود صادقة و بحنكة كبرى و شجاعة فائقة و تسديد إلهي ارتقى النبي (صلى الله عليه و اله) بالمسلمين سلّم الوعي الرسالي و الثبات و الخير و زرع فيهم روح الصبر و التواصل .. و انطلق (صلى الله عليه و اله) برسالته السماوية إلى العالم الإنساني خارج الجزيرة العربية من خلال كتبه و رسله الى زعماء القوى المجاورة.

ص:١٦٨=PAGEص:

^{٣٣٥} (1) السيرة النبوية: 2/606، و الطبقات الكبرى: 1/264.

^{٣٣٦} (2) قد عدّ علماء الاسلام ما يقارب من (185) كتابا و رسالة بعثها رسول الله (صلى الله عليه و اله) إلى كل القوى يدعوها إلى الإسلام .

راجع: مكاتيب الرسول لعلي بن حسين علي الأحمدي

^{٣٣٧} (*) وقعت هذه الغزوة في شهر جمادى الآخرة من السنة السابعة للهجرة، راجع الطبقات الكبرى/2/77.

و توقع النبي (صلى الله عليه و اله) أن تكون ردود الفعل مختلفة فقد يكون بعضها هجوما عسكريا يقصد المدينة مستعينا بما فيها من بقية جيوب المنافقين و اليهود و هم الذين حفل تاريخهم بالغدر و الخيانة.

و كانت خيبر تمثل حصنا قويا و مركزا كبيرا لليهود و لهذا قرر النبي (صلى الله عليه و اله) أن يقضى على هذه القوة المتبقية، فلم يلبث بعد عودته من الحديبية إلا أياما قلائل حتى جهز جيشا بلغ تعداده ألفا و ستمائة من المسلمين مؤكدا لهم أن لا يخرجوا في ابتغاء الغنيمه و قال (صلى الله عليه و اله): «لا يخرجنّ معنا إلا راغب في الجهاد»^{٣٣٨}.

و اتبع النبي (صلى الله عليه و اله) اسلوبا يوهم حلفاء اليهود و يمنهم عن المبادرة لنصرتهم؛ تجنبنا لمزيد من القتال.

فباغتت قوات المسلمين حصون اليهود يتقدمها على بن أبي طالب (عليه السلام) حاملا راية رسول الله (صلى الله عليه و اله).

و امتنعت اليهود في حصونهم المنيعه بخطه محكمة كانوا قد اتبعوها، ثم دارت مناوشات متعددة تمكن المسلمون خلالها من احتلال عدة مواقع مهمه.

على أن القتال اشتد و طال مدة الحصار و عانى المسلمون من قسوة الجوع حتى أنهم أكلوا طعاما غير مستساغ.

و أعطى رسول الله (صلى الله عليه و اله) رايته الى عدد من الصحابة ليتم الفتح على أيديهم فلم يأتوا إلا بالفرار و الفشل . و لما بلغ الجهد بالمسلمين قال النبي (صلى الله عليه و اله): «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله كراة غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه»^{٣٣٩}.

ص:١٦٩=PAGEص:

و دعا في اليوم التالي عليا و أعطاه الراية فتم الفتح على يديه و سر المسلمون و النبي (صلى الله عليه و اله) جميعا، و صالح رسول الله (صلى الله عليه و اله) البقية الباقية من اليهود بعد استسلامهم على نصف ثمار مزارعهم التي أصبحت ملكا للمسلمين، و لم يعاملهم كما عامل بنى النضير و بنى القينقاع و بنى قريظة؛ إذ لم تعد قوة اليهود الباقية ذات أثر مهم في المدينة.

٤- محاولة اغتيال النبي (صلى الله عليه و اله):

لقد قررت جماعة في الخفاء قتل النبي (صلى الله عليه و اله) غيلة شفاء لحقدهم الدفين و إرضاء لنزعاتهم العدوانية و لهذا أهدت زينب بنت الحارث - زوجة سلام بن مشكم اليهودي - الى النبي (صلى الله عليه و اله) شاء مشوية و دسّت السمّ فيها و أكثرت منه في ذراعها إذ كلنت تعلم أن النبي (صلى الله عليه و اله) يحب الذراع من الشاة.

^{٣٣٨} (1) الطبقات الكبرى: 106 / 2.

^{٣٣٩} (2) السيرة النبوية: 337 / 2. صحيح مسلم 176 / 15 - 177 و فضائل الصحابة: 603 / 2 و مسند الإمام أحمد: 384 / 3 و المواهب اللدنية: 284 / 1، و الاستيعاب: 203 / 3، كنز العمال: 123 / 13.

فلما وضعتها بين يديه أخذ (صلى الله عليه و اله) الذراع فلاك منها مضغة فلم يسعها و لفظها، بينما مات بشر بن البراء بن معرور بعد أن ابتلع مضغة أخرى منها.

و عفا النبي (صلى الله عليه و اله) عنها بعدما اعترفت له بذلك زاعمة أنها كانت تريد اختبار نبوته، و لم يلاحق النبي (صلى الله عليه و اله) الذين تواطأوا معها^{٣٤٠}.

٥- استسلام أهالي فدك:

و تهاوت أوكار الخيانة أمام صولات الحق و العدل، فما أن تم نصر الله في خيبر حتى قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك فبعثوا إلى رسول الله (صلى الله عليه و اله) يصالحوه على نصف محاصيل فدك و أن يعيشوا تحت راية الحكم الإسلامي، مطيعين مسالمين فوافق رسول الله (صلى الله عليه و اله) على ذلك.

ص: ١٧٠=PAGEص:

و بهذا أصبحت فدك ملكا لرسول الله (صلى الله عليه و اله) خاصة بحكم القرآن لأنها مما لم يوجف عليه بخيل و لا سلاح إذ أعلنت استسلامها للنبي (صلى الله عليه و اله) من دون تهديد أو قتال. و قد وهب رسول الله (صلى الله عليه و اله) فدكا لابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام)^{٣٤١}.

و بهذا تم تطهير أرض الجزيرة العربية من جيوب الخيانة و تخلّصت من فتن اليهود الذين جردوا من أسلحتهم و وضعوا تحت حماية القانون و الدولة الإسلامية.

و فى يوم فتح خيبر أقبل جعفر بن أبى طالب من الحبشة، فاستقبله رسول الله و قبّل ما بين عينيه و قال : بأيهما اسرّ بفتح خيبر أم بقدم جعفر^{٣٤٢}.

٦- عمرة القضاء:

انقضت أيام الهدنة و النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمون فى عمل دؤوب متواصل لتركيز دعائم الحكم الإسلامي، و لم تحدث تحركات عسكرية مهمة بعد فتح خيبر سوى خروج سرايا تبليغية أو تأديبية لبعض العناصر التى كانت تظهر الشغب.

و مضى عام على صلح الحديبية إلّتم خلال الطرفان بينود الاتفاق و حلّ الوقت الذى أصبح النبي و المسلمون فى حلّ من عهدهم لزيارة بيت الله الحرام، فنادى منادى الرسول (صلى الله عليه و اله) أن يتجهز المسلمون لأداء عمرة القضاء . و خرج مع النبي (صلى الله عليه و اله) ألفان من المسلمين لا يحملون سلاحا إلّا السوف فى القرب، و كان من حيطة النبي و حذره من احتمال الغدر أن جهّز مجموعة مسلحة عند (مر الظهران) ليكونوا القوة المستعدة للدفاع عند الطوارئ.

و لما وصل النبي (صلى الله عليه و اله) ذا الحليفة أحرم هو و أصحابه و ساق معه ستين بدنة،

^{٣٤٠} (١) السيرة النبوية: 337 / 2، المغازي: 677 / 2.

^{٣٤١} (١) مجمع البيان: 411 / 3، شرح ابن أبي الحديد: 268 / 16، الدر المنثور: 177 / 4.

^{٣٤٢} (٢) الطبقات الكبرى: 108 / 2، و السنن الكبرى للبيهقي: 101 / 7، و السيرة النبوية لابن كثير: 398 / 3.

وقدم الخيل أمامه، وكانت نحواً من مائة بقيادة محمد بن مسلمة . وخرج زعماء مكة ومن تبعهم الى رؤوس الجبال و التلال المجاورة المطلّة على مكة زاعمين أنهم لا يريدون النظر الى وجه النبي (صلى الله عليه و اله) و لا الى اصحابه، و لكن جلاله الرسول (صلى الله عليه و اله) و هيبة منظر المسلمين الذين كانوا قد احتفوا بالرسول و هم يرددون التلبية بهرت عيونهم و تركتهم مذهولين ينظرون الى النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمين و هم يؤدون مناسكهم.

و طاف النبي (صلى الله عليه و اله) حول البيت على راحلته التي كان يقودها عبد اللّ بن رواحة و أمر أن ينادى المسلمون بصوت عال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، و نصر عبده، و أعزّ جنده و هزم الأحزاب وحده».

فدوى النداء فى مكة و شعابها فانصدعت قلوب المشركين رعباً و تملكهم الغيظ و الحقد من مظاهر النصر الإلهى للنبي (صلى الله عليه و اله) الذى خرج منهم طريداً قبل سبع سنين.

و أتم النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمون مناسك العمرة، و أيقنت قريش بقوة الإسلام و المسلمين و أيقنت بكذب من أخبرها أن النبي (صلى الله عليه و اله) و من معه فى جهد و تعب و ضيق و حرج بسبب الهجرة إلى المدينة.

و صعد بلال على ظهر الكعبة و أعلن نداء التوحيد مؤذناً لصلاة الظهر بمظهر روحانى بهيج أغاظ رؤوس الكفر من قريش ... و قد كانت مكة كلّها تحت تصرف المسلمين.

و تفرق المهاجرون فيها و هم يصحبون إخوتهم الأنصار يزورون دورهم التي غادروها فى سبيل الله و يلتقون بأهلهم و ذويهم بعد فراق طويل.

و أمضى المسلمون ثلاثة أيام فى مكة ثم غادروها بموجب الاتفاق الذى كان بينهم و بين قريش بعد أن رفضت طلب النبي (صلى الله عليه و اله) بأن يتم مراسم زواجه من

«ميمونة» خاتنين من ازدياد قوة النبي (صلى الله عليه و اله) و اختراق الإسلام لمجتمع مكة من خلال طول مكث النبي (صلى الله عليه و اله) فيها.

و خَلَفَ النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أَبَا رَافِعٍ لِيَحْمِلَ إِلَيْهِ زَوْجَتَهُ «مَيْمُونَةَ» حِينَ يَمْسِي، إِذْ خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ صَلَاةِ الظُّهْرِ مِنْ مَكَّةَ^{٣٤٤}.

ص: PAGE=١٧٣:

الفصل الثاني الاسلام خارج الجزيرة

١- معركة مؤتة^{٣٤٥}:

عزم النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَلَى بَسْطِ الْأَمْنِ فِي شِمَالِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَعْوَةَ أَهْلِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالانْتِظَاقِ نَحْوِ الشَّامِ. مِنْ هُنَا بَعَثَ الْحَارِثُ بْنُ عَمِيرِ الْأَزْدِيِّ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرَةَ الْغَسَّانِي فَاَعْتَرَضَهُ شَرْحِبِيلُ بْنُ عَمْرِو الْغَسَّانِي فَقَتَلَهُ.

و فِي الْفِتْرَةِ نَفَسَهَا بَعَثَ الرَّسُولَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَعَدَا عَلَيْهِمْ أَهْلَ مَنْطِقَةِ «ذَاتِ أَطْلَاحٍ» مِنَ الشَّامِ وَقَتَلُوهُمْ وَبَلَّغَ خَبَرَ مَقْتَلِهِمُ الرَّسُولَ فَتَأَلَّمَ لَذَلِكَ كَثِيرًا وَانْتَدَبَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) الْمُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ، فَأَعَدَّ جَيْشًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفٍ مَقَاتِلٍ وَأَمَرَ عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ثُمَّ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ . وَخَطَبَ فِيهِمْ قَائِلًا: «اغزوا بسم الله ... أدعوهم إلى الدخول في الإسلام ... فإن فعلوا فاقبل منهم و اكف عنهم ... و إنا فقاتلوا عدو الله و عدوكم بالشام و ستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين الناس، فلا تعرضوا لهم، و ستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف، و لا تقتلن امرأة و لا صغيرا مرضعا و لا كبيرا فانيا، لا تغرقن نخلا و لا تقطعن شجرا و لا تهدموا بيتا»^{٣٤٤}.

ص: PAGE=١٧٤:

و خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) مَعَهُمْ مُودِّعًا حَتَّى بَلَغَ ثَنِيَةَ الْوُدَاعِ.

و لَمَّا بَلَغَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ مَنْطِقَةَ «مَشَارِقِ» فُوجِيَ بِالْعَدَةِ وَ الْعَدَدِ الضَّخْمِ لِجَيْشِ الرُّومِ إِذْ بَلَغَ عَدَدُهُمْ مَائَتِي أَلْفٍ مَقَاتِلٍ فَانْحَازَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مُؤْتَةَ وَ عَزَمُوا عَلَى مَقَاوِمِ الْعَدُوِّ . وَ لِأَسْبَابٍ عَدِيدَةٍ بَانَ الْانْكَسَارُ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلَ الْقَادَةَ الثَّلَاثَةَ جَمِيعًا . وَ كَانَ مِنْ عَوَامِلِ الْانْكَسَارِ أَنَّهُمْ كَانُوا يِقَاتِلُونَ فِي مَنْطِقَةٍ غَرِيبَةٍ عَلَيْهِمْ وَ بَعِيدَةٍ عَنِ مَرْكَزِ الْإِمْدَادَاتِ كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا يِقَاتِلُونَ مَهَاجِمِينَ وَ الرُّومَ بِالْعَدَدِ الضَّخْمِ يِقَاتِلُونَ مَدَافِعِينَ، هَذَا مِضَافًا إِلَى التَّفَاوُتِ فِي الْخِبْرَةِ الْقِتَالِيَّةِ فَجَيْشُ الرُّومِ قُوَّةٌ مَنْظُمَةٌ مَارَسَتْ حُرُوبًا سَجَالًا أَمَا جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ فَكَانَ قَلِيلَ الْعَدَدِ وَ الْخِبْرَةَ، فَتِيًّا فِي تَكْوِينِهِ^{٣٤٧}.

و لَقَدْ تَأَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) لِمَقْتَلِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَ بَكَاهُ بِشَدَّةٍ، وَ ذَهَبَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) إِلَى بَيْتِ جَعْفَرٍ يَعْزِي أَهْلَهُ وَ يُوَاسِي أَبْنَاءَهُ، كَمَا حَزَنَ كَثِيرًا عَلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ^{٣٤٨}.

٢- فتح مكة^{٣٤٩}:

^{٣٤٤} (1) السيرة النبوية: 372 / 2.
^{٣٤٥} (*) وقعت معركة مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة
^{٣٤٦} (1) المغازي: 758 / 2، راجع السيرة النبوية: 374 / 2.
^{٣٤٧} (1) السيرة النبوية: 381 / 2.
^{٣٤٨} (2) بحار الأنوار: 54 / 21، المغازي: 766 / 2، السيرة الحلبية: 68 / 3.

لقد اختلفت ردود فعل القوى في المنطقة بعد معركة م و تة، فالروم فرحوا من انسحاب المسلمين و عدم تمكنهم من دخول الشام.

أما قريش فقد سادهم الفرح و انبعثت فيهم الجرأة على المسلمين و أخذوا يسعون لنقض صلح الحديبية عبر الإخلال بالأمن فحرضوا قبيلة بنى بكر على بنى

ص: PAGE=١٧٥:

خزاعة (بعد أن دخلت قبيلة بنى بكر في حلف قريش و خزاعة في حلف النبي (صلى الله عليه و اله) اثر صلح الحديبية) و أمدها بالسلاح فعدت بكر على خزاعة غيلة و قتلوا عددا من أفرادها و هم في ديارهم آمنين، و كان بعضهم في حال العبادة ففزعوا إلى رسول الله (صلى الله عليه و اله) طالبين النصرة، و وقف عمرو بن سالم بين يدي رسول الله (صلى الله عليه و اله) - و هو جالس في المسجد- ينشد أبياتا يعرض فيها نقض العهد.

فتأثر الرسول (صلى الله عليه و اله) و قال: نصرت يا عمرو بن سالم.

أما قريش فقد انتهت و أدركت سوء فعلتها و قد تملكها الخوف و الهلع من المسلمين فاجتمع رأيهم على إيفاد أبى سفيان الى المدينة ليجدد الصلح و يطلب تمديد المدة من النبي (صلى الله عليه و اله).

و لكن النبي (صلى الله عليه و اله) لم يصغ لطلب أبى سفيان و سأله قائلا: هل كان من حدث؟ قال أبو سفيان: معاذ الله، فأجابه النبي (صلى الله عليه و اله): نحن على مدتنا و صلحنا.

لكن أبى سفيان لم يهدأ له بال و لم يقنع بل أراد أن يستوثق و يأخذ عهدا و أمانا من رسول الله (صلى الله عليه و اله) فسعى لتوسيط من يؤثر على النبي (صلى الله عليه و اله) فقابله الجميع بالرفض و اللامبالاة.

فلم يجد إلا أن يقفل راجعا بالخبيبة الى مكة و قد ضاقت الأمور على قوى الشرك حيث تبدلت الظروف، فالنبي (صلى الله عليه و اله) يطلب مكة فاتحا، بعدة تنزايد و إيمان يترسخ، و قريش تطلب الأمان و السلامة في دوائها و أموالها، و قد سنحت الفرصة بنقض الصلح. و تكاد تكون مكة آخر خطوة لتتم سيطرة الاسلام على الجزيرة العربية برمتها.

و أعلن النبي (صلى الله عليه و اله) النفير العام، و توافدت عليه جموع المسلمين مليية نداءه، فجهز جيشا قارب عدده عشرة آلاف رجل. و اجتهد النبي (صلى الله عليه و اله) أن يكتم قصده و هدفه إلا على الخاصة و كان (صلى الله عليه و اله) يدعو الله قائلا: «اللهم خذ العيون و الأخبار

ص: PAGE=١٧٦:

من قريش حتى نباغتها في بلادها»^{٣٥٠}.

^{٣٤٩} (3) تم فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة
^{٣٥٠} (1) السيرة النبوية: 3/ 397، المغازي: 2/ 796.

و يبدو أن النبي (صلى الله عليه و اله) كان يود أن يتحقق النصر المؤزر سريعا دون إراقة قطرة دم، متخذا أسلوب المباغته .
و لكن الخبر تسرب الى رجل كان قد ضعف أمام عواطفه فكتب الى قريش كتابا بذلك و بعثه مع امرأة توصله . و نزل
الوحي يخبر النبي (صلى الله عليه و اله) بذلك فأمر عليا و الزبير بأن يلحقا المرأة و يسترجعا الكتاب، و انتزع على بن
أبي طالب بقوة إيمانه برسول الله (صلى الله عليه و اله) الكتاب من المرأة^{٣٥١}.

و لما استلم الرسول (صلى الله عليه و اله) الكتاب جمع المسلمين في المسجد ليثير همهم و يحذر من مسألة الخيانة من
جانب و يبين من جانب آخر أهمية كتب؟؟؟ العواطف مرضاة لله . و قام المسلمون يدفعون حاطب بن أبي بلتعة صاحب
الكتاب الذي حلف بالله أنه لم يقصد الخيانة و انفع عمر بن الخطاب و طلب من النبي أن يقتله فقال له : «و ما يدريك يا
عمر لعل الله اطلع على أهل بدر و قال لهم إعملوا ما شئتم فلقد غفرت لكم»^{٣٥٢}.

تحرك الجيش الإسلامي نحو مكة:

و تحرك جيش المسلمين في العاشر من شهر رمضان باتجاه مكة المكرمة، و لما بلغ مكانا يدعى «الكديد» طلب النبي
(صلى الله عليه و اله) ماء فأفطر به أمام المسلمين و أمرهم أن يفطروا لكن بعضا منهم عصوا الرسول القائد و لم يفطروا
فغضب من عصيانهم و قال: «أولئك العصاة» و أمرهم أن يفطروا^{٣٥٣}.

ص: PAGE=١٧٧:

و لما وصل النبي (صلى الله عليه و اله) إلى مر الظهران أمر المسلمين أن ينتشروا في الصحراء و يوقد كل منهم نارا . و
هكذا أضاء الليل البهيم و ظهر المسلمون كجيش عظيم تضيق أمامه كل قوى قريش مما أقلق العباس بن عبد المطلب - و
هو آخر المهاجرين إذ التحق بركب رسول الله في منطقة الجحفة - فتحرك يبحث عن وسيلة يبلغ بها قريشا أن تأتي
مسلمة قبل دخول الجيش عليها.

و فجأة سمع صوت أبي سفيان يحدث بديل بن ورقاء مستغربا وجود هذه القوة الكبيرة على مشارف مكة . و ارتعد أبو
سفيان خوفا حين أخبره العباس بزحف النبي (صلى الله عليه و اله) بجيشه لفتح مكة، و لم يجد أبو سفيان بدا من
اصطحاب العباس لأخذ الأمان من رسول الله (صلى الله عليه و اله).

و لم يكن بوسع ينبوع العفو و الاخلاق السامية أن يبخل بإجازة جوار عمه لأبي سفيان فقال (صلى الله عليه و اله):
«إذهب فقد أمناه حتى تغدو به على».

استسلام أبي سفيان:

^{٣٥١} (2) السيرة النبوية: 398 / 2.
^{٣٥٢} (3) امتاع الاسماع 363 / 1، المغازي: 798 / 2. و يرى بعض المحققين أن هذا الحديث من الموضوعات
راجع سيرة المصطفى: 592.
^{٣٥٣} (4) وسائل الشيعة: 124 / 7، السيرة الحلبية: 290 / 3، المغازي: 802 / 2، و صحيح مسلم 3 / 141 - 142، كتاب الصيام باب جواز الصوم
و الفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، ط دار الفكر، بيروت

ولما مثل أبو سفيان بين يدي النبي (صلى الله عليه و اله) قال له: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت و أمي ما أحلمك، و أكرمك و أوصلك! و الله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

فقال (صلى الله عليه و اله): ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت و أمي ما أحلمك و أكرمك و أوصلك أما و الله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً^{٣٥٤}.

و تدارك العباس الموقف ليضغظ على أبي سفيان ليسلم و قال له: ويحك أسلم و اشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله قبل أن تقتل. فشهد أبو سفيان الشهادتين خوفاً من القتل، و دخل في عداد المسلمين.

ص: PAGE=١٧٨:

و استسلم من بقي من زعماء المشركين بعد استسلام أبي سفيان، و لكن النبي (صلى الله عليه و اله) استتمما للضغظ النفسى على قريش كى تستسلم دون إراقة دماء قال للعباس: «يا عباس احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها».

و لإشاعة الاطمئنان و الثقة برحمة الإسلام و رحمة الرسول القائد و إرضاء لغرور أبي سفيان كى لا يكابر قال (صلى الله عليه و اله): «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، و من أغلق بابها فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن، و من طرح السلاح فهو آمن».

و مرت جنود الله تعبر المضيق و العباس يعرف الكتائب التى تمر و أبو سفيان قد أخذته الدهشة حتى قال : و الله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً فأجابه العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة. و تردد أبو سفيان فى الجواب فقال:

فنعم إذن. ثم انطلق أبو سفيان إلى مكة ليحذر أهلها و يعلن أمان رسول الله (صلى الله عليه و اله)^{٣٥٥}.

دخول مكة:

أصدر رسول الله (صلى الله عليه و اله) أوامره الحكيمه بتوزيع مداخل القوات إلى مكة مؤكداً عدم اللجوء إلى القتال إلا رداً عليه. و أهدر (صلى الله عليه و اله) دماء عدد من المشركين - فى كل الحالات - حتى لو وجدوهم متعلقين بأستار الكعبة، لعظيم جنايتهم و معاداتهم للإسلام و للنبي (صلى الله عليه و اله).

و ما إن لاحت بيوت مكة حتى إغرورقت عينا النبي (صلى الله عليه و اله) بالدموع، و دخلت قوات الإسلام الظافرة مكة من جهاتها الأربع و مظاهر العز و النصر تجللتها و دخل الرسول الأكرم (صلى الله عليه و اله) مكة مطأطئاً رأسه تعظيماً لله و شكراله على ما منحه من الفضل و النعمة حيث دانت لرسالته و دولته أم القرى، بعد طول جهد و عناء

ص: PAGE=١٧٩:

^{٣٥٤} (1) السيرة النبوية: 40/3، مجمع البيان: 554/10.
^{٣٥٥} (1) المغازي، للواقدي: 816/2، السيرة النبوية: 47/3.

تحمله (صلى الله عليه و اله) في سبيل إعلاء كلمة الله.

و رفض النبي (صلى الله عليه و اله) أن يدخل دار أحد من أهالي مكة رغم كثرة عروضهم له، و اغتسل بعد استراحة قصيرة و ركب راحلته و كبر فكبر المسلمون فدوى الصوت في الجبال و الوهاد - التي فر إليها بعض رؤوس الشرك خوفا من الإسلام و نصره- و جعل يشير و هو يطوف في البيت إلى كل صنم موجود حوله و يقول:

قل جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، فيسقط الصنم لوجهه.

ثم أمر النبي (صلى الله عليه و اله) عليا أن يجلس ليصعد (صلى الله عليه و اله) على كتفه و لكن لم يستطع على (صلى الله عليه و اله) أن يحمل النبي (صلى الله عليه و اله) على كتفه لكسر الأصنام فوق الكعبة، من هنا صعد علي على كتف ابن عمه (صلى الله عليه و اله) و كسر الأصنام. ثم طلب النبي مفاتيح الكعبة و فتح بابها و دخلها و مسح ما فيها من صور. ثم وقف على بابها يخطب الجموع المتكاثرة خطبة الفتح العظيم فقال (صلى الله عليه و اله): «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت و سقاية الحاج ... ثم قال (صلى الله عليه و اله): «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية و تعظمتها بالآباء، الناس من آدم و آدم من تراب ...»^{٣٥٦} ثم تلا قوله تعالى: **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**^{٣٥٧} يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟»

قالوا: أخ كريم و ابن أخ كريم فقال (صلى الله عليه و اله): «إذهبوا فأنتم الطلقاء»^{٣٥٨}.

ثم ارتقى بلال سطح الكعبة ليؤذن لصلاة الظهر فصلى المسلمون بإمامة النبي (صلى الله عليه و اله) في المسجد الحرام أول صلاة بعد هذا الفتح.

ص: ١٨٠=PAGEص:

و وقف المشركون و الحيرة تملكهم و تعلوهم الدهشة مشوبة بالخوف و الحذر . و خشيت الأنصار أن لا يرجع معها الرسول الكريم حين رأوا تفاعل النبي (صلى الله عليه و اله) مع أهل مكة و وقفوا و الأسئلة تدور في مخيلتهم و النبي (صلى الله عليه و اله) عليه و اله) واقف يدعو الله و قد علم ما يدور بينهم فالتفت إليهم قائلا : معاذ الله المحيا محياكم و الممات مماتكم، معلنا بذلك أن المدينة ستبقى عاصمة الاسلام.

ثم أقبل الناس يباعونه فباعه الرجال - و تشفع عدد من المسلمين لدى النبي (صلى الله عليه و اله) ليعفو عن أهدر دمه فعفا و صفح.

^{٣٥٦} (1) مسند أحمد: 1/ 151، فرائد السمطين: 1/ 249، كنز العمال: 13/ 171، السيرة الحلبية: 86/ 3.

^{٣٥٧} (2) الحجرات(49): 13.

^{٣٥٨} (3) بحار الأنوار: 21/ 106، و السيرة النبوية: 2/ 412.

وجاءت النساء لتبايع - فكانت المرأة تدخل يدها في قرح فيه ماء قد وضع الرسول (صلى الله عليه و اله) يده فيه - على أن لا يُشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنيّن ولا يقتلن أولادهنّ ولا يأتين بيّهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرّجلهنّ ولا يعصينك في معروف^{٣٥٩}.

و غضب النبيّ (صلى الله عليه و اله) حين عدت خزاعة - حليفة الرسول (صلى الله عليه و اله) - على رجل من المشركين فقتلته و قام (صلى الله عليه و اله) خطيباً فقال: «يا أيها الناس إن الله حرّم مكة يوم خلق السماوات و الأرض فهي حرام الى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يسفك دماً أو يعضد فيها شجراً...»^{٣٦٠}.

ثم قال (صلى الله عليه و اله): «فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله و لم يحلها لكم يا معشر خزاعة». و أكبرت قريش جميع مواقف النبيّ (صلى الله عليه و اله) من مكة و أهلها من عطف و رحمة و سماحة و عفو و احترام و تقديس فمالت قلوبهم إليه و أقبلوا على الإسلام آمنين مطمئنين.

و أرسل رسول الله (صلى الله عليه و اله) سراياه الى اطراف مكة و ما حولها لهدم ما تبقى من الأصنام و أماكن عبادة المشركين فأخطأ خالد بن الوليد إذ قتل عدداً من قبيلة

ص: PAGE=١٨١:

بنى جذيمة بعد استسلامهم ثأراً لعمّه^{٣٦١} و غضب النبيّ (صلى الله عليه و اله) حين علم بذلك و أمر علياً أن يأخذ أموالاً و يدفع دية المقتولين ثم قام (صلى الله عليه و اله) و استقبل القبلة رافعاً يديه و هو يقول: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»، و بذلك هدأت نفوس بني جذيمة^{٣٦٢}.

٣- غزوة حنين و حصار الطائف^{٣٦٣}:

أمضى النبيّ (صلى الله عليه و اله) خمسة عشر يوماً في مكة فاتحاً فيها عهداً جديداً من التوحيد بعد طول فترة من الشرك، و الغبطة و السرور يعلمان المسلمين، و الأمان يلف أم القرى، و ترامت إلى أسماع النبيّ (صلى الله عليه و اله) أن قبيلتي هوازن و ثقيف قد أعدتا العدة لمحاربة الإسلام ظناً منهما أنّهما يحققان ما عجزت عنه سائر قوى الشرك و النفاق من تدمير الإسلام، و عزم النبيّ (صلى الله عليه و اله) على الخروج لملاقاتهم و لكنه و طد دعائم الإدارة في مكة قبل خروجه كما هي سيرته عند كل فتح، فعين معاذ بن جبل ليعلم الناس القرآن و أحكام الإسلام كما عين عتاب بن أسيد للصلاة بالناس و إدارة الأمور.

و خرج النبيّ (صلى الله عليه و اله) باثني عشر ألفاً من المقاتلين، و هي قوة لم يشهد المسلمون مثلها ممّا أدى بهم الى الغرور و الغفلة حتى أن أبا بكر قال: لو لقينا بني شيبلي لن نغلب اليوم من قلة^{٣٦٤}.

^{٣٥٩} (1) بحار الأنوار: 113 / 21، و سورة الممتحنة: الآية 12.

^{٣٦٠} (2) سنن ابن ماجة، الحديث 3109، كنز العمال، الحديث 34682، الدر المنثور: 1 / 122، طدار الفكر.

^{٣٦١} (1) السيرة النبوية: 420 / 2، الخصال: 562، أمالي الطوسي: 318.

^{٣٦٢} (2) الطبقات الكبرى: 148 / 2.

^{٣٦٣} (*) وقعت معركة حنين في شوال من السنة الثامنة للهجرة

^{٣٦٤} (3) الطبقات الكبرى: 150 / 2، المغازي: 889 / 2.

أما (هوازن) و (ثقيف) فقد تحالفتا و خرجتا بكامل عدّتهم مع نسائهم و أطفالهم و كمنوا لإرباك جيش المسلمين، و حين وصلت طلائع جيش المسلمين

ص: PAGE=١٨٢:

أطراف الكمين أرغموها على الفرار حتّى فرّت باقى قوّات المسلمين فزعا من أسلحة العدو، و لم يثبت مع رسول الله إلا تسعة أشخاص من بنى هاشم عاشرهم أيمن (ابن أم أيمن). و فرح المنافقون و سرّوا سرورا عظيما فخرج أبو سفيان يقول شامتا: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر، و قال آخر: ألا بطل السحر اليوم.

و عزم آخر على قتل النبي (صلى الله عليه و اله) فى ذلك الوضع المضطرب^{٣٦٥}.

و أمر النبي (صلى الله عليه و اله) عمه العباس أن يصعد على صخرة و ينادى فلول المهاجرين و الأنصار المدبرة قائلا: يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله!

و كأن وعيا قد عاد بعد غفلة و حماسا دبّ بعد فتور فعادوا يوفون بوعود النصرة و الدفاع عن الاسلام و النبي (صلى الله عليه و اله) ... و لما رأى النبي (صلى الله عليه و اله) حماسهم قال:

الآن حمى الوطيس، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب. فأنزل الله السكينة على المسلمين و أيدهم بالنصر فولّت جموع الكفّ منزهة تاركه و راءها ستة الآف أسير و غنائم كبيرة جدا^{٣٦٦}، و أمر النبي (صلى الله عليه و اله) أن تحفظ الغنائم و تراعى أحوال الأسرى حتى تتم ملاحقة العدو الغارّ الى منطقة أوطاس و نخلة و الطائف.

و كان من سمو أخلاق النبي (صلى الله عليه و اله) و عظيم عفوه و سعة رحمته أن قال لأم سليم: «يا أم سليم قد كفى الله، عافية الله أوسع» حين طلبت منه قتل الذين فرّوا عنه و خذلوه.

و فى موقف آخر، غضب النبي (صلى الله عليه و اله) حين علم أن بعض المسلمين يقتل ذرية المشركين غيظا منهم فقال (صلى الله عليه و اله): «ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية،

ص: PAGE=١٨٣:

ألا لا تقتل الذرية»، فقال أسيد بن حضير: يا رسول الله أ ليس هم أولاد المشركين.

فقال (صلى الله عليه و اله): أو ليس خياركم أولاد المشركين، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، و أبواها يهودانها أو ينصرانها^{٣٦٧}.

و واصلت قوات المسلمين ملاحقتها للعدو حتى الطائف فحاصروهم بضعا و عشرين يوما يترامون بالنبل من خلف الجدران و البساتين، ثم عدل النبي (صلى الله عليه و اله) عن الطائف لاعتبارات كثيرة.

^{٣٦٥} (1) السيرة النبوية: 2/ 443، المغازي: 3/ 99.
^{٣٦٦} (2) نزلت آيات من سورة التوبة و هي توضح تأييد الله و نصره، و تلوم من اعتمد العدة و العدد و اعتبارهما سببا للنصر.
^{٣٦٧} (1) امتاع الاسماع: 1/ 409.

و عند وصوله الى الجعرانة (محل تجميع الأسرى و الغنائم) قام إليه وفد ه وازن يلتمسون العفو عنده فقالوا : يا رسول الله إنما في هذه الأسرى عمّاتك و خالاتك اللاتي كن يكفلنك - حيث كان النبي (صلى الله عليه و اله) قد رضع في بني سعد و هم من هوازن - و لو أنا مالحنا الحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه و عائذته علينا و أنت خير المكفولين. فخيرهم الرسول بين الأسرى و المال فاخترنا الأسرى، ثم قال (صلى الله عليه و اله): «أما ما كان لي و لبني عبد المطلب فهو لكم». و أسرع المسلمون جميعا يقتدون بالرسول القائد (صلى الله عليه و اله) و يهبون له ما لهم من نصيب^{٣٦٨}.

و بحكمة بالغة و دراية عميقة بنفوس الناس و سعيًا لهداية الجميع و إطفاء نار الحرب من الرسول (صلى الله عليه و اله) بعفوه حتى على «مالك بن عوف» مثير هذه الحرب إن جاءه مسلما فقال (صلى الله عليه و اله): «أخبروا مالكا إنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله و ماله و أعطيته مائة من الابل». و سرعان ما أسلم مالك^{٣٦٩}.

ص: ١٨٤ = PAGE ص:

توزيع الغنائم:

تدافع المسلمون على رسول الله (صلى الله عليه و اله) يلحون عليه أن يقسم الغنائم حتى ألجأوه إلى شجرة و أخذوا رداءه؛ فقال: «ردوا علىّ ردائي فو الله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلا و لا جبانا و لا كذّابا».

ثم قام و أخذ وبرة من سنام بعيره فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها و قال : «ايها الناس و الله مالي في فينكم و لا هذه الوبرة إلا الخمس، و الخمس مردود عليكم» ثم أمر أن يردّ كل ما غنم حتى تكون القسمة عدلا.

و بدأ الرسول (صلى الله عليه و اله) بإعطاء المؤلفة قلوبهم كأبي سفيان و ابنه معاوية و حكيم بن حزام . و الحارث بن الحارث، و سهيل بن عمرو، و حويطب بن عبد العزى، و صفوان بن امية و غيرهم ممن كان يعاديه و يحاربه بالأمس القريب من رؤوس الكفر و الشرك ثم قسم عليهم حقه من الخمس . على أن هذا الموقف قد أثار الحفيظة في نفوس بعض المسلمين جهلا منهم بمصالح الإسلام و أهداف النبي (صلى الله عليه و اله) حتى قال أحدهم للنبي (صلى الله عليه و اله): لم أرك عدلت. فقال: ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون؟ فأراد عمر بن الخطاب أن يقتله، فلم يأذن له النبي (صلى الله عليه و اله) و قال: «دعه فإنه سيكون له شبيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من رميته»^{٣٧٠}.

اعتراض الأنصار:

و رأى سعد بن عبادة أن يخبر النبي (صلى الله عليه و اله) بما يدور بين الأنصار من قولهم:

لقد لقي رسول الله قومه و نسي أصحابه. فجمع سعد الأنصار و أقبل الرسول

^{٣٦٨} (2) سيد المرسلين: 53/2، المغازي: 3/949-953.

^{٣٦٩} (3) المغازي: 3/954-955.

^{٣٧٠} (1) السيرة النبوية: 496/2، و راجع المغازي: 3/948.

الكريم (صلى الله عليه و اله) يحدثهم فحمد الله و أتنى عليه ثم قال:

«يا معشر الانصار ما مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم؟ ! ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله و عالة فاغناكم الله و أعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا : بلى الله و رسوله آمن و أفضل، ثم قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟ قالوا : و ما ذا نجيبك يا رسول الله؟ قال (صلى الله عليه و اله) : أما و الله لو شئتم قلتهم فصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك و مخذولا فنصرناك و طريدا فأوينناك و عائلا فأسينناك . وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى شىء من الدنيا تألفت به قوما ليسلموا و وكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة و البعير و ترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ و الذى نفس محمد بيده لو لا الهجرة لكن ت امرءات من الأنصار، و لو سلك الناس شعبا و سلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار.»

فأثارت هذه الكلمات فى قلوب الأنصار العاطفة و الشعور بالخطأ فى تصورهم عن الرسول (صلى الله عليه و اله) فضجوا بالبكاء و قالوا: رضينا يا رسول الله حظا و قسما.

و خرج النبى (صلى الله عليه و اله) بمن معه من الجعرانة متّجها إلى مكة فى شهر ذى القعدة فأتّم عمرته و حلّ من إحرامه و استخلف على مكة عتّاب بن أسيد و معه معاذ بن جبل و خرج متّجها إلى المدينة بمن معه من المهاجرين و الأنصار^{٣٧١}.

٤- غزوة تبوك^{٣٧٢}:

أصبحت الدولة الإسلامية كيانا يهاب جانبه، و كان على المسلمين الحفاظ على حدوده و أراضيه حتى تبلغ الرسالة الإسلامية أرجاء الأرض.

و استنفر النبى (صلى الله عليه و اله) المسلمين من جميع نقاط الدولة الإسلامية استعدادا لحرب الروم إذ وردت أخبار تؤكد استعدادهم لغزو الجزيرة و اسقاط الدولة و محق الدين الاسلامى و صادف أن كان ذلك العام عام جذب و قلّة ثمار و كان الوقت صيفا حارا مما زاد من صعوبة الخروج لملاقاة عدو قوى متمرس كبير العدد و العدة . فتقاعس ذوو النفوس الضعيفة و المعنويات المتدنية و برز النفاق ثانية علانية ليثبّط العزائم و يخذل الإسلام.

و تخلف بعض عن الالتحاق بالجيش لشدة تعلّقهم بالدنيا، و بعض آخر احتجّ بشدة الحر و آخرون لم يستطيعوا لشدة ضعفهم و قلّة إمكانات النبى (صلى الله عليه و اله) لحملهم معه رغم بذل المؤمنين الصادقين أموالهم للجهاد فى سبيل الله.

و بلغ النبى (صلى الله عليه و اله) أن المنافقين يجتمعون فى بيت أحد اليهود يثبّطون الناس و يخوّفونهم من اللقاء، فتعامل معهم بحزم و شدة فأرسل إليهم من يحرق عليهم دارهم ليكونوا عبرة لغيرهم.

^{٣٧١} (1) السيرة النبوية: 498/2، المغازي: 957/3.
^{٣٧٢} (*) كانت غزوة تبوك فى رجب سنة (9) من الهجرة.

وقد أنزل الله آيات تفضح خطط المنافقين و تؤنب المتقاعسين و تعذر الضعفاء؛ و بلغ عدد جيش المس لمين ثلاثين ألف مقاتل - على أقل تقدير - و استخلف النبي (صلى الله عليه و اله) على بن أبي طالب فى المدينة لما يعلم منه من حنكة و حسن تدبير و قوة يقين؛ إذ خشى الرسول (صلى الله عليه و اله) من قيام المنافقين بعمل تخريبى فى المدينة، فقال (صلى الله عليه و اله): «يا على إن المدينة لا تصلح إلّا بى أوبك»^{٣٧٣}.

الإعلان عن مكانة على (عليه السلام) لدى النبي (صلى الله عليه و اله):

و أشاع المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض حول بقاء على بن أبي طالب فى المدينة امورا إذ قالوا : إنما تركه رسول الله استتقالا له و تخففا منه، سعيا منهم

ص: PAGE=١٨٧

للإثارة رجاء أن يخلو جو المدينة لهم فأسرع علىّ (عليه السلام) للالتحاق برسول الله (صلى الله عليه و اله) فلحق به على مقربة من المدينة و قال: يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استتقلتني و تخففت منى.

فقال (صلى الله عليه و اله): «كذبوا و لكننى خلّفتك لما تركت ورائى فاخلفنى فى أهلى و أهلک، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبى بعدى»^{٣٧٤}.

جيش العسرة:

و انطلق جيش المسلمين فى طريق و عر طویل و قد أوضح لهم الرسول هدف المسيرة خلافا لما كان فى الغزوات الماضية. و كان يتخلف عنه فى الطريق جماعة ممن خرجوا معه من المدينة فكان يقول (صلى الله عليه و اله) لأصحابه: دعوه فإن يكن به خير فسيلحقه الله بكم و إن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

و أسرع النبي (صلى الله عليه و اله) السير حين مرّ على أطلال قوم صالح و قال لأصحابه و هو يعظهم: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلّا و أنتم باكون خوفا أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، و نهاهم عن استعمال الماء من هذه المنطقة و حذرهم من خطورة الظروف الجوية فيها^{٣٧٥}، و للصعوبات التى أحاطت هذه الغزوة من حيث الماء و الغذاء و النفقة و الظهر (الخيل و الإبل) فقد سمى هذا الجيش ب «جيش العسرة».

و لم يجد المسلمون جيش الروم؛ إذ قد تفرّق جمعهم، و هنا استشار الرسول القائد أصحابه فى ملاحقة العدو أو العودة إلى المدينة فقالوا: إن كنت امرت بالسير فسر. فقال (صلى الله عليه و اله): «لو امرت به ما استشرتكم فيه»^{٣٧٦}. و هنا قرّر النبي (صلى الله عليه و اله)

ص: PAGE=١٨٨

^{٣٧٣} (1) الإرشاد للمفيد 1/ 115، أنساب الأشراف: 1/ 94-95، كنز العمال ج 11/ باب فضائل علي (عليه السلام).
^{٣٧٤} (1) امتاع الأسماع: 1/ 449، صحيح البخاري: 3/ 1359 الحديث 3503، صحيح مسلم: 5/ 23 الحديث 2404، سنن ابن ماجه: 42/ 1
الحديث 115، مسند أحمد: 1/ 284 الحديث 1508.
^{٣٧٥} (2) السيرة النبوية: 2/ 521، السيرة الحلبية: 3/ 134.
^{٣٧٦} (3) المغازي: 3/ 1019.

العودة إلى المدينة.

و اتصل الرسول (صلى الله عليه و اله) بزعماء المنطقة الشمالية للجزيرة و عقد معهم معاهدة عدم تعرض و اعتداء بين الجانيين و بعث رسول الله (صلى الله عليه و اله) خالد بن الوليد إلى دومة الجندل خوفا من تعاون زعيمها مع الروم في هجوم آخر و تمكن المسلمون من أسر زعيمهم و حمل الغنائم الكثيرة^{٣٧٧}.

محاولة اغتيال النبي (صلى الله عليه و اله):

أقفل النبي (صلى الله عليه و اله) و المسلمون راجعين إلى المدينة بعد أن أمضوا بضع عشرة يوما في تبوك، و تحرك الشيطان في نفوس جمع ممن لم يؤمن بالله و رسوله فعزموا على اغتيال الرسول (صلى الله عليه و اله) و ذلك بتنفير ناقته عند مرورها عليهم ليطرحوه في واد كان هناك.

و حين وصل الجيش الى العقبة (بين المدينة و الشام) قال (صلى الله عليه و اله): «من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادى فإنه أوسع لكم» فأخذ الناس بطن الوادى و سلك هو طريق العقبة و كان يقود ناقته عمار بن ياسر و يسوقها حذيفة بن اليمان، فرأى النبي (صلى الله عليه و اله) في ضوء القمر فرسانا قد تلمّوا و لحقوا به من ورائه في حركة مريبة فغضب (صلى الله عليه و اله) و صاح بهم و أمر حذيفة أن يضرب وجوه رواحلهم؛ فتمالكهم الرعب و عرفوا بأن النبي (صلى الله عليه و اله) قد علم بما أضرته نفوسهم و مؤامرتهم فاسرعوا تاركين العقبة ليخالطوا الناس و لا تنكشف هويتهم.

و طلب حذيفة من الرسول (صلى الله عليه و اله) أن يبعث اليهم من يقتلهم بعد ما عرفهم من رواحلهم و لكن رسول الرحمة عفا عنهم و أوكل أمرهم إلى الله تعالى^{٣٧٨}.

ص:١٨٩=PAGEص:

من نتائج غزوة تبوك:

- ١- لقد برز المسلمون كقوة كبيرة منظمة، تملك العقيدة القوية فتهاجم الدول المجاورة و الديانات الأخرى و كان هذا إنذارا حقيقيا لكل القوى في خارج البلاد الاسلامية و داخلها بعدم التعرض للإسلام و المسلمين.
- ٢- ضمن المسلمون عن طريق المعاهدات مع زعماء المناطق الحدودية (من جهة الشمال) أمن هذه المنطقة.
- ٣- استفاد المسلمون من قدرتهم على تعبئة جيش كبير في العدة و العدد و ازدادت خبرتهم في التنظيم و الإعداد، و كانت الرحلة الى تبوك بمثابة استطلاع ميداني استفاد منه المسلمون في المراحل اللاحقة.
- ٤- كانت غزوة تبوك اختبارا لمعنويات المسلمين و تمييزا للمنافقين و فرزهم عن سائر المسلمين.

٥- مسجد ضرار:

^{٣٧٧} (1) الطبقات الكبرى: 2/ 166، بحار الأنوار: 21/ 246.
^{٣٧٨} (2) المغازي: 3/ 1042، مجمع البيان: 3/ 46، بحار الأنوار: 21/ 247.

لقد جاء النبي (صلى الله عليه و اله) بالشرعية السمحاء و دين التوحيد و عمل جاهدا أن يبنى الانسان الصالح و المجتمع السليم وفق التعاليم الربانية، و لقد خاض كل المحن و الابتلاءات و المعارك من أجل تطهير الانسان من دنس الشرك و وساوس الشيطان و الأمراض النفسية.

و تحركت نوازع الحسد و البغض لدى مجموعة من المنافقين فعمدوا الى بناء مسجد فى مقابل مسجد (قباء) زاعمين أنه لذوى العلة و الحاجة و الليلة المطيرة، و أسرعوا الى النبي (صلى الله عليه و اله) يطلبون منه أن يصلى فيه ليضفى الشرعية على عملهم فأخر الاستجابة لأنه كان على استعداد للخروج الى تبوك، فلما رجع من

ص: ١٩٠=PAGE ص:

تبوك نزل الأمر الإلهى بالنهى عن الصلاة فى هذا المسجد لأنه كان عاملا لتفريق كلمة المسلمين و الإضرار بالامة، و شتان بين بنيان أسس على التقوى و آخر للإضرار بالمسلمين و من هنا أمر النبي (صلى الله عليه و اله) بهدمه و إحراقه^{٣٧٩}.

٦- عام الوفود:

بدت سيطرة الإسلام على الجزيرة واضحة . و لم يكن رسول الله (صلى الله عليه و اله) ليلجأ إلى القوة و القتال إلا بعد إعدار و إنذار، بل و فى أكثر الوقائع كان قتال المسلمين دفاعا، على أن بعض قوى الشرك لا تعى الحق و لا تهتدى سبيلا إلا بعد عنف و قوة و تهديخ و وعيد.

و حين عاد المسلمون إلى عاصمة دولتهم - المدينة المنورة - سبر النبي (صلى الله عليه و اله) عدة سرايا لتطهير البلاد من أماكن الوثنية و أصنام الشرك.

و لقوة المسلمين و الانتصارات المتلاحقة بدأت كل قبائل الجزيرة و زعمائها يسمعون بأذان صاغية نداء الإسلام و وضوح أهدافه و هدايته، فأخذت الوفود تقدم إلى المدينة لتعلن إسلامها بين يدي رسول الله (صلى الله عليه و اله) - لذلك سمي هذا العام بعام الوفود^{٣٨٠} - و كان النبي يستقبلهم و يحسن إليهم و يرسل لهم من يعلمهم فرائض القرآن و شرائع الاسلام.

إسلام قبيلة ثقيف:

أملت ظروف النصر الإلهى على كل عاقل أن يتدبر أمره و يحكم عقله تجاه الإسلام . و كانت حكمة الرسول بالغة إذ أجل فتح الطائف يوم امتنعت ثقيف فيها و ها هى اليوم ترسل و فدها لتعلن إسلامها بعد أن عاندت و كابرت و قتلت سييدا من

ص: ١٩١=PAGE ص:

ساداتها (عروة بن مسعود الثقفى) يوم جاءها مسلما يدعوها إلى الدين الجديد.

^{٣٧٩} (1) السيرة النبوية: 530 / 20، بحار الأنوار: 253 / 20.
^{٣٨٠} (2) السيرة النبوية لابن هشام: ذكر سنة تسع و تسميتها سنة الوفود.

و رحب النبي (صلى الله عليه و اله) بمقدم الوفد التقفى و ضربت لهم قبة في ناحية المسجد النبوى و كلف (صلى الله عليه و اله) خالد بن سعيد ليقوم بمهام التشريعات ثم بدأ الوفد يفاوض النبي (صلى الله عليه و اله) على الاسلام بشروط هي: أنه يترك صنم القبيلة مدة من الزمن و أبى النبي (صلى الله عليه و اله) إلا التوحيد الناصع الخالص لله و تنازل القوم شيئا فشيئا حتى قبلوا الإسلام بشرط أن يعفيهم النبي (صلى الله عليه و اله) عن كسر أصنامهم بأنفسهم كما شرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة فقال النبي (صلى الله عليه و اله): «لا خير في دين لا صلاة فيه»، فقبلوا الاسلام و بقى الوفد مع النبي (صلى الله عليه و اله) مدة من الزمن يتعلمون أحكام الدين. ثم كلف رسول الله (صلى الله عليه و اله) أبا سفيان بن حرب و المغيرة بن شعبة أن يذهبا إلى الطائف لهدم الأصنام فيها^{٣٨١}.

٧- وفاة ابراهيم ابن النبي (صلى الله عليه و اله):

في غمرة أفراس النبي (صلى الله عليه و اله) بنجاح الإسلام و انتشار الرسالة حيث كان الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وعك إبراهيم بعد أن دخل في عامه الثاني و جعلت أمه (ماريا) تمرضه و لم ينفع معه شيء فأبلغ النبي (صلى الله عليه و اله) باحتضار ولده فأقبل و إبراهيم يجود بنفسه في حضن امه فأخذه النبي (صلى الله عليه و اله) و قال: «يا إبراهيم إنا لن نغنى عنك من الله شيئا إنا بك لمحزونون تبكى العين و يحزن القلب و لا نقول ما يسخط الرب و لو لا أنه وعد صادق و موعود جامع فإن الآخر منا يتبع الأول لوجدنا عليك يا ابراهيم جدا شديدا ما وجدناه»^{٣٨٢}.

و بدت علامات الحزن واضحة على سمات وجه النبي (صلى الله عليه و اله) و قيل له: يا

ص: PAGE=١٩٢ص:

رسول الله أو لست قد نهيتنا عن هذا؟ فقال (صلى الله عليه و اله): «ما عن الحزن نهيت و لكنى نهيت عن خمس الوجوه و شق الجيوب و رنة الشيطان»^{٣٨٣}.

و روى أنه قال: «إنما هذا رحمة و من لا يرحم لا يرحم»^{٣٨٤}.

و لعظيم منزلة النبي (صلى الله عليه و اله) عند الله سبحانه و ما أظهر من معجزات للعالمين حتى آمنوا به ظن بعض المسلمين أن كسوف الشمس في يوم وفاة إبراهيم إنما كان من آيات الله لموته.

و سرعان ما ردّ النبي (صلى الله عليه و اله) على هذا الزعم خشية أن تتحول الخرافة إلى سنة و معتقد يتخذها الجاهلون . فقال (صلى الله عليه و اله): «أيها الناس إن الشمس و القمر آيتان من آيات الله لا يكسفن لموت أحد و لا لحياته»^{٣٨٥}.

ص: PAGE=١٩٣ص:

الفصل الثالث تصفية الوجود الوثني داخل الجزيرة

^{٣٨١} (1) السيرة النبوية: 537 / 2، السيرة الحلبية: 216 / 3.

^{٣٨٢} (2) السيرة الحلبية: 311 / 3، بحار الأنوار: 157 / 22.

^{٣٨٣} (1) السيرة الحلبية: 311 / 3.

^{٣٨٤} (2) بحار الأنوار: 151 / 22.

^{٣٨٥} (3) تاريخ يعقوبي: 87 / 2.

١- إعلان البراءة من المشركين:

لم يبق في الجزيرة العربية من بقى على الشرك و الوثنية سوى أفراد قلائل بعد أن انتشرت العقيدة الإسلامية و الشريعة السمحاء في أرجائها و اعتنقها كثير من الناس . و هنا كان لا بد من إعلان صريح حازم يلغى كل مظاهر الشرك و الوثنية في مناسك أكبر تجمع عبادى سياسى.

و حان الوقت المناسب لتعلن الدولة الإسلامية شعاراتها في كل مكان و تنهى مرحلة المداراة و تأليف القلوب التي تطلبها المرحلة السابقة.

و اختار النبي (صلى الله عليه و اله) يوم النحر زمانا و منطقة منى^{٣٨٦} مكانا لهذا الإعلان و اختار أبا بكر ليقرأ مطلع سورة التوبة^{٣٨٧} التي نزلت لذلك و تضمنت إعلان البراءة من المشركين جميعا بصراحة و تمثلت بنود البراءة في ما يلي:

١- لا يدخل الجنة كافر.

٢- لا يطوف في البيت الحرام عريان؛ إذ كانت تقاليد الجاهلية تسمح بذلك.

٣- لا يحج بعد هذا العام مشرك.

٤- من كان بينه و بين رسول الله (صلى الله عليه و اله) عهد فأجله إلى مدته، و من لم يكن له

ص: ١٩٤=PAGEص:

عهد فإلى أربعة أشهر ثم يقتل من وجد في دار الإسلام مشركه

و نزل الوحي الإلهي ليبلغ النبي (صلى الله عليه و اله) مبدأ مهمّا نصّه : «أنّه لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك .» فاستدعى النبي (صلى الله عليه و اله) عليا و أمره أن يركب ناقته العضباء و يلحق بأبي بكر و يأخذ منه البلاغ و يؤديه للناس^{٣٨٨}.

و وقف على بن أبى طالب بين جموع الحجيج و هو يتلو البيان الإلهي بقوة و جرأة تتواءم مع حزم القرار و وضوحه . و وقف الناس ينصتون إليه بحذر و دقة.

و كان أثر الإعلان على المشركين أن قدموا مسلمين على رسول الله (صلى الله عليه و اله).

٢- مباهلة نصارى نجران:

^{٣٨٦} (1) العاشر من ذي الحجة عام (9 هـ).

^{٣٨٧} (2) التوبة(9): 1-13.

^{٣٨٨} (1) الكافي: 1/ 326، الارشاد: 37، الواقدي: 3/ 1077، خصائص النسائي: 20، صحيح الترمذي: 2/ 183، مسند أحمد: 3/ 283، فضائل الخمسة من الصحاح الستة: 2/ 343.

اجتمع زعماء نصارى نجران و حكماءهم يتدارسون أمر كتاب النبي (صلى الله عليه و اله) الذى يدعوهم فيه إلى الاسلام. و لم يتوصلوا إلى رأى قاطع إذ كانت فى أيديهم تعاليم تؤكد وجود نبى بعد عيسى (عليه السلام)، و ما ظهر من محمد فهو يشير الى نبوته.

من هنا قرروا أن يرسلوا وفدا يقابل شخص النبي (صلى الله عليه و اله) و يحاوره.

و استقبال النبي (صلى الله عليه و اله) الوفد الكبير و قد بدى عليه عدم الرضا لمظهرهم الذى كان يحمل طابع الوثنية، فقد كانوا يرتدون الديباج و الحرير و يلبسون الذهب و يحملون الصلبان فى أعناقهم . ثم غدوا عليه ثانية و قد بدّ لوا مظهرهم فرحّب بهم و احترمهم و فسح لهم المجال ليمارسوا طقوسهم^{٣٨٩}.

ثم عرض عليهم الإسلام و تلا عليهم آيات من القرآن فامتنعوا و كثر الحجاج معهم، فخلصوا إلى أن يباهلهم النبي (صلى الله عليه و اله) و كان ذلك بأمر من الله عزّ و جلّ و اتفقوا على اليوم اللاحق موعدا.

ص: PAGE=١٩٥:

و خرج إليهم رسول الله (صلى الله عليه و اله) و هو يحمل الحسين و بيده الحسن و خلفه ابنته فاطمة و ابن عمّه على بن أبى طالب امتثالا لأمر الله تعالى الذى نصّ عليه الذكر الحكيم قائلا : **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ لَمْ يَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**^{٣٩٠} و لم يصحب سواهم أحدا من المسلمين ليثبت للجميع صدق نبوته و رسالته و هنا قال أسقف نجران : يا معشر النصارى انى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا و لا يبقى على وجه الأرض نصرانى.

و حين أبوا أن يباهلوا النبي و أهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين قال لهم الرسول : **أما إذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين و عليكم ما على المسلمين، فأبوا، فقال : إنى أناجزكم القتال . فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، و لكن نصالحك على أن لا تغزونا و لا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك فى كل عام ألفى حلّة، ألفا فى صفر، و ألفا فى رجب، و ثلاثين درعا عادية من حديد، فصالحهم على ذلك، و قال : و الذى نفسى بيده إنّ الهلاك قد تدلّى على أهل نجران، و لو لا عنوا لمسخوا قرده و خنازير و لاضطرم عليهم الوادى نارا، و لا ستأصل نجران و أهله حتى الطير على رؤوس الشجر، و لما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا. فرجعوا إلى بلادهم دون أن يسلموا**^{٣٩١}.

و روى أن السيد و العاقب من زعمائهم لم يلبثا إلّا يسيرا حتى عادا إلى النبي (صلى الله عليه و اله) ليعلنا إسلامهما^{٣٩٢}.

ص: PAGE=١٩٦:

٣- حجة الوداع:

^{٣٨٩} (2) السيرة الحلبية: 211 / 3، السيرة النبوية: 574 / 1.

^{٣٩٠} (1) آل عمران(3): 61.

^{٣٩١} (2) التفسير الكبير(للرازي): 85 / 8.

^{٣٩٢} (3) الطبقات الكبرى: 357 / 1.

كان الرسول الأكرم القدوة الحسنة للإنسانية جمعاء، يبلِّغ آيات الله ويفسرها ويفصّل أحكامها ببيان جلي، وجماهير المسلمين حريصة على الاقتداء به في القول والعمل. وبحلول شهر ذي القعدة من العام العاشر للهجرة عزم النبي (صلى الله عليه واله) على أداء فريضة الحج - ولم يكن قد حج من قبل وذلك ليطلع الأمة على أحكام الله في فريضة الحج فتقاطرت ألوف المسلمين على المدينة وتجهّزوا للخروج مع النبي (صلى الله عليه واله) حتى بلغ عددهم ما يقارب مائة ألف مسلم من مختلف الحواضر والبادي والقبائل، تجمعهم المودة الصادقة والاخوة الإسلامية والاستجابة لنداء الرسول القائد (صلى الله عليه واله) بعد أن كانوا بالأمس القريب أعداء متنافرين، جهّالا كافرين. واصطحب النبي (صلى الله عليه واله) معه كل نسائه وابنته الصديقة فاطمة الزهراء، وتخلّف زوجها علي بن أبي طالب في مهمة بعثه بها رسول الله (صلى الله عليه واله)، واستعمل على المدينة أبا دجاجة الأنصاري.

وفي منطقة ذي الحليفة أحرم النبي (صلى الله عليه واله) فلبس قطعتين من قماش أبيض ولّبي عند الإحرام قائلا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لبيك لا شريك لك لبيك».

وفي الرابع من شهر ذي الحجة الحرام شارف النبي (صلى الله عليه واله) مكة وقطع التلبية، ثم دخل المسجد الحرام وهو يكثر التناء على الله ويحمده ويشكره فأستلم الحجر وطاف سبعا وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم سعى بين الصفا والمروة والتفت الى الحجيج قائلا: «من لم يسق منكم هديا فليحلّ وليجعلها عمرة، ومن ساق منكم هديا فليقم على إحرامه».

و لم يستجب بعض المسلمين لأمر الرسول هذا ظنا منهم أن عليهم أن يفعلوا

ص: PAGE=١٩٧:

كما يفعل الرسول القائد (صلى الله عليه واله) من عدم التحلّل من الإحرام، فغضب النبي (صلى الله عليه واله) لموقفهم و قال: «لو كنت استقبلت من أمرى ما استدبرت لفعلت كما أمرتكم»^{٣٩٣}.

وأقفل علي بن أبي طالب (عليه السلام) راجعا من اليمن الى مكة ليلتحق برسول الله (صلى الله عليه واله) وقد ساق معه (٣٤) هديا. وعلى مقربة من مكة تعجل لدخولها واستخلف أحد افراد سرّيته عليها. وسرّ النبي (صلى الله عليه واله) بقاء عليّ وما حقّقه من نجاح باهر في اليمن وقال له: انطلق فطف بالبيت وحلّ كما حلّ أصحابك. فقال (عليه السلام): يا رسول الله انى أهلت كما أهلت، ثم قال (عليه السلام): انى قلت حين أحرمت: اللهم انى أهلّ بما اهل به عبدك و نبيك و رسولك محمد (صلى الله عليه واله). ثم أمره (صلى الله عليه واله) أن يعود الى سرّيته ويصحبها إلى مكة، ولما قدموا على النبي (صلى الله عليه واله) اشتكوا عليا (عليه السلام) لأنه كان قد رفض تصرّفا خاطئا فعلوه في غيابه، فأجابهم النبي (صلى الله عليه واله) قائلا: «أيها الناس لا تشكوا عليا، فوالله إنه لأخشن في ذات الله من أن يشتكى»^{٣٩٤}.

و في اليوم التاسع من ذي الحجة توجه النبي (صلى الله عليه واله) مع جموع المسلمين نحو عرفات.

^{٣٩٣} (1) بحار الأنوار: 319 / 21.

^{٣٩٤} (2) السيرة النبوية: 603 / 2، بحار الأنوار: 385 / 21.

و مكث رسول الله (صلى الله عليه و اله) في عرفات حتى غروب اليوم التاسع، و مع الظلام ركب ناقته و أفاض إلى المزدلفة و أمضى فيها شطرا من الليل و لم يزل واقفا من الفجر الى طلوع الشمس في المشعر الحرام . ثم توجه في اليوم العاشر إلى «منى» و أدى مناسكها من رمى الجمرات و النحر و الحلق ثم توجه نحو مكة لأداء بقية مناسك الحج.

و قد سميت هذه الحجة ب «حجة الوداع» لأن الرسول (صلى الله عليه و اله) ودّع المسلمين في هذه الحجة التي اشار فيها الى دنو وفاته كما سميت ب «حجة البلاغ»

ص: PAGE=١٩٨:

لأنه (صلى الله عليه و اله) قد بلغ فيها ما انزل إليه من ربه في شأن الخلافة من بعده، و منهم من سماها ب «حجة الإسلام» لأنها الحجة الأولى للنبي (صلى الله عليه و اله) و التي بين فيها أحكام الإسلام الثابتة في مناسك الحج.

خطبة النبي (صلى الله عليه و اله) في حجة الوداع:

و روى أن النبي (صلى الله عليه و اله) خطب خطابا جامعا فقال بعد أن حمد الله و أثنى عليه:

«أيها الناس اسمعوا مني ابين لكم فياني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس إن دماءكم و أموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت؟ الله م اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها و إن ربا الجاهلية موضوع، و إن أول ربا أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب. و إن دماء الجاهلية موضوعة، و إن أول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب و إن مآثر الجاهلية موضوعة غر السدانة و السقاية، و العمد قود و شبه العمد ما قتل بالعصا و الحجر فيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه و لكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحتقرون من أعمالكم.

أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما و يحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله . و إن الزمان استدار كهبيته يوم خلق الله السموات و الأرض و إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات و الأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات و واحد فر د: ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب الذي بين جمادى و شعبان. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس إن لنساءكم عليكم حقا و إن لكم عليهن حقا . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم و لا يدخلن أحدا تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم و لا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضوهن و تهجروهن في المضاجع و تضربوهن ضربا غير مبرح،

ص: PAGE=١٩٩:

فإن انتهين و أطعنكم فعليكم رزقهن و كسوتهن بالمعروف، و إنما النساء عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله و استحلتتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء و استوصوا بهن خيرا.

أيها الناس إنما المؤمنون إخوة فلا يحلّ لامرئٍ مال أخيه إلّا عن طيب نفس . ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد . فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض؛ فإنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله و عترتي أهل بيتي ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، و آدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجميّ فضل إلّا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم.

قال (صلى الله عليه و اله): فليبلغ الشاهد منكم الغائب^{٣٩٥}.

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث و لا يجوز لو ارث وصية في أكثر من الثلث، و الولد للفراش و للعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً و لا عدلاً ... و السلام عليكم و رحمة الله^{٣٩٦}.

٤- تعيين الوصي^{٣٩٧}:

أتّم المسلمون حجّهم الأكبر و هم يحتفون بالنبى (صلى الله عليه و اله) و قد أخذوا مناسكهم عنه، و قرّر الرسول (صلى الله عليه و اله) أن يعود إلى المدينة، و لما بلغ موكب الحجيج العظيم إلى منطقة «رابغ» قرب «غدير خم» و قبل أن يتفرّق الحجيج و يرجعوا إلى بلدانهم من هذه المنطقة نزل الوحي الإلهي بآية التبليغ الآمرة و المحذرة: **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ**

ص: ٢٠٠=PAGEص:

النّاس^{٣٩٨}.

لقد حمل هذا الخطاب الإلهي أمراً مهماً جداً فأى تبليغ مهم هذا قد طلب من الرسول (صلى الله عليه و اله) انجازه و لم يكن قد أنجزه إلى ذلك الحين؟ و قد أمضى النبي (صلى الله عليه و اله) ما يقارب ثلاثة و عشرين عاماً يبلغ آيات الله و أحكامه و يدعو الناس إلى دين الله! و قد نال ما نال من عظيم المحن و البلاء و الجهد، كى يقال له: «فما بلغت رسالته».

و هنا أصدر النبي (صلى الله عليه و اله) أوامره بأن تقف القوافل حتى يلحق آخرها بأولها في يوم قانظ يضطر المرء فيه أن يلف رأسه و قدميه من شدة حرّ الرمضاء ليتلو عليهم أمر السماء و يتمم تبليغ الرسالة الخاتمة. إنها الحكمة الإلهية أن يتم التبليغ في هذا المكان و في هذا الظرف كى يبقى عالقا في وجدان الأمة، حيّا في ذكرتها على مرّ الزمن حفاظاً على الرسالة و الامة الاسلامية.

^{٣٩٥} (1) بحار الأنوار: 405 / 21.
^{٣٩٦} (2) العقد الفريد: 57 / 4، الطبقات الكبرى: 184 / 2، الخصال: ص 487، بحار الأنوار: 405 / 21، و قد ورد النص في مصادر السيرة و التاريخ مع اختلاف بالزيادة و النقصان
^{٣٩٧} (3) للمزيد من التفصيل راجع موسوعة الغدير للعلامة الأمينى الجزء الأول
^{٣٩٨} (1) المائدة(5): 67.

وجمعت الرجال و صنع منها منبر صعد عليه النبي (صلى الله عليه و اله) بعد أن صلى في جموع المسلمين فحمد الله و اتنى عليه و قال بصوت رفيع يسمعه كل من حضر:

«أيها الناس يوشك أن ادعى فأجيب و إنى مسؤول و أنتم مسؤولون فما أنتم قائلون؟ قالوا : تشهد أنك بلغت و نصحت و جاهدت فجزاك الله خيرا. قال (صلى الله عليه و اله): أ لستم تشهدون أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله و أن جنته حق و أن الساعة آتية لا ريب فيها و أن الله يبعث من فى القبور؟ قالوا : بلى نشهد بذلك قال (صلى الله عليه و اله): اللهم أشهد. ثم قال: (صلى الله عليه و اله) فإنى فرطكم على الحوض و أنتم واردون على الحوض و إن عرضة ما بين صنعاء و بصرى فيه أقداح عدد النجوم من فضة فانظروا كيف تخلفونى فى التقلين.

فنادى مناد و ما الثقلان يا رسول الله؟ قال (صلى الله عليه و اله): الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عز و جل و طرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلوا. و الآخر الأصغر عترتى. و إن اللطيف الخبير نبأنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فسألت ذلك لهما ربى فلا تقدموهما فتهلكوا

ص: ٢٠١=PAGEص:

و لا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثم أخذ بيد على بن أبى طالب حتى روى بياض أبطيها و عرفه الناس أجمعون . فقال (صلى الله عليه و اله): «أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال (صلى الله عليه و اله): إن الله مولاى و أنا مولى المؤمنين و أنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلى مولاه- يقولها ثلاث مرات-.

ثم قال (صلى الله عليه و اله): اللهم وال من والاه و عاد من عاداه و أحب من أحبه و أبغض من أبغضه و انصر من نصره و اخذل من خذله و أدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم لم يتفرقا حتى نزل أمين و حى الله بقوله تعالى : **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**^{٣٩٩} فقال رسول الله (صلى الله عليه و اله):

«الله أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة و رضى الرب برسالتى و الولاية لعلى بعدى».

ثم أمر (صلى الله عليه و اله) أن تنصب خيمة لعلى (عليه السلام) و أن يدخل عليه المسلمون فوجا فوجا ليسلموا على يه بإمرة المؤمنين ففعل الناس كلهم ذلك و أمر أزواجه و سائر نساء المؤمنين ممن معه أن يفعلن ذلك.

و كان فى مقدمة المهتئين أبو بكر و عمر بن الخطاب، كل يقول : بخ بخ لك يا ابن أبى طالب أصبحت و أمسيت مولاى و مولى كل مؤمن و مؤمنة^{٤٠٠}.

^{٣٩٩} (1) المائدة(5): 3.

^{٤٠٠} (2) راجع تاريخ اليعقوبي: 3/ 112، و مسند أحمد: 4/ 281، البداية و النهاية: 5/ 213، و موسوعة الغدير: 43/ 1، 165، 196، 215، 230، 238، 276، 283، 285، 297، 379، 392، 402، و الجزء: 11/ 131.

٥- ظهور المتنبيين:

تفرقت جموع الحجيج من منطقة غدِير خَم مَتَّجِهَةً نحو العراق و الشام و اليمن، و اتَّجِهَ النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) نحو المدينة. و حمل الجميع وصية الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) بالخلافة و القيادة من بعده لربيبه علي بن أبي طالب (عليه السلام) لتستمر حركة الرسالة

ص: ٢٠٢=PAGE ص:

الإسلامية بنهج نبويّ و تجتاز العقبات بعد رحيل القائد الأوّل و ذلك بعد أن عرّف بعليّ (عليه السلام) في ذلك اليوم التاريخي الخالد بل منذ يوم الدار حيث أنّه وصفه بالوزير الناصح و الأخ المؤازر و العضد المدافع و الخليفة الذي يجب على الناس من بعده أن يطيعوه و يتبعوه و يتخذوه لأنفسهم قائدا و زعيما.

و بعد أن انبسط سلطان الدين و قويت مركزية القرار في المدينة لم يعد بأمر خطير نفور جماعة عن الدين أو ارتداد أفراد عن التسليم لما جاء به النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أو وجود أفراد في الأطراف البعيدة عن المدينة يرون في عنصر الدين وسيلة لتحقيق بعض آمالهم و رغباتهم المريضة.

من هنا أخذ مسيلمة يدعى النبوة كذبا و كتب إلى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) كتابا ذكر فيه أنّه بعث أيضا و يطلب فيه من النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) أن يشاركه في سلطان الأرض. و لما وقف النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) على مضمون الرسالة التفت إلى من حملها اليه و قال:

«لو لا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما لأنكما أسلمتما من قبل و قبلتما برسالتى فلم اتبعتما هذا الأحق و تركتما دينكما؟».

ثم ردّ علي مسيلمة الكذاب برسالة كتب فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين»^{٤٠١}.

و قد أفلح المسلمون في القضاء على حركات الارتداد التي قام بها بعض الدجالين مثل الأسود العنسي و مسيلمة و طلحة.

ص: ٢٠٣=PAGE ص:

٦- التعبئة العامة لغزو الروم^{٤٠٢}:

أبدى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) اهتماما كبيرا للحدود الشمالية للدولة الإسلامية حيث تتواجد دولة الروم المنظمة و صاحبة الجيش القوي. و لم تكن دولة فارس ذات أثر مقلق على الدولة الإسلامية لأنّ علامات الانهيار كانت قد بدت عليها، كما أنها لم تكن تملك عقيدة روحية تدافع عنها كالمسيحية لدى الروم، فهي التي كانت تشكل خطرا على الكيان

^{٤٠١} (1) السيرة النبوية: 2/ 600.

^{٤٠٢} (*) عقد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) اللواء لاسامة في صفر عام (11 هـ).

الإسلامى الفتنى، خاصة و أن بعض عناصر الشغب و النفاق قد أجليت عن الدولة الإسلامية فذهبت إلى الشام و لحق بها آخرون، و كان وجود نصارى نجران عاملا سياسيا يدفع الروم لنصرتهم.

و مع ذلك فإن كل هذه الامور لم تكن عوامل آنيّة تستدعى الاهتمام الكبير الذى ظهر واضحا من إعداد النبى (صلى الله عليه و اله) ل جيش كبير ضمّ وجوه كبار الصحابة ما خلا عليا و بعض المخلصين معه فقد أراد النبى (صلى الله عليه و اله) أن يخلو الجو السياسى من امور قد تعيق عمليّة انتقال السلطة إلى على بن أبى طالب (عليه السلام) للقيام بمهام الخلافة من بعده، بعد أن لمس النبى تحسّسا و انزعاجا من بعض الأطراف بعد تأكيده المستمر على مرجعيّة على (عليه السلام) و صلاحيته لإتمام مسيرة النبى (صلى الله عليه و اله) و خصوصا بعد بيعة الغدير، فأراد النبى (صلى الله عليه و اله) أن يخلو الظرف من التوتر السياسى فى المدينة ليتم استلام على (عليه السلام) لزام الدولة من بعده دون صدام و شجار؛ و لهذا عقد النبى (صلى الله عليه و اله) لواء و سلّمه الى اسامة بن زيد - القائد الشاب الذى نصبه الرسول (صلى الله عليه و اله) فى اشارة بليغة إلى أهمية الكفاءة فى القيادة- و جعل تحت امرته شيوخ الأنصار و المهاجرين، و قال له: «سر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فاغز صباحا على أهل ابني».

ص: ٢٠٤=PAGE:

و لكن روح التمرد و الطمع فى السلطان و قلّة الانضباط دفعت بعض العناصر إلى عدم التسليم التام لأمر النبى (صلى الله عليه و اله) و لعلها كانت عارفة بالأهداف التى قصدها النبى (صلى الله عليه و اله) و من هنا حاولت أن تؤخّر حركة الجيش المجتمع فى معسكر «الجرف». و بلغ النبى (صلى الله عليه و اله) ذلك فغضب و خرج- و هو ملتحف قطيفة، و قد عصّب جبهته بعصابة من ألم الحمى التى أصابته- إلى المسجد فصعد المنبر ثم حمد الله و أثنى عليه و قال: أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى اسامة، و لئن طعنتم فى إمارتى أباه من قبله و أيم الله إن كان للإما رة لخليقا و إن ابنه من بعده لخليق للإمارة، و إن كان لمن أحب الناس إلىّ و إنهما لمخيلان لكل خير^{٤٠٣}، و استوصوا به خيرا فإنه من خياركم»^{٤٠٤}.

و اشتدت الحمى برسول الله (صلى الله عليه و اله) و لم يغفله ثقل المرض عن الاهتمام الكبير لخروج الجيش فكان يقول: «أنفذوا جيش اسامة»^{٤٠٥} لكل من كان يعوده من أصحابه و يزيد إصرارا بقوله: «جهّزوا جيش اسامة لعن الله من تخلف عنه»^{٤٠٦}. و أوصل بعض المسلمين أبناء تدهور صحة النبى (صلى الله عليه و اله) الى معسكر المسلمين فى الجرف فرجع اسامة ليعود النبى (صلى الله عليه و اله) فحثّه النبى على المضى نحو هدفه الذى رسمه له و قال له: «اغد على بركة الله».

فعاد اسامة مسرعا إلى جيشه يحثه على الرحيل و التوجه للقيام بالمهمة المخولة إليه و لكن المتقاعسين و ذوى الأطماع فى الخلافة تمكّنوا من عرقلة مسيرة الجيش زاعمين أن النبى (صلى الله عليه و اله) يحتضر، بالرغم من تأكيد الرسول (صلى الله عليه و اله) بالتعجيل فى المسير و عدم التردّد فى المهمة التى جعلها على عاتق جيش اسامة.

ص: ٢٠٥=PAGE:

^{٤٠٣} (1) بمعنى أنهما ممن يتفرّس فيهما كل خير و الخوليّ: هو الراعي الحسن القيام على المال

^{٤٠٤} (2) الطبقات الكبرى: 2/ 190، ط دار الفكر.

^{٤٠٥} (3) المصدر السابق.

^{٤٠٦} (4) الملل و النحل: 1/ 23.

و رغم ثقل الحمى و ألم المرض خرج النبي (صلى الله عليه و اله) مستندا على على (عليه السلام) و الفضل بن العباس ليصلى بالناس و ليقطع بذلك الطريق على الوصوليين الذين خططوا لمصادرة الخلافة و الزعامة التي طمحوها لها من قبل حيث تمرّدوا على أوامر الرسول (صلى الله عليه و اله) بالخروج مع جيش اسامة بكل بساطة و التفت النبي - بعد الصلاة- إلى الناس فقال: «أيها الناس سعرت النار و أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، و إنى و الله ما تمسكون على بشىء، إني لم أحلّ إلا ما أحلّ الله، و لم احرم إلا ما حرم الله»^{٤٠٧} فأطلق بقوله هذا تحذيرا آخر أن لا يعصوه و إن لاحت فى الأفق النوايا السيئة التي ستجلب الويلات للامة حين يتزعّمها جهّالها.

و اشتد مرض النبي (صلى الله عليه و اله) و اجتمع الصحابة فى داره و لحق بهم من تخلف عن جيش اسامة فلامهم النبي (صلى الله عليه و اله) على تخلفهم و اعتذروا بأعذار واهية. و حاول النبي (صلى الله عليه و اله) بطريقة أخرى أن يصون الأمة من التردى و السقوط فقال لهم: ايتونى بدواة و صحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده، فقال عمر ابن الخطاب: إن رسول الله قد غلبه الوجع و عندكم القرآن حسبنا كتاب الله^{٤٠٨}.

ص: PAGE=٢٠٦:

و هكذا وقع التنازع و الاختلاف و قالت النسوة من وراء الحجاب: إئتوا رسول الله (صلى الله عليه و اله) بحاجته. فقال عمر: اسكتن فإنكن صويحبات يوسف إذا مرض عصرتن أعينكن و إذا صح أخذتن بعنقه، فقال رسول الله (صلى الله عليه و اله): هن خير منكم^{٤٠٩}.

ثم قال (صلى الله عليه و اله): قوموا عنى لا ينبغى عندى التنازع.

و كم كانت الامّة بحاجة ماسة الى كتاب الرسول (صلى الله عليه و اله) هذا، حتى أن ابن عباس كان يأسف كلما يذكر ذلك و يقول: الرزية كل الرزية ما حال بيننا و بين كتاب رسول الله^{٤١٠}.

و لم يصرّ نبي الرحمة على كتابة الكتاب بعد اختلافهم عنده خوفا من تماديهم فى الإساءة و إنكارهم لما هو أكبر، فقد علم (صلى الله عليه و اله) بما فى نفوسهم، و حين راجعوه ثانية بشأن الكتاب قال (صلى الله عليه و اله): «أبعد الذى قلت^{٤١١}؟!» و أوصاهم ثلاث وصايا، لكن كتب التأريخ لم تذكر سوى اثنتين منها و هما: اخراج المشركين من جزيرة العرب و اجازة الوفد كما كان يجيزهم.

^{٤٠٧} (1) السيرة النبوية: 954 / 2، الطبقات الكبرى: 2 / 215.

^{٤٠٨} (2) صحيح البخاري كتاب العلم باب كتابة العلم و كتاب الجهاد باب جوائز الوفد

^{٤٠٩} (1) الطبقات الكبرى: 2 / 244، كنز العمال: 3 / 138.

^{٤١٠} (2) صحيح البخاري كتاب العلم: 1 / 22 و 2 / 14، الملل و النحل: 1 / 22، الطبقات الكبرى: 2 / 244.

^{٤١١} (3) بحار الانوار: 22 / 469.

وعلق السيد محسن الأمين العامل على ذلك قائلاً: والمتأمل لا يكاد يشك في أن الثالثة سكت عنها المحدثون عمدا لا نسيانا وأن السياسة قد اضطرتهم الى السكوت عنها وتناسيها وأنها هي طلب الدواء والكنف ليكتبها لهم^{٤١٢}.

٢- الزهراء (عليها السلام) تزور أباه (صلى الله عليه و اله):

أقبلت الزهراء (عليها السلام) و هي تجر أذيال الحزن و تتطلع إلى أبيها و هو على

ص: PAGE=٢٠٧:

و شك الالتحاق بربه فجلست عنده منكسرة القلب دامعة العين و هي تردد:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأرامل

و في هذه اللحظات فتح النبي (صلى الله عليه و اله) عينيه و قال بصوت خافت: يا بنية هذا قول عمك أبي طالب لا تقوليه و لكن قولي: **و ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**^{٤١٣}.

و كأن النبي (صلى الله عليه و اله) كان يريد بذلك أن يهيبه ابنته فاطمة (عليها السلام) لما سيجرى من أحداث مؤسفة فإن ذلك كان هو الأنسب لتلك من قول أبي طالب رضى الله تعالى عنه و أرضاه.

ثم إن النبي (صلى الله عليه و اله) أو ما إلى حبيبته الزهراء (عليها السلام) أن تدنو منه ليحدثها فانحنت عليه فسارها بشيء فبكت ثم سارها ثانية فضحكت . و قد أثارت هذه الظاهرة فضول بعض الحاضرين فسألوها عن سر ذلك فقالت (عليها السلام): ما كنت لافشى سر رسول الله (صلى الله عليه و اله).

و لكنّها سئلت بعد وفاة أبيها (صلى الله عليه و اله) عن ذلك فقالت: أخبرني رسول الله (صلى الله عليه و اله) أنه قد حضر أجله و أنه يقبض في وجعه هذا، فبكيت ثم أخبرني أني أول أهله لحوقا به فضحكت^{٤١٤}.

٣- اللحظات الأخيرة من عمر النبي (صلى الله عليه و اله):

و كان على (عليه السلام) ملازما للرسول (صلى الله عليه و اله) ملازمة ذى الظل لظله حتى آخر لحظات حياته الشريفة و هو يوصيه و يعلمه و يضع سره عنده. و في الساعة

ص: PAGE=٢٠٨:

^{٤١٢} (4) أعيان الشيعة: 1/ 294. راجع صحيح البخاري: باب مرض النبي (صلى الله عليه و اله).

^{٤١٣} (1) آل عمران (3): 144.

^{٤١٤} (2) الطبقات الكبرى: 2/ 247، الكامل في التاريخ: 2/ 219.

الأخيرة قال رسول الله (صلى الله عليه و اله): ادعوا لى أخى - وكان (صلى الله عليه و اله) قد بعثه فى حاجة فجاءه بعض المسلمين فلم يعبأ بهم الرسول (صلى الله عليه و اله) حتى جاء على (عليه السلام) فقال (صلى الله عليه و اله) له:

ادن منى . فدنا على (عليه السلام) فاستند إليه فلم يزل مستندا إليه يكلمه حتى بدت عليه (صلى الله عليه و اله) علامات الاحتضار^{٤١٥}، و توفى رسول الله (صلى الله عليه و اله) و هو فى حجر على (عليه السلام). كما قد صرح بذلك على (عليه السلام) نفسه فى إحدى خطبه^{٤١٦} الشهيرة.

٤- وفاة النبي (صلى الله عليه و اله) و مراسم دفنه:

و لم يكن حول النبي (صلى الله عليه و اله) فى اللحظات الأخيرة إلّا على بن أبى طالب و بنو هاشم و نساؤه . و قد علم الناس بوفاته (صلى الله عليه و اله) من الضجيج و الصراخ الذى علا من بيت الرسول (صلى الله عليه و اله) حزنا على فراق الحبيب، و خفتت القلوب هلعاً لرحيل أشرف خلق الله . و انتشر خبر الوفاة فى المدينة انتشار النار فى الهشيم و دخل الناس فى حزن و ذهول رغم أنه (صلى الله عليه و اله) كان قد مهد لذلك و نعى نفسه الشريفة عدّة مرات و أوصى الامّة بما يلزمها من طاعة و وليّها و خليفته من بعده على ابن أبى طالب . لقد كانت وفاته صدمة عنيفة هزّت وجدان المسلمين، فهاجت المدينة بسكانها و ازدادت حيرة المجتمعين حول دار الرس ول (صلى الله عليه و اله) أمام كلمة عمر بن الخطاب التى قالها و هو يهدد بالسيف: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (صلى الله عليه و اله) قد مات، إنه و الله ما مات و لكنّه قد ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران^{٤١٧}.

و رغم أنه لا تشابه بين غياب موسى (عليه السلام) و وفاة النبي محمد (صلى الله عليه و اله)،

ص: ٢٠٩=PAGE

لكن مواقف عمر التالية لعلّها تكشف النقاب عن إصراره على هذه المقارنة.

نعم لم يهدأ عمر حتى قدم أبو بكر من السنح و دخل إلى بيت رسول الله (صلى الله عليه و اله) فكشف عن وجه النبي (صلى الله عليه و اله) و خرج مسرعاً و قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات و من كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت و تلا قوله تعالى: **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** و هنا هدأت فورة عمر و زعم أنه لم يلتفت الى وجود مثل هذه الآية فى القرآن الكريم^{٤١٨}.

و أسرع أبو بكر و عمر بن الخطاب مع بعض أصحابهما إلى سقيفة بنى ساعدة بعد أن عرفا أن اجتماعاً طارئاً قد حصل فى السقيفة فيما يخصّ الخلافة بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه و اله). متناسين نصب على بن أبى طالب و كذا بيعتهم إياه بالخلافة و غير مدركين أن تصرفهم هذا يعدّ استخفافاً بحرمته رسول الله (صلى الله عليه و اله) و جسده المسجّى.

^{٤١٥} (1) الطبقات الكبرى: 263 / 2.

^{٤١٦} (2) نهج البلاغة: خطبة 197.

^{٤١٧} (3) الكامل فى التاريخ: 323 / 2، الطبقات الكبرى: 266 / 2، السيرة النبوية لزينى دحلان: 306 / 2.

^{٤١٨} (1) الطبقات الكبرى: 2 / القسم الثاني: 53- 56.

وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَأَهْلُ بَيْتِهِ فَقَدْ انشَغَلُوا بِتَجْهِيزِ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وَدَفَنِهِ فَقَدْ غَسَلَهُ عَلِيُّ مِنْ دُونِ أَنْ يَنْزِعَ قَمِيصَهُ وَأَعَانَهُ عَلِيُّ ذَلِكَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ابْنَهُ وَالْفَضْلُ وَكَانَ يَقُولُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا أَطْيَبِيكَ حَيًّا وَمَيِّتًا^{٤١٩}.

ثم وضعوا جسد الرسول (صلى الله عليه وآله) على سرير وقال علي (عليه السلام): إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإمامنا حيا وميتا فليدخل عليه بعد فوج فيصلون عليه بغير إمام وينصرفون.

وأول من صلى على النبي (صلى الله عليه وآله) علي (عليه السلام) وبنو هاشم ثم صلت الانصار من بعدهم^{٤٢٠}.

ص: ٢١٠ = PAGE:

ووقف علي (عليه السلام) بحيال رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يقول: سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما أنزل إليه ونصح لامته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل الله إليه وتبتنا بعده واجمع بيننا وبينه، فيقول الناس: آمين، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان^{٤٢١}.

وحفر قبر للنبي (صلى الله عليه وآله) في الحجرة التي توفى فيها. وحين أراد علي (عليه السلام) أن ينزله في القبر نادى الأنصار من خلف الجدار: يا علي نذكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله أن يذهب، أدخل منا رجلا يكون لنا به حظ من موازاة رسول الله. فقال (عليه السلام) ليدخل أوس بن خولى، وكان بدريا فاضلا من بنى عوف.

ونزل علي (عليه السلام) إلى القبر فكشف عن وجه رسول الله ووضع خده على التراب، ثم أهال عليه التراب.

ولم يحضر دفن النبي (صلى الله عليه وآله) الصلاة عليه أحد من الصحابة الذين ذهبوا إلى السقيفة.

فسلام عليك يا رسول الله يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيا.

ص: ٢١١ = PAGE:

الفصل الخامس من معالم الرسالة الإسلامية الخاتمة

بما ذا بعث النبي محمد (صلى الله عليه وآله)؟^{٤٢٢}

بعث الله تعالى نبيه محمدا (صلى الله عليه وآله) علي حين فترة من الرسل خاتما للنبيين وناسخا لشرائع من كان قبله من المرسلين إلى الناس كافة أسودهم وأبيضهم عربهم وعجمهم وقد ملئت الأرض من مشرقها إلى مغربها بالخرافات والسخافات والبدع والقبايح وعبادة الأوثان.

^{٤١٩} (2) السيرة النبوية لابن كثير: 518 / 4.

^{٤٢٠} (3) الإرشاد: 187 / 1 و اعيان الشيعة: 295 / 1.

^{٤٢١} (1) الطبقات الكبرى: 291 / 2.

^{٤٢٢} (1) تجد هذا البحث في سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) للسيد محسن الأمين العاملي في كتابه أعيان الشيعة.

فقام (صلى الله عليه و اله) فى وجه العالم كافةً و دعا إلى الايمان بإله واحد خالق رازق مالك لكل أمر، بيده النفع و الضر، لم يكن له شريك فى الملك و لم يكن له ولى من الذل و لم يتخذ صاحبةً، لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد.

بعثه أمراً بعبادته وحده لا شريك له مبطلاً عبادة الاصنام و الاوثان التى لا تضر و لا تنفع و لا تعقل و لا تسمع و لا تدفع عن أنفسها و لا عن غيرها ضراً و لا ضيماً، متمماً لمكارم الاخلاق حائناً على محاسن الصفات أمراً بكل حسن ناهياً عن كل قبيح.

ص: ٢١٢=PAGE:

سهولة الشريعة الاسلامية و سماحتها

و اكتفى من الناس بأن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة و يصوموا شهر رمضان و يحجوا البيت و يلتزموا بأحكام الاسلام . و كان قول هاتين الكلمتين (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) يكفى لأن يكون لقائله ما للمسلمين و عليه ما عليهم.

سمو التعاليم الاسلامية

و بعث بالمساواة فى الحقوق بين جميع الخلق، و أن أحدا ليس خيراً من أحد إلا بالتقوى . و بالاخوة بين جميع المؤمنين و بالكفاءة بينهم: تنكافأ دماؤهم و يسعى بذمتهم أدناهم، و بالعفو العام عن دخل فى الاسلام.

و سنّ شريعة باهرة و قانوناً عادلاً تلقاه ع ن الله تعالى فكان هذا القانون جامعاً لأحكام عباداتهم و معاملاتهم و ما يحتاجونه فى معاشهم و معادهم و كان عبادياً اجتماعياً سياسياً أخلاقياً لا يشدّ عنه شىء مما يمكن وقوعه فى حياة البشر مستقبلاً و يحتاج اليه بنو آدم، فما من واقعة تقع و لا حادثة تحدث إلا و لها فى الشريعة الاسلامية أصل مسلم عند المسلمين ترجع اليه.

على أن العبادات فى الدين الاسلامى لا تتمحض لمجرد العبادة ففيها منافع بدنية و اجتماعية و سياسية فالطهارة تفيد النظافة، و فى الصلاة رياضة روحية و بدنية، و فى صلاة الجماعة و الحج فوائد اجتماعية و سياسية ظاهرة، و فى الصوم فوائد صحية لا تنكر، و الاحاطة بفوائد الاحكام الاسلامية الظاهرة فضلاً عن الخفية أمر متعذر أو عسير.

و لما فى هذا الدين من محاسن و موافقة أحكامه للعقول و سهولتها

ص: ٢١٣=PAGE:

و سماحتها و رفع الحرج فيه و الاكتفاء بإظهار الشهادتين و لما فى تعاليمه من سمو و الحزم و الجد دخل الناس فيه افواجا و ساد أهله على أعظم ممالك الأرض و اخترق نوره شرق الارض و غربها و دخل جميع أقاليمها و أقطارها تحت لوائه و دانت به الأمم على اختلاف عناصرها و لغاتها.

و لم يمض زمن قليل حتى أصبح ذلك الرجل الذى خرج من مكة مس تخفيا و أصحابه يعذبون و يستذلون و يفتنون عن دينهم، يعتصمون تارة بالخروج إلى الحبشة مستخفين و اخرى بالخروج الى المدينة متسللين، يدخل مكة بأصحابه هؤلاء فى عمرة القضاء ظاهرا لا يستطيعون دفعه و لا منعه و لم تمض إلا مدة قليلة حتى دخل مكة فاتحا لها و سيطر على أهلها من دون أن تراق محجمة دم بل و لا قطرة دم فدخلوا فى الاسلام طوعا و كرها و توافدت عليه رؤساء العرب ملقية إليه عنان طاعتها و كان من قبل هذا الفتح بلغ من القوة أن بعث برسله و سفرائه إلى ملوك الأرض مثل كسرى و قيصر و من دونهما و دعاهم إلى الاسلام و غزا بلاد قيصر مع بعد الشقة و ظهر دينه على الدين كله كما وعده ربه حسبا صرح تعالى بذلك فى سورة النصر، و الفتح و غيرهما و كما تخبرنا بذلك كتب التاريخ.

و لم يقم هذا الدين بالسيف و القهر كما يصوره من يريد الوقعة فيه بل كما أمر الله تعالى : **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ^{٢٣٣} . و لم يحارب أهل مكة و سائر العرب حتى حاربوه و أرادوا قتله و اخرجوه، و أقر أهل الاديان التى نزلت بها الكتب السماوية على أديانهم و لم يجبرهم على الدخول فى الاسلام.

ص: ٢١٤=PAGE:ص:

القرآن الكريم

و انزل الله تعالى على نبيه حين بعثه بالنبوة قرآنا عربيا مبينا لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و قد أعجز النبي (صلى الله عليه و اله) به البلغاء و أخرس الفصحاء و تحداهم فيه فلم يستطيعوا معارضته و هم أفصح العرب بل و اليهم تنتهى الفصاحة و البلاغة، و قد حوى هذا الكتاب العزيز المنزل من لدن حكيم عليم من أحكام الدين و أخبار الماضين و تهذيب الاخلاق و الأمر بالعدل و النهي عن الظلم و تبيان كل شىء ما جعله يختلف عن كل الكتب حتى المنزلة منها و هو ما يزال يتلى على كره الدهور و مر الأيام و هو غرض طرى يحير ببيانه العقول و لا تملة الطباع مهما تكررت تلاوته و تقادم عهده.

و قد كان القرآن الكريم معجزة فيما أبدع من ثورة علمية و ثقافية فى ظلمات الجاهلية الجهلاء و قد أرسى قواعد نهضته على منهج علمى قويم، فحث على العلم و جعله العامل الأوّل لتسامى الانسان نحو الكمال اللائق به و حث على التفكير و التعقل و التجربة و البحث عن ظواهر الطبيعة و التعمق فيها لاكتشاف قوانينها و سننها و أوجب تعلم كل علم تتوقف عليه الحياة الاجتماعية للانسان و اهتم بالعلوم النظرية من كلام و فلسفة و تاريخ و فقه و أخلاق، و نهى عن التقليد و اتباع الظن و أرسى قواعد التمسك بالبرهان.

و حث القرآن على السعى و الجد و التسابق فى الخيرات و نهى عن البطالة و الكسل و دعا الى الوحدة و نبذ الفرقة . و شجب العنصرية و التعصب القبلي الجاهلية.

و أقر الاسلام العدل كأساس فى الخلق و الكوين و التشريع و المسؤولية و فى الجزاء و المكافاة، و هو أوّل من نادى بحق المساواة بين أبناء الانسان أمام

ص: ٢١٥=PAGE:ص:

قانون الله و شريعته و أدان الطبقية و التمييز العنصرى و جعل ملاك التفاضل عند الله أمرا معنويًا هو التقوى و الاستباق الى الخيرات، من دون أن يجعل هذا التفاضل سببا للتمايز الطبقي بين أبناء المجتمع البشرى.

و بالغ الاسلام فى حفظ الأمن و المحافظة على الأموال و الدماء و الأعراض و فرض العقوبات الشديدة على سلب الأمن بعد أن شيّد الارضية اللازمة لاستقرار الأمن و العدل و جعل العقوبة آخر دواء لعلاج هذ ه الأمراض الاجتماعية بنحو ينسجم مع الحرية التى شرّعها للانسان . و من هنا كان القضاء فى الشريعة الاسلامية مرتكزا على إقرار العدل و الأمن و إحقاق الحقوق المشروعة مع كل الضمانات اللازمة لذلك.

و اعتنى الاسلام بحفظ الصحة و السلامة البدنية و النفسية غاية الاعتناء و جعل تشريعاته كلها منسجمة مع هذا الأصل المهم فى الحياة.

الواجبات و المحرمات فى الشريعة الاسلامية:

و تركز الواجبات و المحرمات فى الشريعة الاسلامية على اسس فطرية واقعية و امور تستلزمها طبيعة الأهداف السامية للشريعة التى جاءت لإخراج هذا الانسان من ظلمات الجاهلية و هدايته الى نور الحق و الكمال، و لا تحتاج الانسانية الى شىء يرتكز عليه الكمال البشرى إلّا و أوجبه الشريعة الاسلامية على الانسان و هيأت له سبل الوصول إليه، و حرّمت كل شىء يعيق الانسان عن السعادة الحقيقية المنشودة له و سدّت كل منافذ السقوط الى ه وّة الشقاء.

و أباحت الطبيات و لذائد الحياة الدنيا و زينتها ممّا لا يخلّ باصول الشريعة و مدارج الكمال البشرى و حدّدت قنواتها حين حدّدت الأهداف

ص: ٢١٦=PAGEص:

السامية و حرّمت ما يضرّ و أوجبت ما ينبغى للانسان امتثاله.

و مع ذلك كله فقد اعتبرت الشريعة مكارم الا خلاق أهدافا أساسية ينبغى للانسان الذكى اللبيب أن يحصل عليها فى هذه الحياة الدنيا ليسعد بها فى الدنيا و يحيا بها فى الآخرة ذات الحياة الأبدية الدائمة.

و اعتنى الاسلام بالمرأة اعتناء بالغا و جعلها ركن العائلة و أساس السعادة فى الحياة الزوجية و شرّع لها من ا لحقوق و الواجبات ما يضمن لها عزّها و كرامتها و تحقيق سعادتها و سعادة أبنائها و مجتمعها الإنسانى.

و صفوة القول أنّ الإسلام لم يغفل عن تشريع كل ما يحتاجه المجتمع البشرى فى تكامله و ارتقائه.

ص: ٢١٧=PAGEص:

الفصل السادس تراث خاتم المرسلين (صلّى الله عليه و اله)

قال تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^{٤٢٤}.

لقد تجلت لنا- من خلال دراسة التاريخ الاسلامي - الثمار العظيمة لهذه البعثة الإلهية لخاتم النبيين محمد (صلى الله عليه و اله) حيث أسفرت نبوته عن:

- ١- رسالة إلهية شاملة قام بتبليغها الى البشرية عامة.
 - ٢- أمة مسلمة تحمل مشعل الرسالة و عبير النبوة الى سائر الامم.
 - ٣- و دولة اسلامية ذات كيان سياسى مستقل و نظام إلهى فريد.
 - ٤- و قيادة معصومة تخلف الرسول القائد و تمثله خير تمثيل.
- و اذا قصرنا النظر على التراث المسموع أو المكتوب و المدون و كان تعريفنا لتراث الرسول الخاتم (صلى الله عليه و اله) بأنه: كل ما قدمه الى البشرية و الامة الاسلامية من عطاء مقروء أو مسموع، فينبغى لنا أن نصنف ما قدمه إليهم الى:

١- القرآن الكريم.

٢- السنة الشريفة.

ص: ٢١٨=PAGEص:

و يشترك العطاءان بأنهما من فيض السماء على الانسان بتوسط هذا الرسول الكريم. فهما وحى الله على قلب محمد (صلى الله عليه و اله) الذى لم ينطق عن الهوى.

و يتميز القرآن الحكيم أولاً بأن شكله و محتواه (نصه و مضمونه) معا من الله تعالى، فالصياغة إلهية معجزة كما أن مضمونه كذلك. على أن جمعه و تدوينه - كما هو الصحيح و الثابت تأريخيا- قد تمّ فى عصر الرسول نفسه و قد تواتر إلينا نصّه بشكل كامل غير محرّف.

و الوثائق التآريخية الدالة على تدوين النص القرآنى فى عصر الرسول (صلى الله عليه و اله) غير قليلة، نكتفى بنص قرآنى و آخر غير قرآنى على ذلك.

فالأول: قوله تعالى: وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا^{٤٢٥}.

و الثانى: ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه السلام) حيث قال:

^{٤٢٤} (1) الجمعة (62): 2.
^{٤٢٥} (1) الفرقان (25): 5.

«... ما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه و اله) آية من القرآن إلا أقرأنيها و أملاها على فكتبتها بخطي و علمني تأويلها و تفسيرها و ناسخها و منسوخها و محكمها و متشابها و خاصها و عامها، و دعا الله أن يعطيني فهمها و حفظها، فما نسيت من كتاب الله و لا علما أملاه على و كتبته منذ دعا لي بما دعا»^{٤٢٦}.

و المسلمون جميعا متفقون على أن النبي (صلى الله عليه و اله) بلغ القرآن كاملا، و أن القرآن المتداول اليوم بين المسلمين هو الذي كان متداولاً في عهد النبي (صلى الله عليه و اله) لم يزد فيه شيء و لم ينقص منه شيء.

و أمّا السنة الشريفة و الحديث النبوي، فهو بشرى الصياغة إلهي

ص: ٢١٩=PAGEص:

المضمون، و يتميز بالفصاحة الكاملة و تتجلى فيه عظمة الرسول و كماله و عصمته و التسديد الإلهي له.

و من هنا كان القرآن الكريم هو المصدر الأوّل للتشريع و الينبوع الاساسي للمعرفة التي تحتاجها البشرية على مدى الحياة . قال تعالى: **قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَ لَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**^{٤٢٧}.

و اعتبر القرآن الكريم السنة الشريفة ثاني مصدر للتشريع الرباني حيث اعتبرت سنة النبي الكريم مصدرا تشريعيًا تاليا للقرآن باعتبار النبي (صلى الله عليه و اله) مفسراً للذكر الحكيم و اسوة حسنة يقتدى بها، و على الناس أن يأخذوا بأوامره و ينتهوا عن نواهيه^{٤٢٨}.

و لكن السنة النبوية- و للأسف- لقيت بعد عصر الرسول (صلى الله عليه و اله) و بالذات عصر الخلفاء الأوائل وضعاً سيئاً حيث أقدم أبو بكر و عمر على منع تدوين حديث الرسول (صلى الله عليه و اله)، و قاما بحرق ما دونه بعض الصحابة بحجة أن ذلك النهي جاء منهما- و من عمر بالذات- حرصاً منهما على القرآن الكريم لأن تدوين السنة و الاهتمام بها يؤدي بالتدريج الى الغفلة عن القرآن أو إلى ضياع القرآن من حيث التباسه بالحديث.

و لكن أهل البيت و أتباعهم و كثير من المسلمين قد تعاملوا مع سنة الرسول (صلى الله عليه و اله) التعامل اللائق بها من الاحترام و التقديس مستلهمين ذلك من القرآن الكريم، و من هنا أخذوا يتداولونها حفظاً و تحدىً ثابراً و تدويناً و تطبيقاً بالرغم من الحظر الرسمي للتدوين. الذي كان لسبب آخر- كما يبدو- غير ما

ص: ٢٢٠=PAGEص:

ذكر، ببطان ما ذكر من الأسباب. حيث خالف العلماء و الخلفاء فيما بعد ذلك الحظر و راحوا يحثون على التدوين.

^{٤٢٦} (2) الكافي: 1/ 62- 63 كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث.

^{٤٢٧} (1) البقرة (2): 120.

^{٤٢٨} (2) النحل (16): 44، و الاحزاب (33): 21 و الحشر (59): 7.

و أول من بادر الى تدوين السنّة الشريفة و اعتنى به اشدّ الاعتناء هو ربيب الرسول (صلى الله عليه و اله) و وصيه الإمام على بن أبى طالب (عليه السلام). قال: «و قد كنت أدخل على رسول الله (صلى الله عليه و اله) كل يوم دخلة و كل ليلة دخلة فيخيلني فيها، أدور معه حيثما دار.

و قد علم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و اله) أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيرى ... و كنت إذا سألته أجبني و اذا سكت و فنيت مسألتى ابتدأنى، فما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه و اله) آية من القرآن الا أقرأنيها و أملاها علىّ فكتبتها بخطى و علّمني تأويلها و تفسيرها ... و ما ترك شيئاً علمه الله من حلال و لا حرام و لا أمر و لا نهى كان أو يكون منزلاً على أحد قبله من طاعة أو معصية الا علّمنيّه و حفظته فلم أنس حرفاً واحداً...»^{٤٢٩}.

و تمثّلت مدونات الامام علىّ (عليه السلام) مما أملاه عليه الرسول (صلى الله عليه و اله) فى ما يسمّى بكتاب على و ما يسمّى بالجامعة أو الصحيفة.

قال ابو العباس النجاشى المتوفى سنة (٤٥٠ هـ): أخبرنا محمد بن جعفر (النحوى التميمى و هو شيخه فى الاجازة) مسنداً الى عذافر الصير فى قال:

كنت مع الحكم بن عتيبة عند أبى جعفر (عليه السلام) فجعل يسأله و كان أبو جعفر (عليه السلام) له مكرماً فاختلفا فى شىء، فقال أبو جعفر (عليه السلام): يا بنى قم فأخرج كتاب على (عليه السلام)، فأخرج كتاباً مدروجاً عظيماً، ففتحته و جعل ينظر حتى أخرج المسألة فقال ابو جعفر (عليه السلام): هذا خط على (عليه السلام) و إملاء رسول الله (صلى الله عليه و اله) و أقبل على الحكم و قال: يا أبا محمد اذهب أنت و سلمة و أبو المقدم حيث شئتم يمينا و شمالاً فوالله لا تجدون العلم أو ثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرائيل (عليه السلام)^{٤٣٠}.

ص: ٢٢١ = PAGE ص:

و عن ابراهيم بن هاشم مسنداً الى أبى جعفر (عليه السلام): فى كتاب على كل شىء يحتاج اليه حتى أرش الخدش^{٤٣١}.

و أما صحيفة علىّ (عليه السلام) أو الجامعة فهى مدونة اخرى لعلى (عليه السلام) على جلد طوله سبعون ذراعاً فعن أبى بصير (عليه السلام): أنه قال له الامام الصادق (عليه السلام) فيما قال له: و ان عندنا الجامعة، صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله (صلى الله عليه و اله) و املائه من فلق فيه و خط على (عليه السلام) بيمينه، فيها كل حلال و حرام و كل شىء يحتاج اليه الناس حتى الارش فى الخدش^{٤٣٢}.

هذا هو موقف أهل البيت (عليهم السلام) من السنّة الشريفة.

و أما الموقف الحكومى الرسمى فى خلافة الشيخين فقد ترك آثاراً سلبية كبيرة حيث استمرّ هذا الحظر إلى ما لا يقلّ عن قرن واحد و أدّى الى ضياع كثير منها، و فتح الباب أمام تسرب الإسرائيليات الى مصادر الثقافة عند المسلمين، كما و أنتج

^{٤٢٩} (1) بصائر الدرجات: 198 و الكافي: 1/ 62-63.

^{٤٣٠} (2) تاريخ التشريع الإسلامى: 31.

^{٤٣١} (1) تاريخ التشريع الإسلامى: 32.

^{٤٣٢} (2) المصدر السابق: 33.

افتتاح باب الرأى والاستحسان على مصراعيه حتى غدا الرأى مصدرا من مصادر التشريع بل قد قدمه البعض حتى على نصوص السنّة النبوية الشريفة؛ إذ لم يصمد كثير من النصوص أمام النقد العلمى . وهذا قد أدى بدوره الى شحّة النصوص النبوية الصحيحة عند أهل السنّة و عدم وفائها بما تحتاجه الامّة فى عصورها المقبلة.

و لكن أهل البيت (عليهم السّلام) قد وقفوا أمام هذا التيار الجارف بكل حزم و استطاعوا أن يحفظوا السنّة الشريفة من الضياع عند المؤمنين من خلال توجيهاتهم و حسب ما تقتضيه إمامتهم و خلافتهم الشرعية فإنّ أولى مهامّ الإمام و الخليفة المنصوص هو حفظ الشريعة و نصوصها من الضياع.

ص: ٢٢٢=PAGE ص:

و من هنا لزم على الباحث عن السنّة النبوية الرجوع الى مصادر السنّة عند أهل البيت (عليهم السّلام) و أتباعهم فإنهم أدرى بما فى البيت.

و السنّة الشريفة عند أهل البيت (عليهم السّلام) تغطّى جميع أبواب العقيدة و الفقه و الاخلاق و التربية و كل ما تحتاجه البشرية فى كل مجالات الحياة.

و قد صرّح الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السّلام) حفيد الرسول الأعظم بهذه الحقيقة فقال : «ما من شىء إلّا و فيه كتاب أو سنّة ٤٣٣».

ص: ٢٢٣=PAGE ص:

نماذج من تراث سيّد المرسلين (صلّى الله عليه و اله)

١- العقل و العلم:

١- لقد اهتم الرسول (صلّى الله عليه و اله) بالعقل أشدّ الاهتمام، فعرفّه و بيّن وظيفته و دوره فى الحياة : على مستوى التكليف و المسؤولية، و على مستوى العمل و الجزاء، كما بيّن عوامل رشدّه و تكامله، فقال:

«إنّ العقل عقال من الجهل، و النفس مثل أخبث الدواب، فإن لم يعقل حارت، فالعقل عقال من الجهل، و إنّ الله خلق العقل، فقال له: أقبّل فأقبّل، و قال له: أدبر فأدبر، فقال له الله تبارك و تعالى: و عزّتى و جلالى ما خلقت خلقا أعظم منك و لا أطوع منك، بك ابدى و اعيد، لك الثواب و عليك العقاب.

فتشعب من العقل الحلم، و من الحلم العلم، و من العلم ا لرشد، و من الرشد العفاف، و من العفاف الصيانة، و من الصيانة الحياء، و من الحياء الرزانة، و من الرزانة المداومة على الخير، و كراهية الشر، و من كراهية الشر طاعة الناصح.

فهذه عشرة أصناف من أنواع الخير، و لكل واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع...»^{٤٣٤}.

٢- و اهتم الرسول الرائد (صلى الله عليه و اله) بالعلم و المعرفة، مبيّنا دور العلم فى الحياة و قيمته اذا ما قيس الى سائر أنواع الكمال، فقال:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم من مظانّه، و اقتبسوه من أهله، فإنّ

ص:٢٢٤=PAGEص:

تعليمه لله حسنة، و طلبه عبادة، و المذاكرة به تسبيح، و العمل به جهاد، و تعليمه من لا يعلمه صدقة، و بذله لأهله قرابة إلى الله تعالى؛ لأنّه معالم الحلال و الحرام، و منار سبيل الجنّة، و المؤنس فى الوحشة، و الصاحب فى الغربة و الوحدة، و المحدّث فى الخلوّة، و الدليل على السراء و الضراء ، و السلاح على الأعداء، و الزين عند الأخلّاء . يرفع الله به أقواما، فيجعلهم فى الخير قادة، تقتبس آثارهم، و يهتدى بفعالهم، و ينتهى إلى رأيهم، و ترغب الملائكة فى خلّتهم . بأجنتها تمسحهم، و فى صلاحها تبارك عليهم . يستغفر لهم كل رطب و يابس، حتى حيتان البحر و هو أمّه، و سباع البر و أنعامه. إن العلم حياة القلوب من الجهل، و ضياء الأبصار من الظلمة، و قوة الأبدان من الضعف . يبلغ بالعبد منازل الأخيار، و مجالس الأبرار، و الدرجات العلى فى الدنيا و الآخرة . الذكر فيه يعدل بالصيام، و مدارسته بالقيام . به يطاع الرب، و به توصل الأرحام، و به يعرف الحلال و الحرام. العلم إمام العمل و العمل تابعه.

يلهمه السعداء، و يحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله منه حظّه.

و صفة العاقل أن يحلم عمّن جهل عليه، و يتجاوز عمّن ظلمه، و يتواضع لمن هو دونه، و يسابق من فوّه فى طلب البر . و إذا أراد أن يتكلم تدبّر، فإن كان خيرا تكلم فغنم، و إن كان شرا سكت فسلم، و إذا عرضت له فتنة استعصم بالله، و أمسك يده و لسانه، و إذا رأى فضيلة انتهز بها. لا يفارقه الحياء، و لا يبدو منه الحرص، فتلك عشر خصال يعرف بها العاقل.

و صفة الجاهل أن يظلم من خالطه، و يتعدّى على من هو دونه، و يتناول على من هو فوّه. كلامه بغير تدبّر، إن تكلم أثم، و إن سكت سها، و إن عرضت له فتنة سارع إليها فأردته، و إن رأى فضيلة أعرض عنها و أبطأ عنها . لا يخاف ذنوبه القديمة، و لا يرتدع فيما بقى من عمره من الذنوب . يتوانى عن البرّ و يبطن عنه، غير مكترث لما فاته من ذلك أو ضيّعه، فتلك

ص:٢٢٥=PAGEص:

عشر خصال من صفة الجاهل الذى حرم العقل^{٤٣٥}.

٢- مصادر التشريع:

^{٤٣٤} (1) راجع تمام الحديث فى تحف العقول، باب مواظب النبي و حكمه . و روي أنّ شمعون بن لاوي المسيحي دخل على رسول الله و ناقشه طويلا ثم اعتنق الإسلام فقال : أخبرني عن العقل ما هو؟ و كيف هو؟ و ما يتشعب منه و ما لا يتشعب، وصفه وصف لي طوائفه كلها، فقال الرسول: ... ان العقل عقال من الجهل ... راجع أيضا كلمة الرسول الأعظم 91.
^{٤٣٥} (1) بحار الأنوار: 1/ 171 طبعة مؤسسة الوفاء، و راجع تحف العقول: 28 طبعة مؤسسة النشر الاسلامي.

٣- لقد رسم خاتم الرسل (صلى الله عليه و اله) للناس جميعا طريق السعادة الحقيقية و ضمن لهم الوصول اليها فيما اذا التزموا بالتعليمات التي بينها لهم . و يتلخص طريق السعادة عند الرسول (صلى الله عليه و اله) بالتمسك بأصليين أساسيين لا غنى بأحدهما عن الآخر و هما الثقلان، حيث قال:

«أيها الناس! إنني فرطكم، و انتم واردون على الحوض، ألا و إنني سائلكم عن الثقلين، فانظروا : كيف تخلفوني فيهما؟ فإن اللطيف الخبير نبأني: أنهما لن يفترقا حتى يلقىاني، و سألت ربي ذلك فأعطانيه، ألا و إنني قد تركتهما فيكم : كتاب الله و عترتي أهل بيتي، لا تسبقوهم فترقوا و لا تقصروا عنهم فتهلكوا، و لا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم .

أيها الناس! لا ألفينكم بعدى كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كمجراً السيل الجرار.

ألا و إن علي بن أبي طالب أخى و وصيى، يقاتل بعدى على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله»^{٤٣٤}.

القرآن و دوره المتميز:

٤- و أفصح النبي (صلى الله عليه و اله) تبليغ بيانه عن عظمة القرآن الكريم مبينا دوره فى الحياة و قيمة التمسك التام به حيث خاطب عامة البشرية قائلا:

«أيها الناس! إنكم فى دار هدنة، و أنتم على ظهر سفر، و السير بكم سريع، فقد رأيتم الليل و النهار، و الشمس و القمر، يبليان كل جديد، و يقربان كل بعيد، و يأتيان بكل وعد

ص: ٢٢٦=PAGE ص:

و وعيد، فأعدوا الجهاز لبعث المجاز . إنها دار بلاء و ابتلاء، و انقطاع و فناء، فإذا التبست عليكم الامور كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، و ماحل مصدق . من جعله أمامه قاده إلى الجنة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و من جعله الدليل يدلّه على السبيل . و هو كتاب فيه تفصيل، و بيان و تحصيل . هو الفصل ليس بالهزل، و له ظهر و بطن، فظاهرة حكم الله، و باطنه علم الله تعالى، فظاهرة أنيق، و باطنه عميق، له تخوم، و على تخومه تخوم، لا تحصي عجائبه، و لا تبلي غرائبه، مصابيح الهدى، و منار الحكمة، و دليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، و ليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب، و يتخلص من نشب؛ فإن التفكر حياة قلب البصر، كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص، و قلة التربص»^{٤٣٧}.

أهل البيت (عليهم السلام) أركان الدين

٥- و عرف الرسول الخاتم (صلى الله عليه و اله) الثقل الكبير - أى أهل بيت الرسالة:

على و بنوه الأحد عشر - بأنواع التعريف، و كان مما قاله فى آخر خطبة خطبها:

^{٤٣٦} (2) أعيان الشيعة: 2/ 226، تاريخ اليعقوبي: 2/ 101- 102 .
^{٤٣٧} (1) تفسير العياشي: 1/ 2- 3، كنز العمال: 2/ 288، الحديث 4027.

«يا معشر المهاجرين والأنصار! و من حضرني في يومى هذا، و فى ساعتى هذه، من الجنّ و الإنس فليبلغ شاهدكم الغائب: ألا قد خَلَفْت فيكم كتاب الله . فيه التّور، و الهدى، و البيان، ما فرّط الله فيه من شىء، حجة الله لى عليكم. و خَلَفْت فيكم العلم الأكبر، علم الدين، و نور الهدى، وصيّى: على بن أبى طالب، ألا و هو حبل الله، فاعتصموا به جميعا، و لا تفرقوا عنه، وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا^{٢٣٨}.

أيها الناس! هذا على بن أبى طالب، كنز الله، اليوم و ما بعد اليوم، من أحبه و تولاه

ص: PAGE=٢٢٧:

اليوم و ما بعد اليوم، فقد أوفى بما عاهد عليه، و أدّى ما وجب عليه، و من عاداه الى يوم و ما بعد اليوم، جاء يوم القيامة أعمى و أصمّ، لا حجة له عند الله.

أيها الناس! لا تأتونى غدا بالنديا، ترفونها زفّا، و يأتى أهل بيتى شعناء غرباء، مقهورين مظلومين، تسيل دماؤهم أمامكم، و بيعات الضلالة و الشورى للجهالة فى رقابكم.

ألا و إن هذا الأمر له أصح اب و آيات، قد سمّاهم الله فى كتابه، و عرفتكم، و بلّغتم ما أرسلت به إليكم، و لكنى أراكم قوما تجهلون. لا ترجعن بعدى كفارا مرتدين، متأولين للكتاب على غير معرفة، و تتبدعون السنّة بالهوى؛ لأنّ كل سنّة و حديث و كلام خالف القرآن فهو ردّ و باطل.

القرآن إمام هدى، و له قائد يهدى إليه، و يدعو إليه بالحكمة و الموعدة الحسنّة . و هو وليّ الأمر بعدى، و وارث علمى و حكمتى، و سرّى و علانيتى، و ما ورثه النبيون من قبلى، و أنا وارث و مورث، فلا يكذبنكم أنفسكم.

أيها الناس! الله الله فى أهل بيتى؛ فإنهم أركان الدين، و مصابيح الظلم، و معدن العلم؛ علىّ أخى، و وارثى، و وزيرى، و أمينى، و القائم بأمرى، و الموفى بعهدى على سنّتى . أولّ الناس بى إيمانا، و آخرهم عهدا عند الموت، و أوسطهم لى لقاء يوم القيامة، فليبلغ شاهدكم غائبكم ألا و من أمّ قوما إمامة عمياء، و فى الأمة من هو أعلم، فقد كفر.

أيها الناس! و من كانت له قبلى تبعه فيما أنا، و من كانت له عدة، فليأت فيها على بن أبى طالب، فإنّه ضامن لذلك كله، حتى لا يبقى لأحد علىّ تباعة»^{٢٣٩}.

ص: PAGE=٢٢٨:

٣- اصول العقيدة الإسلامية

الخالق لا يوصف:

^{٢٣٨} (2) آل عمران(3): 103 .
^{٢٣٩} (1) آخر خطبة لرسول الله (صلى الله عليه و اله). راجع بحار الأنوار: 484- 487.

«إنَّ الخالق لا يوصف إلَّا بما وصف به نفسه، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تتأله، و الخطرات أن تحدّه، والأبصار عن الإحاطة به؟ جلَّ عمَّا يصفه الواصفون، ناء في قربه، و قريب في نأيه، كيف الكيفيّة فلا يقال له كيف؟ و أين الأين فلا يقال له أين؟ هو منقطع الكيفيّة و الأينوئيّة، فهو الأحَد الصمد كما وصف نفسه، و الواصفون لا يبلغون نعتَه، لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد»^{٤٢٠}.

شروط التوحيد:

«إذا قال العبد: «لا إله إلَّا الله» فينبغي أن يكون معه تصديق و تعظيم، و حلاوة و حرمة، فإذا قال : «لا إله إلَّا الله» و لم يكن معه تعظيم، فهو مبتدع. و إذا لم يكن معه حلاوة فهو وراء. و إذا لم يكن معه حرمة فهو فاسق»^{٤٢١}.

رحمة الله:

«إن رجلين كانا في بنى إسرائيل، أحدهما مجتهد في العبادة و الآخر مذنب، فجعل يقول المجتهد : أقصر عمَّا أنت فيه، فيقول: خلّني و ربّي، حتى وجده يوما على ذنب استعظمه، فقال : أقصر، قال: خلّني و ربّي، أبعثت عليّ رقيباً؟ فقال : و الله لا يغفر الله لك و لا يدخلك الجنة. فبعث الله إليهما ملكا، فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل

ص: ٢٢٩=PAGEص:

الجنة برحمتي، و قال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ فقال: لا يا ربّ. قال:

اذهبوا به إلى النار»^{٤٢٢}.

لا جبر و لا اختيار:

«إنَّ الله لا يطاع جبرا، و لا يعصى مغلوبا، و لم يهمل العباد من المملكة، و لكنه القادر على ما أقدرهم عليه، و المالك لما ملكهم إياه؛ فإن العباد إن ائتمروا بطاعة الله لم يكن منها مانع، و لا عنها صاد، و إن عملوا بم عصيته فشاء أن يحول بينهم و بينها فعل، و ليس من شاء أن يحول بينك و بين شيء و لم يفعله، فأتاه الذي فعله كان هو الذي أدخله فيه»^{٤٢٣}.

الخاتمية:

«فضّلت على الأنبياء بستّ : اعطيت جوامع الكلم، و نصرت بالرعب من مسيرة شهر، و احلّلت لي الغنائم . و جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا. و ارسلت إلى الخلق كافّة.

^{٤٢٠} (1) بحار الأنوار: 94 / 2، الكفاية، أبو المفضل الشيباني عن أحمد بن مطوق بن سوار عن المغيرة بن محمد ابن المهلب عن عبد الغفار بن كثير عن ابراهيم بن حميد عن أبي هاشم عن مجاهد عن ابن عباس قال: قدم يهودي على رسول الله(صلى الله عليه و اله)، يقال له: نعتل. فقال: يا محمد إني أسألك عن أشياء تلجج في صدري منذ حين، فإن أنت أجبتني عنها، أسلمت على يدك . قال: سل يا أبا عمار! فقال: يا محمد صف لي ربك. فقال: ...

^{٤٢١} (2) كلمة الرسول الأعظم: 30.

^{٤٢٢} (1) كلمة الرسول الأعظم: 31.

^{٤٢٣} (2) بحار الأنوار: 140 / 77.

و ختم بي النبيون»^{٤٤٤}.

إنَّ الله اصطفاني:

«إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، و اصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، و اصطفى من بنى كنانة قريشا. و اصطفى من قريش بنى هاشم، و اصطفاني من بنى هاشم، قال الله تبارك و تعالى: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ»^{٤٤٥}.

ص: ٢٣٠=PAGE ص:

٤٤٤

مثلى مثل الغيث:

«إنَّ مثل ما بعثنى به ربى من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضا، منها طائفة طيبة، فقبلت الماء فأنبئت العشب و الكلاً الكبير، و كانت منها أجادب امسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها و سقوا و زرعوا، و أصاب طائفة منها أخرى، إنما هى قيعات، لا تمسك و لا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه فى دين الله، و تفقه فيما بعثنى الله به، فعلم و علم، و مثل من لم يرفع بذلك رأسا، و لم يقبل هدى الله الذى ارسلت به»^{٤٤٧}.

الإمام بعد رسول الله (صلى الله عليه و اله):

«يا عمّار! إنه سيكون بعدى هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، و حتى يقتل بعضهم بعضا، و حتى يبرأ بعضهم من بعض، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يمينى:

على بن أبى طالب، فإن سلك الناس كلهم واديا، و سلك على واديا فاسلك وادى على، و خلّ عن الناس.

يا عمّار! إن علياً لا يردك عن هدى، و لا يدلك على ردى.

يا عمّار! طاعة على طاعتى، و طاعتى طاعة الله»^{٤٤٨}.

«من ظلم علياً مقعدى هذا بعد وفاتى، فكأنما جحد نبوتى، و نبوة الأنبياء قبلى»^{٤٤٩}.

^{٤٤٤} (3) المصدر السابق: 324 / 16.

^{٤٤٥} (4) كلمة الرسول الأعظم: 35. راجع بحار الأنوار: 323 / 16.

^{٤٤٦} گروه مؤلفان، أعلام الهداية- قم، چاپ: دوم، 1425 هـ.ق.

^{٤٤٧} (1) بحار الأنوار: 184 / 1.

^{٤٤٨} (2) مجمع البيان: 534 / 3، روى أبو أيوب الأنصاري أن النبي (صلى الله عليه و اله) قال لعمار بن ياسر: ...

^{٤٤٩} (3) المصدر السابق: 534 / 3، عن كتاب شواهد التنزيل للحاكم أبي القاسم الحسكاني عن أبي الحمد مهدي ابن نزار الحسيني حدثني محمد بن القاسم بن أحمد عن أبي سعيد محمد بن الفضيل بن محمد عن محمد بن صالح العرزمي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي

و جاء عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال: دفع النبي (صلى الله عليه و اله) الراية يوم خيبر الى على ففتح الله على يده ثم فى غدیر خم أعلم الناس أنه مولى كل مؤمن و مؤمنة . و ساق الحديث و ذكر شيئا من فضائل على و فاطمة و الحسن و الحسين الى أن قال : «أخبرنى جبرئيل أنهم يظلمون بعدى و أن ذلك الظلم يبقى حتى اذا قام قائمهم و علت كلمتهم و اجتمعت الامة على محبتهم و كان الشانى لهم قليلا و الكاره لهم ذليلا و كثر المادح لهم و ذلك حين تغير البلاد و ضعف العباد و اليأس من الفرج فعند ذلك يظهر القائم المهدي من ولدى بقوم يظهر الله الحق بهم و يخمد الباطل بأسيا فهم - الى أن قال - «معاشر الناس أبشروا بالفرج فإن وعد الله حق لا يخلف، و قضاءه لا يرد و هو الحكيم الخبير و ان فتح الله قريب»^{٢٥٤}.

و عن ام سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه و اله) يقول: «المهدي من عترتى من ولد فاطمة»^{٢٥٥}.

ص: ٢٣٣=PAGE:

و جاء عن حذيفة بن اليمان أنه قال : خطبنا رسول الله (صلى الله عليه و اله) فذكر لنا ما هو كائن الى يوم القيامة ثم قال : لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله عز و جل ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلا من ولدى اسمه اسمى، فقام سلمان و قال: يا رسول الله إنه من أى ولدك؟ قال: هو من ولدى هذا و ضرب بيده على الحسين^{٢٥٦}.

٤- اصول التشريع الاسلامى فى تراث الرسول الأعظم (صلى الله عليه و اله)^{٢٥٧}

الف - خصائص الاسلام:

١- الإسلام يعلو و لا يعلى عليه.

٢- الإسلام يجب ما قبله.

٣- الناس فى سعة ما لم يعلموا.

٤- رفع عن امتى الخطأ و النسيان و ما استكروها عليه.

٥- رفع القلم عن ثلاثة: الصبى و المجنون و النائم.

ب- العلم و مسؤولية العلماء:

١- من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية.

٢- من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار.

^{٢٥٤} (3) ينابيع المودة: 440.

^{٢٥٥} (4) المصدر السابق: 430 عن أبي داود فى صحيحه: 87/4.

^{٢٥٦} (1) البيان فى أخبار صاحب الزمان للحافظ أبي عبد الله محمد بن يوسف بن محمد النوفلى: 129.

^{٢٥٧} (2) تراجع هذه النصوص و غيرها فى أعيان الشيعة 1/ 303-306.

٣- من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار.

٤- من أفتى بما لا يعلم لعنته ملائكة السماء والأرض.

٥- كل مفت ضامن.

٦- كل بدعة ضلالة و كل ضلالة سببها الى النار.

٧- من يرد الله به خيرا يحققه في الدين.

ص: ٢٣٤=PAGE:

٨- تعلموا الفرائض و علموها الناس فإنها نصف العلم.

٩- إذا أتاكم عنى حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فاقبلوه و ما خالفه فاضربوا به عرض الحائط.

١٠- إذا ظهرت البدعة فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله.

ج- قواعد عامة للسلوك الاسلامى:

١- لا رهبانية فى الإسلام.

٢- لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

٣- لا دين لمن لا تقية له.

٤- لا خير فى النوافل إذا أضرت بالفرائض.

٥- فى كل أمر مشكل القرعة.

٦- إنما الأعمال بالنيات.

٧- نية المرء أبلغ من عمله.

٨- أفضل الأعمال أحمرها.

٩- من دان بدين قوم لزمه حكمهم.

١٠- من سن سنة حسنة كان له أجرها و أجر العامل بها إلى يوم القيامة و من سن سنة سيئة كان عليه وزرها و وزر

العامل بها إلى يوم القيامة.

د- خطوط عامة في القضاء و المحاكمات:

١- إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر و إن أصاب فله أجران.

٢- إقرار العقلاء على أنفسهم جائز.

٣- البيّنة على المدعى و اليمين على من أنكر.

٤- لا يمين إلا بالله.

ص: ٢٣٥=PAGEص:

٥- ادروا الحدود بالشبهات.

٦- من قتل دون ماله فهو شهيد.

٧- على اليد ما أخذت حتى تؤدى.

٨- جناية العجماءات جبار.

٩- لا يؤاخذ الرجل بجريرة ابنه، و لا ابن بجريرة أبيه.

١٠- الناس مسلطون على أموالهم.

ه- العبادات في خطوطها العريضة:

١- إن عمود الدين الصلاة.

٢- خذوا عنى مناسككم.

٣- صلّوا كما رأيتمونى اصلى.

٤- زكّوا أموالكم تقبل صلاتكم.

٥- زكاة الفطرة على كل ذكر و اثنى.

٦- جعلت لى الأرض مسجدا و ترايها طهورا.

٧- جنبوا مساجدكم بيعكم و شراءكم و خصوماتكم.

٨- سياحة امتى الصوم.

٩- كل معروف صدقة.

١٠- أفضل الجهاد كلمة حق بين يدي سلطان جائر.

و- من اصول النظام العائلي:

١- النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني.

٢- تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الامم يوم القيامة.

ص: ٢٣٦=PAGE ص:

٣- تزوجوا و لا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه عرش الرحمن.

٤- تخيروا لنطفكم، فانكحوا الأكفاء و أنكحوا إليهم.

٥- الولد للفراش و للعاهر الحجر.

٦- جهاد المرأة حسن التبعل لزوجها.

٧- ليس على النساء جمعة و لا جماعة و لا أذان و لا إقامة و لا عيادة مريض و لا هرولة بين الصفا و المروة و لا جهاد و لا استلام الحجر و لا تولي القضاء و لا الحلق.

٨- المتلاعنان لا يجتمعان أبدا.

٩- قذف المحصنة يحبط عمل مئة سخيئة.

١٠- الرضاع ما أنبت اللحم و شد العظم.

١١- علموا أولادكم السباحة و الرمي.

١٢- من كان عنده صبي فليتصاب له.

ز- نقاط مضيئة من النظام الاقتصادي الاسلامي:

١- العبادة سبعة أجزاء أفضلها طلب الحلال.

٢- الفقه ثم المتجر.

٣- ملعون من ألقى كُله على الناس.

٤- ابدأ بمن تعول.

٥- اعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه.

٦- على كل ذي كبد حريّ أجر.

٧- المسلمون عند شروطهم.

٨- المسلم أحقّ بماله أيما وجده.

٩- الوقوف على حسب ما يوقفها أهلها.

ص:٢٣٧=PAGEص:

١٠- لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفسه منه.

١١- الكفن ثم الدين ثم الوصية ثم الميراث.

١٢- الصلح جائز بين المسلمين إلا ما أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً.

١٣- مظلّم وسر المسلم ظلم للمسلم.

١٤- البيعان بالخيار ما دام في المجلس.

١٥- شرّ المكاسب الربا.

١٦- لا ينتفع من الميتة بإهاب ولا عصب.

ح- من اصول التعايش الاجتماعي:

١- قتال المؤمن كفر و أكل لحمه معصية.

٢- حرمة المؤمن ميّتا كحرمته حيّا.

٣- كرامة الميت تعجيله في التجهيز.

٤- المؤمنون إخوة تنكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم و هم يد على من سواهم.

٥- الولاء للعتق.

٦- الولاء لحمه كلحمه النسب.

٧- سباب المؤمن فسوق.

٨- كل مسكر حرام.

٩- ما اسكر كثيره فالجرعه منه حرام.

١٠- عذاب القبر من النميمه و الغيبه و الكذب.

١١- لا غيبه لفاسق .

١٢- حرم لباس الذهب على ذكور امتي و حل لانائهم.

ص:٢٣٨=PAGEص:

٥- من جوامع الكلم في تراث الرسول الأعظم (صلى الله عليه و اله):

١- إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق.

٢- أنا مدينة العلم و على بابها.

٣- أحب الأعمال إلى الله أدومها و إن قلّ.

٤- إذا عمل أحدكم عملاً فليتيقن.

٥- الايمان نصفان: نصف في الصبر و نصف في الشكر.

٦- استعينوا على اموركم بالكتمان.

٧- الأمانة تجلب الرزق و الخيانه تجلب الفقر.

٨- الأيدي ثلاثه: سائله و منفقه و ممسكه، فخير الأيدي المنفقه.

٩- إذا ساد القوم فاسقهم و كان زعيم القوم أذلهم و أكرم الرجل الفاسق فليتنظر البلاء.

١٠- أعجل الشر عقوبه البغي.

١١- ألا إن شرار امتي الذين يكرمون مخافة شرهم. ألا و من أكرمه الناس اتقاء شره فليس مني.

١٢- بالبر يستعبد الحر.

١٣- بشروا و لا تنفروا.

١٤- بادر بأربع قبل أربع: شبابك قبل هرمك و صرحتك قبل سقمك و غناك قبل فقرك و حياتك قبل موتك.

١٥- ثلاث من مكارم الأخلاق في الدنيا و الآخرة: أن تعفو عن ظلمك و تصل من قطعك و تحلم على من جهل عليك.

١٦- ثلاث تخرق الحجب و تنتهي الى ما بين يدي الله : صرير أقلام العلماء و وطئ المجاهدين و صوت مغازل المحصنات.

ص: ٢٣٩=PAGE:

١٧- ثلاث تقسى القلب: استماع اللهو، و طلب الصيد و اتيان باب السلطان.

١٨- جبلت القلوب على: حب من أحسن إليها، و بغض من أساء إليها.

١٩- حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

٢٠- حب الدنيا رأس كل خطيئة.

٢١- الحكمة ضالة المؤمن. رأس الحكمة مخافة الله.

٢٢- حفت الجنة بالمكاره و حفت النار بالشهوات.

٢٣- حسنوا أخلاقكم و الطفوا بجيرانكم و اكرموا نساءكم تدخلوا الجنة بغير حساب، داووا أمراضكم بالصدقة.

٢٤- رأس العقل بعد الايمان بالله مداراة الناس في غير ترك حق.

٢٥- سادة الناس في الدنيا الأسخياء، سادة الناس في الآخرة الأتقياء. السعيد من وعظ بغيره.

٢٦- شر الناس من باع آخرته بدنياه، و شر من ذلك من باع آخرته بدنيا غيره.

٢٧- طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

٢٨- عليك بالجماعة فإن الذئب يأخذ القاصية.

٢٩- عليكم بالاقتصاد فما افتقر قوم اقتصدوا.

٣٠- عجبت لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء، كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار.

٣١- عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس.

٣٢- عد من لا يعودك، واهد لمن لم يهد إليك.

٣٣- الغنى غنى النفس.

٣٤- كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبباً، ولا تكن الخامس فتهلك.

٣٥- لا مال أعود من العقل.

ص:٢٤٠=PAGEص:

٣٦- لا فقر أشدّ من الجهل.

٣٧- لا عقل كالتدبير.

٣٨- ليس منّا من غشّ مسلماً أو ضرّه أو ماكره.

٣٩- من المروءة إصلاح المال.

٤٠- من أحبّ عمل قوم أشرك معهم فى عملهم.

٤١- من أحبّ قوما حشر معهم.

٤٢- من عمل بما علم ورثه الله ما لم يعلم.

٤٣- من أعان ظالماً على ظلمه سلّطه الله عليه.

٤٤- من يصلح ما بينه وبين الله يصلح الله ما بينه وبين الناس.

٤٥- من لا يرحم لا يرحم.

٤٦- من غشّ غشّ.

٤٧- من تساوى يوماه فهو مغبون.

٤٨- ما عال من اقتصد

٤٩- المؤمن من أمن الناس من يده و لسانه.

٥٠- المسلم من سلم الناس من أذاه.

٥١- المجالس بالأمانة.

٥٢- المسلم مرآة لأخيه المسلم.

٥٣- المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يثلمه.

٥٤- المستشار مؤتمن.

٥٥- ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه.

٥٦- من تفاجر افتقر.

٥٧- من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

ص:٢٤١=PAGEص:

٥٨- من أذاع فاحشة كان كمدبئها.

٥٩- و من عيّر مؤمنا بشيء لم يمت حتى يركبه.

٦٠- من عدّ غدا من أجله فقد أساء صحبة الموت.

٦١- من أرضى سلطانا بما يسخط الله خرج من دين الله.

٦٢- مداراة الناس نصف الايمان و الرفق بهم نصف العيش.

٦٣- يسرّوا و لا تعسّروا.

٦٤- يطبع المؤمن على كل خصلة و لا يطبع على الكذب و لا على الخيانة.

٦- نماذج من ادعيته الشريفة (صلى الله عليه و اله)

ألف- من دعائه فى شهر رمضان بعد المكتوبة : «اللهم أدخل على أهل القبور السرور، اللهم أغن كل فقير، اللهم أشبع كل جائع، اللهم اكس كل عريان، اللهم اقض دين كل مدين، اللهم فرج عن كل مكرو ب، اللهم رد كل غريب، اللهم فك كل أسير، اللهم أصلح كل فاسد من امور المسلمين، اللهم اشف كل مريض، اللهم سدّ فقرنا بغناك، اللهم غيّر سوء حالنا بحسن حالك، اللهم اقض عنا الدين و أغننا من الفقر إنك على كل شيء قدير».

ب- دعاؤه (صلى الله عليه و اله) يوم بدر: «اللهم أنت تقنى فى كل كرب، و أنت رجائى فى كل شدّة، و أنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة و عدّة، كم من كرب يضعف عنه الفؤاد و تقلّ فيه الحيلة، و يخذل فيه القريب، و يشمت به العدو، و تعينى فيه الأمور، أنزلته بك و شكوته اليك راغبا فيه اليك عن سواك ففرّجته و كشفته عنى و كفيّته، فأنت ولى كل نعمه، و صاحب كل حاجة، و منتهى كل رغبة، فلك الحمد كثيرا و لك المنّ فاضلا».

ج- دعاؤه (صلى الله عليه و اله) يوم الأحزاب: «يا صريخ المكروبين و يا مجيب دعوة المضطرين اكشف عنى همى و غمى و كرى فإنك تعلم حالى و حال أصحابى فاكفنى حول عدوى فإنه

ص: ٢٤٢=PAGEص:

لا يكشف ذلك غيرك».

د- دعاء علّمه (صلى الله عليه و اله) لبعض أصحابه يتقى به شرّ العدو:

ذكر ابن طاوس فى مهج الدعوات هذا الدعاء كما يلى:

«يا سامع كل صوت، يا محيى النفوس بعد الموت، يا من لا يعجل لأنه لا يخاف الفوت، يا دائم الثبات، يا مخرج النبات يا محيى العظام الرميم الدارات . بسم الله، اعتصمت بالله و توكلت على الحى الذى لا يموت، و رميت كل من يؤذيني بلا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم».

ه- دعاؤه (صلى الله عليه و اله) لقضاء الدين علّمه على بن أبى طالب (عليه السلام):

«اللهم اغتنى بحلالك عن حرامك و بفضلك عن سواك».

و- دعاؤه (صلى الله عليه و اله) إذا وضعت المائدة بين يديه:

كان رسول الله (صلى الله عليه و اله) إذا وضعت المائدة بين يديه قال:

«سبحانك اللهم ما أحسن ما تبتلىنا، سبحانك اللهم ما أكثر ما تعطينا، سبحانك اللهم ما أكثر ما تعافينا، اللهم أوسع علينا و على فقراء المؤمنين و المسلمين»^{٤٥٨}.

و آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

ص: ٢٤٣=PAGEص:

الفهرس التفصيلى

فهرس اجمالى ٥

مقدمة المجمع ٧

الباب الأول

المدخل: المنهج القرآني في عرض و دراسة التاريخ و السيرة ١٧

الفصل الأول: النبي الخاتم (صلى الله عليه و اله) في سطور ٢٥

الفصل الثاني: سنة البشارة على مدى العصور ٣١

الفصل الثالث: مظاهر من شخصية خاتم النبيين (صلى الله عليه و اله) ٣٩

الباب الثاني

الفصل الأول: دور الولادة و النشأة ٥١

١- ملامح انهيار المجتمع الوثني ٥١

٢- إيمان آباء النبي (صلى الله عليه و اله) ٥٢

٣- مولد الرسول (صلى الله عليه و اله) ٥٣

٤- رضاعه اليمون ٥٥

٥- الاستسقاء بالنبي (صلى الله عليه و اله) ٥٧

٦- مع امه آمنه ٥٨

٧- مع جدّه (صلى الله عليه و اله) عبد المطلب ٥٩

الفصل الثاني: دور الفتوة و الشباب ٦١

١- كفاؤ أبي طالب للنبي (صلى الله عليه و اله) ٦١

٢- السفرة الاولى الى الشام ٦٢

ص: ٢٤٤=PAGEص:

٣- رعى الغنم ٦٢

٤- حروب الفجار ٦٣

٥- حلف الفضول ٦٤

٦- التجارة بأموال خديجة ٦٥

الفصل الثالث: من الزواج الى البعثة ٦٧

١- الزواج المبارك ٦٧

٢- إعادة وضع الحجر الاسود ٧٠

٣- ولادة على (عليه السلام) و تربية النبي (صلى الله عليه و اله) له ٧١

٤- ملامح من شخصية خاتم الأنبياء (صلى الله عليه و اله) قبل البعثة ٧٣

الباب الثالث

الفصل الأول: البعثة النبوية المباركة و ارهاصاتها ٧٧

الفصل الثاني: مراحل حركة الرسالة فى العصر المكي ٨٧

١- بناء الخلية الإيمانية الاولى ٨٧

٢- أدوار العصر المكي ٨٨

٣- دور إعداد القاعدة الاولى ٨٨

٤- دور المواجهة الاولى و إنذار الأقربين ٩٠

٥- دور المواجهة الشاملة ٩١

الفصل الثالث: موقف بنى هاشم من النبي (صلى الله عليه و اله) ٩٣

١- دفاع أبى طالب (عليه السلام) عن الرسالة و الرسول (صلى الله عليه و اله) ٩٣

٢- موقف قريش من الرسالة و الرسول (صلى الله عليه و اله) ٩٥

٣- الكفر يابى الانصياع لصوت العقل ٩٦

٤- الاتهام بالسحر ٩٧

ص:٢٤٥=PAGE:

٥- التعذيب وسيلة لقمع المؤمنين ٩٨

٦- الهجرة الى الحبشة لايجاد قاعدة آمنة ١٠٠

٧- الحصار الظالم و موقف بنى هاشم ١٠٢

٨- عام الحزن ١٠٣

٩- الاسراء و المعراج ١٠٤

الفصل الرابع: سنوات الانفراج حتى الهجرة ١٠٧

١- الطائف ترفض الرسالة الإسلامية ١٠٧

٢- الانفتاح على الرسالة و معوقاتها في مكة ١٠٩

٣- بيعة العقبة الاولى ١١٠

٤- بيعة العقبة الثانية ١١٢

٥- الاستعداد للهجرة الى يثرب ١١٤

٦- المؤاخاة قبل الهجرة ١١٦

الباب الرابع

الفصل الأول: تأسيس الدولة الإسلامية الاولى ١١٩

١- الهجرة الى يثرب ١١٩

٢- بناء المسجد النبوى ١٢٢

٣- المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار ١٢٣

٤- معاهدة المدينة ١٢٥

٥- النفاق و بدايات الاستقرار فى المدينة ١٢٧

٦- تحويل القبلة الى الكعبة ١٢٨

٧- بدايات الصراع العسكرى ١٢٨

ص:٢٤٦=PAGEص:

الفصل الثانى: الدفاع عن كيان الدولة الفتيية ١٣١

١- غزوة بدر الكبرى ١٣١

٢- اهتمام النبى (صلى الله عليه و اله) بزواج الزهراء (عليها السلام) ١٣٦

٣- الصدام المباشر مع اليهود و إجلاء بنى قينقاع ١٣٨

٤- ردود فعل قريش بعد انتصارات المسلمين ١٣٩

٥- غزوة احد ١٤٠

٦- محاولات الغدر بالمسلمين ١٤٥

٧- غزوة بنى النضير ١٤٦

٨- مناوشات عسكرية بعد احد ١٤٧

٩- غزوة بنى المصطلق و دور النفاق ١٤٨

١٠- إبطال أعراف جاهلية ١٥٠

الفصل الثالث: تظاهر قوى الشرك و الرد الإلهى الحاسم ١٥٣

١- تحالف قوى الشرك و غزوة الخندق ١٥٣

٢- الضغط على المسلمين ١٥٥

٣- هزيمة العدو ١٥٥

٤- غزوة بنى قريظة و تصفية يهود المدينة ١٥٦

الباب الخامس

الفصل الأول: مرحلة الفتح ١٦١

- ١- صلح الحديبية ١٦١
- ٢- انطلاقة الوسالة الاسلامية الى خارج المدينة ١٦٦
- ٣- غزوة خيبر ١٦٧
- ٤- محاولة اغتيال النبي (صلى الله عليه و اله) ١٦٩

ص:٢٤٧=PAGEص:

- ٥- استسلام أهالي فدك ١٦٩

- ٦- عمرة القضاء ١٧٠

الفصل الثاني: الاسلام خارج الجزيرة ١٧٣

- ١- معركة مؤتة ١٧٣
- ٢- فتح مكة ١٧٤
- ٣- غزوة حنين و حصار الطائف ١٨١
- ٤- غزوة تبوك ١٨٥
- ٥- مسجد ضرار ١٨٩
- ٦- عام الوفود ١٩٠
- ٧- وفاة إبراهيم ١٩١

الفصل الثالث: تصفية الوجود الوثني داخل الجزيرة ١٩٣

- ١- إعلان البراءة من المشركين ١٩٣
- ٢- مباهلة نصارى نجران ١٩٤

٣- حجة الوداع ١٩٦

٤- تعيين الوصى ١٩٩

٥- ظهور المنتبئين ٢٠١

٦- التعبئة العامة لغزو الروم ٢٠٣

الفصل الرابع: أيام الرسول (صلى الله عليه و اله) الأخيرة ٢٠٥

١- الحيلولة دون كتابة الوصية ٢٠٥

٢- الزهراء (عليها السلام) تزور أبائها (صلى الله عليه و اله) ٢٠٦

٣- اللحظات الأخيرة من عمر النبي (صلى الله عليه و اله) ٢٠٧

٤- وفاة النبي (صلى الله عليه و اله) و مراسم دفنه ٢٠٨

ص:٢٤٨=PAGEص:

الفصل الخامس: من معالم الرسالة الاسلامية الخاتمة ٢١١

١- بما ذا بعث النبي محمد (صلى الله عليه و اله)؟ ٢١١

٢- سهولة الشريعة الاسلامية ٢١٢

٣- سموّ التعاليم الاسلامية ٢١٢

٤- القرآن الكريم ٢١٤

٥- الواجبات و المحرمات فى الشريعة الاسلامية ٢١٥

الفصل السادس: تراث خاتم المرسلين (صلى الله عليه و اله) ٢١٧

نماذج من تراث سيّد المرسلين (صلى الله عليه و اله) ٢٢٣

١- العقل و العلم ٢٢٣

٢- مصادر التشريع ٢٢٥

٣- اصول العقيدة الاسلامية ٢٢٨

٤- اصول التشريع الاسلامي ٢٣٣

٥- من جوامع كلم الرسول الأعظم (صلى الله عليه و اله) ٢٣٨

٦- من أدعيته الشريفة ٢٤١

الفهرس التفصيلي ٢٤٣

***٤٥٩